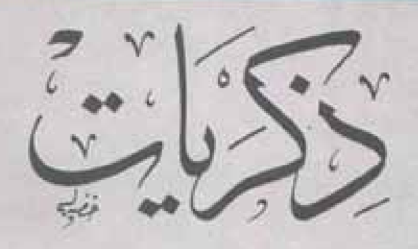
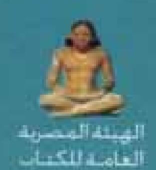
١٢

أدباء القرن العشرين

فاطمة اليوسف



مذكرات



أدباء القرن العشرين



سلسلة أدباء القرن العشرين

سلسلة تعنى بنشر إبداع
أدباء القرن العشرين

رئيس مجلس الإدارة
المشرف العام
د. ناصر الأنصارى

رئيس التحرير
حسين البنهاوى

تصميم الغلاف
د. مدحت متولى

الإشراف الفنى والطباعى
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد



اليوسف، فاطمة.
ذكريات/ فاطمة اليوسف .. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨.
٣٠٨ ص، ٢٢ سم (أدباء القرن العشرين).
تدمك ٤ - ٦١١ - ٤٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - اليوسف، فاطمة - المذكرات.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٦٦٧ / ٢٠٠٨
I.S.B.N 978 - 977- 420 - 611- 4
ديوى: ٩٢٠



الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - جمهورية مصر العربية - كورنيش النيل - رملة بولاق
ص. ب: ٢٣٥ - الرقم البريدى ١١٧٩٤ رمسيس
ت: ٢٥٧٧٥٢٢٨/ ٢٥٧٧٥٠٠٠ فاكس: ٢٥٧٥٤٢١٣ (٢٠٢)

www.gebo.gov.eg/Email:info@gebo.gov.eg



فاطمة اليوسف



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

إليك يا بنى، أهدى هذه الذكريات «الناقصة» كما تقول...
وأنك لتعلم أن من الأشياء ما يصعب على المرء أن يقوله،
أو يوضحه... وأنه ليكفى أن تكون عالمًا بما فى هذه
الذكريات من نقص، لأطمئن إلى أنك سوف تكملها ذات يوم...

أمى.. هذه السيدة

بقلم: إحسان عبد القدوس*

هذه الذكريات ناقصة.. ناقصة إلى حد كبير!.

إن والدتى السيدة فاطمة اليوسف لم تحدثنا فى هذه الذكريات، عن المشكلة الكبرى التى استطاعت وحدها أن تحلها، والتى لا يزال المجتمع المصرى كله حائرًا أمامها: كيف استطاعت أن تجمع بين جهادها الشاق المضنى الذى بدأته وهى فى السابعة من عمرها... وبين واجبها كزوجة وكأم؟!

أنا نفسى لا أدرى!!

لا أدرى كيف استطاعت أن تحملنى تسعة شهور وهى واقفة على خشبة المسرح تعتصر الفن من دمها وأعصابها لتكون يومًا أعظم ممثلة فى الشرق..

ولا أدرى كيف استطاعت أن تطرد عنى الموت الذى طاف بى مرات خلال طفولتى وصباى، فى حين أنها كانت دائمًا بعيدة عنى تسعى فى طريق مجدها...

---

* الأديب والكاتب الصحفى (١٩٢٩ ـ ١٩٩٠).

ولا أدرى كيف استطاعت أن تنشئنى هذه النشأة، وأن تغرس فىّ هذه المبادئ وهذا العناد، وأن تقودنى كطفل وكشاب فى مدارج النجاح، فى حين أنى لم ألتق بها أبدًا إلا وفى رأسها مشروع وبين يديها عمل...

كيف استطاعت أن تجمع فى شخصها كل هذا؟.

وإذا كانت قد استطاعته، فكيف تستطيعه أية سيدة أخرى تريد أن تسعى سعيها...

إنها لم تكن غنية يوم ولدتنى ويوم نشأت فى رعايتها، ولا كان أبى غنيًا.. فلم يكن قدرة على استئجار مربية لتعهد بى إليها، ولم تكن الحياة قد سهلت إلى هذا الحد الذى نراه الآن لتيسر تربية الأطفال... إنما هى التى صنعتنى بيديها هى التى أرضعتنى، وهى التى أعدت طعامى، وهى التى بدلت ثيابى، وهى التى قامت على مرضى، وهى التى وضعتنى فى فراشى، وهى التى علمتنى كيف أخطو، ولقنتنى كيف أنطق..

صنعتنى بيديها، كما صنعت مجدها بيديها، كل يوم من أيام هذا المجد، وكل حرف فيه، وكل خطوة من خطواتها... هى وحدها صاحبة الفضل فيه، وليس لأحد فضل عليها..

هى التى التقطت دروس الفن وجعلت من نفسها "سارة برنارد الشرق" كما أطلق عليها نقاد ذلك الجيل..

هى التى علمت نفسها القراءة، ولم تدخل مدرسة ولا اضطرها أحد إلى تعلمها..

وهى التى دخلت ميدان الصحافة وفى يديها خمسة جنيهات وأنشأت مجلة تحمل اسمًا يكاد يكون اسمًا أجنبيًا ـ وهو الاسم الذى اشتهرت به على المسرح ـ فاستطاعت أن تجعل من هذه المجلة أقوى المجلات نفوذًا فى الشرق. وأن ترسم بها مستقبل مصر، واستطاعت أن تجعل من هذا الاسم الذى يكاد يكون أجنبيًا، علمًا يضم تحته كل الكتاب وأنضج الآراء، ولا يثير عجبًا فى مصر، كما لا تثير الأهرام أو أبو الهول عجبًا بين بنى مصر...

وهى التى لقنت نفسها أصول الوطنية والمبادئ السياسية إلى أن استطاعت أن تملى أدق الآراء، وأن تتنبأ أصدق التنبؤات.. وفى تاريخ «روز اليوسف» الطويل، أى منذ ثمانية وعشرين عامًا إلى اليوم، لم يسقط رأى من آرائها، ولم تخط مصر خطوة من تاريخها إلا وكانت هى الداعية لها..

وهى.. السيدة التى لا تحمل شهادة مدرسية ولا مؤهلاً علميًا.. هى التى أخرجت جيلاً كاملاً من الكُتَّاب السياسيين ومن الصحفيين... هى التى أرشدت أقلامهم، وهى التى وجهتهم، وهى التى بثت الروح فيهم، وهى التى انتقتهم ورشحتهم لمستقبلهم.. ولا تزال إلى اليوم تخرج منهم فوجًا بعد فوج..

وهى.. السيدة اليتيمة التى واجهت مسئوليات الحياة وهى فى السابعة من عمرها.. هى التى استطاعت يومًا أن تتحدى كل سلطات الدولة... الإنجليز والملك والأحزاب كلها.. وتألبوا جميعًا عليها يحاولون هدمها ويحاولون القضاء على هذه الصفحات الثائرة التى تحمل اسمها.. ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن يجعلوها فقيرة أحيانًا، وأن يسجنوها حينًا، وأن يصادروها عشرات المرات، وأن

يحاكموها مئات المرات... وأن... وأن... ولكن الصفحات الثائرة ظلت تصدر دائمًا وبانتظام لم يستطع أحد منهم أن يقضى عليها،ولم يستطع أحد منهم أن يحنى هذا الرأس العنيد القوى ولم يستطع أحد منهم أن يكون أقوى من هذه الوحيدة اليتيمة.. السيدة!.

كيف حدث هذا؟!

أنا نفسى لا أدرى!.

وكنت أحيانًا أضع نفسى بعيدًا عنها وأجرد نفسى من عاطفتى نحوها، ثم أحاول أن أدرسها كما يدرسها أى غريب عنها، علنى أجد مفتاحًا لشخصيتها، وعلنى أخرج من دراستى بقاعدة عامة لحياتها أطبقها على بنات جنسها... ولكنى كنت أخرج دائمًا بمجموعة من المتناقضات لا يمكن أن تجتمع فى إنسان واحد...

إنها هادئة رقيقة تكاد تذوب رقة... يحمر وجهها خجلاً إذا ما سمعت كلمة ثناء.. ويكاد صوتها الناعم الخفيض الرفيع المنغم يشبه صوت فتاة فى الرابعة عشرة.. وهى تفضل العزلة، ولها دنيا خاصة تعيش فيها، وليس لها كثير من الأصدقاء الخصوصيين، رجالاً أو نساء، وأغلب من يعرفونها لا تعرفهم، وهى تكره المجتمعات وتكره أن تقيم فى بيتها حفلة أو مأدبة، بل إنها فى بعدها عن الناس يفوتها كثير من المجاملات، حتى هذه المجاملات التى يتطلبها العمل.. وهى بعد كل هذا، قلب طيب ينشر الحب والسلام حوله، حتى تبدو ساذجة تستطيع أن تضحك عليها بكلمة، ويد سخية تعطى باستمرار وتأبى أن تأخذ نظير ما تعطى..

هذا وجه من أوجه شخصيتها.. وجه تراه فى بيتها، وهى واقفة فى المطبخ تعد طبق ورق العنب، كزوجة مثالية، ثم تدور بين الغرف ترتب قطع الأثاث أو تنمق أوانى الزهر.. أو تراه فى مكتبها وكل شىء هادئ من حولها والعمل يسير فى نظامه الرتيب..

وفجأة يتغير هذا الوجه.. فإذا بها أعنف من العاصفة، وإذا بهذا الصوت الرفيع يرتفع ليزلزل مكاتب المحررين وعنابر المطبعة من حوله.. وإذا بها قوية إلى حد القسوة، جريئة إلى حد التهور، لا تخفى رأيًا صريحًا ولا تصون مصلحة من مصالحها... جريئة إلى حد أن تقول لكريم ثابت عندما جاءها يبلغها تهنئة فاروق بمرور عام من أعوام مجلتها: «قل لمولاك إنى أرفض تهنئته»، وجريئة إلى حد أن تقول لإبراهيم عبد الهادى وهو فى سطوة نفوذه: «يا إبراهيم استقل»... وجريئة إلى حد أن تتحدى وحدها مظاهرة ضخمة أطلقها الوفد عليها ليحطم دارها..

وإذا بها مختلطة بالناس إلى حد أن تتردد على دور الأحزاب، وتشترك فى الاجتماعات السياسية، وتدعو الزعماء إلى بيتها.

وإذا بها قاسية إلى حد أن تطردنى من العمل أو تستغنى عن خدمات محرر آخر، ربما لم يمض على منحه مكافأة أسبوع واحد، وبخيلة إلى حد أن ترفض قرضًا لعامل قد تكون وهبته بالأمس إعانة من جيبها الخاص...

وتبحث كل هذه المتناقضات... فإذا بها كانت محقة فى هدوئها، وكانت محقة فى ثورتها، وكانت محقة فى طيبتها وكانت محقة فى قسوتها، وكانت محقة فى كرمها وكانت محقة فى بخلها..

ولكن ما هى الشخصية الواحدة التى تملى عليها كل هذه التصرفات..

هل يكفى أن نقول إنها ذكية؟...

هل يكفى أن نقول إنها قوية؟..

هل يكفى أن نقول إنها صادقة الإحساس، وأن تصرفاتها كلها تصدر عن هذا الإحساس؟..

أنا نفسى لا أدرى!

فإذا اقتربت منها وحاولت أن أدرسها بإحساسى كابن لها، ازددت حيرة وواجهتنى نفس المتناقضات..

فهى أم حنون مرهفة العاطفة، إلى حد أنها لا تزال أحيانًا تبكى وهى تقبلنى، بل إن عاطفتها تغلبها أحيانًا فتقبلنى أمام زملائى المحررين، وأذوب أنا خجلاً منهم!! بل إنها تفرح باليوم الذى أقضيه فى بيتها كأنها أم ريفية تستقبل ولدها بعد غياب طويل، وتكاد تشعرنى أنها ابنتى أكثر منها أمى فأضمها بين ذراعى وأسند رأسها على صدرى وأربت عليها وأغمر جبينها الطاهر بقبلاتى كأنها طفلة تحتمى بى.

ويبلغ من حنانها، أنها ـ قبل أن أشترك معها فى العمل ـ كانت تخفى عنى كل ما يصيبها من نكبات، وحدث أن خسرت كل ما تملك نتيجة حملة اضطهاد سلطتها عليها حكومة الوفد، حتى أنها لم تستطع أن تدفع مرتبات الخدم والسائق، فتركوها جميعًا وكل منهم يترك دموعه فوق يدها وهو يقبلها.. واستطاعت أن تستخلص القليل مما بقى لتضمن للمجلة استمرار ظهورها، ثم مرت أيام لم

تكن تجد فيها ثمن الطعام الذى تأكله.. وكنت فى ذلك الحين أقيم مع أبى، وأتردد عليها كلّ أسبوع فتعطينى عشرة قروش للذهاب إلى السينما.. وفى وسط هذه الظروف القاسية التى تمر بها حرصت على أن تعد لى دائمًا هذه العشرة قروش، وهى فى حاجة إلى خمسة منها لتأكل بها.. كل ذلك حتى لا أدرى وحتى لا أشاركها همها فيصيبنى اليأس قبل أن يشتد ساعدى..

وفى خلال الحرب الأخيرة مرت بها أزمة أخرى.. واضطرت أن تبيع سيارتها فى الوقت الذى كان كل أصحاب الصحف يبنون الثروات.. وكانت تضطر أن تسير على قدميها كل صباح ساعة كاملة من بيتها فى الزيتون إلى سراى القبة لتركب الأتوبيس الذى يوصلها إلى مكتبها، ثم كانت تقول لى إن الطبيب أوصاها بالسير الطويل محافظة على صحتها!! حتى لا أدرى، ولا أشاركها همها...

كل هذا الحنان الذى لا تستطيعه كل أم، كان يقابله قسوة لا أعتقد أيضًا أن كل أم تستطيع أن تقسو بها على ابنها.. فقد طردتنى مرة ـ كما قلت ـ من العمل، وأنا متزوج وصاحب أولاد، أو على الأصح تركتنى أخرج من العمل، وظلت عامًا كاملاً لا تخاطبنى، وقد تلتقى بى فتتجاهلنى، وأمد يدى لأقبل يدها فترفضها.. بل إنها ضربتنى يومًا فى مكتبى وبين زملائى عقب تخرجى فى الجامعة.. وهى إلى اليوم لا تزال تقسو أحيانًا علىّ وعلى شقيقتى، ويبلغ من قسوتها أننا لا نعرف لها سببًا، ولكننا دائمًا نعرف السبب بعد أن نثوب إلى الطريق الصحيح.

وإنى أعترف أن هذه القسوة كانت من الأحجار القوية فى بنائى، وإعدادى للعمل الذى أقوم به..

ولكن كيف تستطيع هذه الأم الحنون إلى هذا الحد، أن تقسو إلى هذا الحد؟

كيف نستطيع أن نجمع بين هذه المتناقضات فى شخصية واحدة؟

كيف نستخلص من هذه الحياة ومن هذه الشخصية قاعدة تتبعها كل سيدة تريد أن يكون لها هذا الجهاد؟...

هذا ما كنت أنتظره ـ مع القراء ـ من هذه الذكريات.. ولكنها ذكريات ناقصة...

ورغم ذلك فإنى لا أريد من دنياى شيئًا إلا أن يكون لى بعض هذه الذكريات...

مستحيل...

فإنها فى كل سطر من ذكرياتها تقول: أنا صنعت من نفسى هذه السيدة..

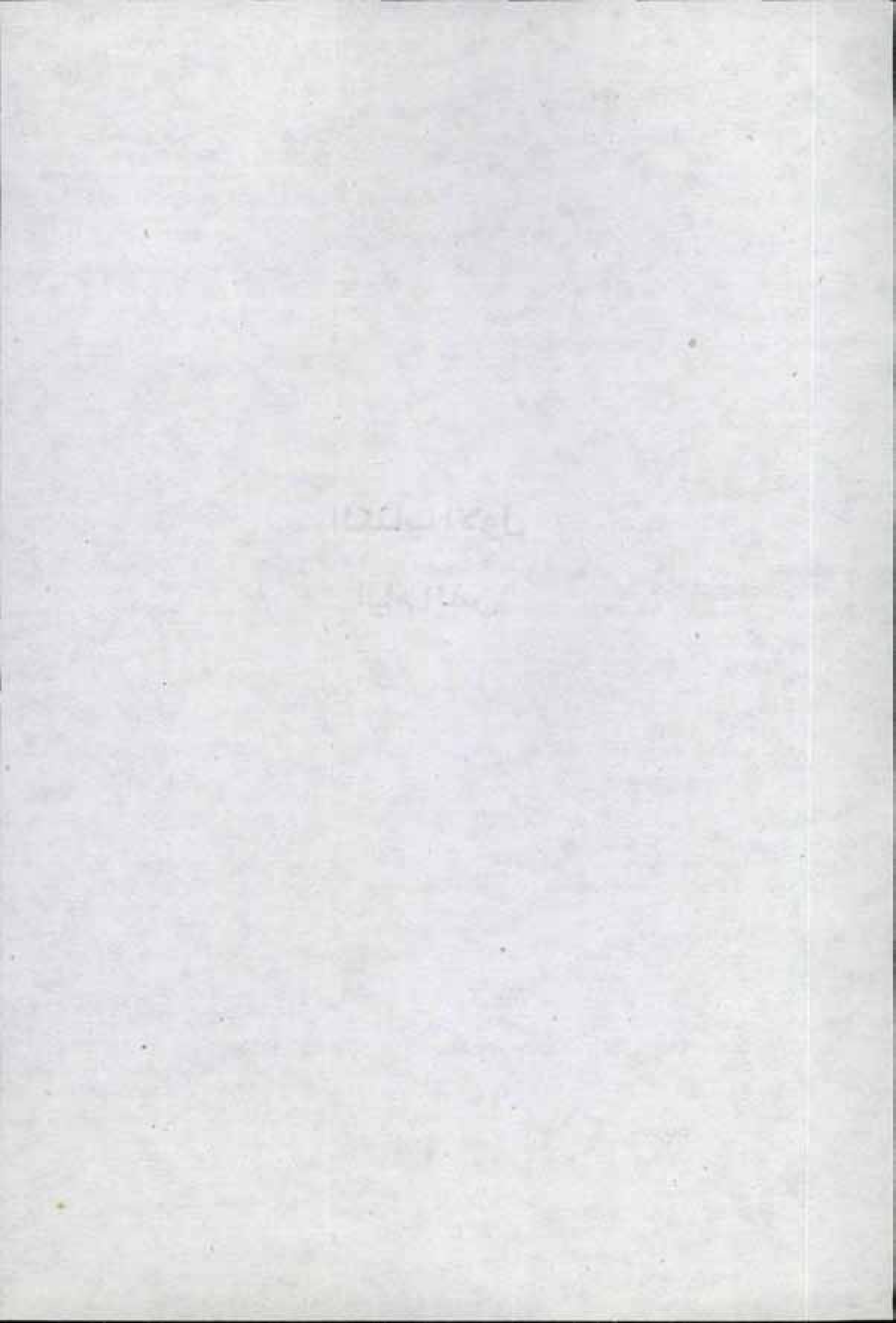
أما أنا فمهما كانت ذكرياتى، فلا أستطيع أبدًا إلا أن أقول: أمى صنعت منى هذا الرجل!..

ليست هذه الصفحات مذكرات، إنما هى ذكريات متزاحمة. وإذا كان القارئ يجد أحيانًا أن وقائعها ليست منظمة وفقًا لتسلسلها التاريخى، فما ذلك إلا لأن الفترة التى تؤرخ لها هذه الذكريات كان طابعها عدم الاستقرار، وكان الاضطراب هو «نظام» حياة أبطالها..

«ف»

الكتاب الأول

أيام الفن



الفصل الأول

- إكليل من البرسيم لدولت أبيض!
- عزيز عيد يزور امه ليأكل مجانًا!
- خمس ليالٍ لجنود الإنجليز وحدهم!

ليس من عادتى أن أنظر كثيرًا إلى الماضى... فقد كان لدى دائمًا من مشاكل اليوم والغد، ما يشغلنى عن تأمل الأمس البعيد. على أن الماضى لا يموت أبدًا. إنه يعيش فينا بكل ما مر فيه من سعادة أو شقاء. وأنه ليكفى أحيانًا أن يمر بالإنسان حادث صغير، أو مناسبة بسيطة، لينهار هذا السد الذى نقيمه دون الماضى، وتتدفق كل الذكريات... كالموج الهادر..

وقد جاءت هذه المناسبة البسيطة التى ردتنى إلى الماضى دفعة واحدة، أثناء الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة حركة الجيش. وكنت جالسة أسمع أصوات الفنانين تنقلها إلى أمواج الراديو، وقد احتشدوا جميعًا على مسرح واحد... يوسف وهبى وحسين رياض وأحمد علام وزينب صدقى وأمينة رزق وعشرات غيرهم من الفنانين القدماء والمحدثين. وعادت بى الذاكرة إلى تلك الأيام

المجيدة... حين كان هؤلاء الأبطال هواة ناشئين، وفنانين أحرارًا... أحرارًا حقًا لا يملكون شيئًا سوى فنهم، ولا تقيدهم إلا عقيدتهم... وحين كانوا يلتفون كالتلاميذ المخلصين حول أستاذهم القصير القامة، العميق الصوت، المفلس دائمًا: عزيز عيد.

إننى لا أعرف فنانًا مصريًا ضحى من أجل الفن، وتشبث بمبادئه الفنية فى جميع الظروف مثل عزيز عيد. ولم يكن عزيز فنانًا على المسرح فحسب، بل كان فنانًا فى حياته الخاصة، فى علاقاته بالناس... فنانًا حتى أطراف أصابعه.

كان عزيز عيد يرضى بالفقر، بالجوع، بأى شىء... إلا أن يخرج رواية تمثيلية واحدة بطريقة لا يرضى عنها. فإذا أخذ فى إخراج رواية دقق فى اختيار الممثلين تدقيقاً بالغًا... لا يعطى أتفه دور فيها لممثل لا يؤمن بكفاءته.. أما الكفاءة "الخام" فقد كان يلتقطها من أول لمحة، ويعرف على الفور أى الأدوار يصلح لهذا الفتى أو الفتاة... ثم ينصرف بكليته إلى تدريب النجم الناشئ وتمرينه حتى يخلقه خلقًا جديداً... فإذا اضطر لإسناد دور فى الرواية إلى ممثل لا يعتقد بكفايته الفنية، تركه يمثل كما يشاء، ويبخل عليه بملاحظة أو نصيحة واحدة... إنه فى الفن لا يعترف بالشىء الوسط أبدًا، أما أن يكون الواحد فنانًا تمامًا.. أو ليس من الفن فى شىء.

وكانت هذه الطبيعة تكلفه ثمنًا غاليًا، لا يتحمله الناس العاديون... هو الإفلاس التام بالأيام والشهور... فهو لم يكن يملك شيئًا على الإطلاق، وقد يرفض إخراج الرواية التى لا تلائمه ويرفض معها الأجر الكبير، ليخرج إلى الشارع معدمًا، مفلسًا، يصوم اليوم وبعض اليوم حتى يزور أمه فيأكل عندها مجانًا، وقد تعطيه وهو خارج قرشين أو ثلاثة .

وحول هذا الأستاذ كانت تلتف على الدوام شلة عجيبة من تلاميذه المخلصين. يمثلون أمامه فى أيام الرخاء ويفلسون مثله فى أيام الضيق... وكانت هذه الشلة تتكون فى ذلك الوقت من نجيب الريحانى وحسين رياض وستيفان روستى وممثل اندثر هو "صادق المقرطم" وقد سمى كذلك إذ كانت بعض أصابعه مقطوعة، ومعهم ممثلة شابة ناشئة، كانت تؤمن بعبقرية عزيز عيد إيمانًا مطلقًا، وقال عزيز عنها يوم رآها تمثل لأول مرة: إنها ستكون أحسن ممثلة دراما.

أما عزيز فقد كان ممثلاً كوميديًا من الطراز الأول. وكان يمتاز بصفة قل أن توجد إلا فى مثله من الأساتذة هى: إنه إذا وقف على المسرح انصرف إلى مساعدة الممثلين الذين يلعبون أمامه، مهما كانوا ناشئين. ذلك أن قدمه راسخة جدًا على المسرح. فهو فى غنى عن العناية بنفسه، فى غنى عن محاولة الظهور على غيره... وإنى لأذكر أن الظروف اضطرته مرة إلى أن يمثل دور «الأب ديفال» فى مسرحية «غادة الكاميليا».. وبالرغم من أن لونه الأصلى كوميدى، ومن أن شكله الهزيل وصوته الساخر كانا غير ملائمين لدور الأب ديفال وهو دور رجل وقور جليل... إلا اننى أستطيع أن أؤكد أنه كان خير من لعب هذا الدور على المسرح المصرى إلى الآن. وقد بلغ من إعجاز أدائه أن تلك الممثلة الناشئة ـ وكانت قد أصبحت بطلة المسرح الأولى ـ بكت بكاء حقيقيًا وهى تمثل أمامه دور غادة الكاميليا.. وكان هذا حدثًا فنيًا.. فقد كان معروفًا عن هذه الممثلة أنها لا تبكى على المسرح أبدًا، باعتبار أن البكاء هو أسهل وأرخص طريقة للتعبير عن التأثر. ولكنها فى تلك الليلة لم تملك نفسها

فبكت.. وبكت بكاء حقيقيًا وهى ترى أستاذها يرتجف وينبض فى دور الأب الحزين...

ومع ذلك فقد كان عزيز يقول إنه مخرج أولاً، وإن تلاميذه هؤلاء هم الممثلون... فإذا خرج مفلسًا، بحث عن طريقة يلفق بها مسرحًا يخرج عليه مسرحية ترضى نزعته الفنية من لون الفودفيل الأخلاقى.. بعيدًا عن أى تهريج أو سخف أو ابتذال..

وقد حدث مرة أن خرج عزيز عيد من فرقة جورج أبيض. وكانت فرقة جورج أبيض موجودة منذ سنة ١٩١٢ فلما جاءت الحرب العالمية الأولى، وامتلأت مصر بجنود الإنجليز والمستعمرات، واكتسحت القاهرة بالتالى موجة من الانحلال وشاعت الكباريهات والحانات حتى قتلت المسارح، وانكمش المصريون فى حياتهم الخاصة تاركين الميدان للجنود السكارى.. ولم تبق من فرق التمثيل إلا فرقة جورج أبيض، وكانت تعيش على ثلاث روايات مترجمة، أوديب الملك، وعطيل، ولويس الحادى عشر...

ترك عزيز فرقة جورج فى هذه الظروف الخانقة... وكان يفكر فى الرواية المصرية الصميمة، النابعة من أعماق الحياة المصرية، والتى لم تكن قد عرفت طريقها إلى المسرح بعد.. وعاش عزيز فترة من الزمن متشردًا بأفكاره، مفلسًا إلا من أحلامه.. حتى التقى فى سنة ١٩١٧ بأمين صدقى.. وتوثقت صلتهما حتى أصبحا «ثنائيًا» شهيرًا مثل نجيب الريحانى وبديع خيرى فيما بعد.. واستطاعا أن يؤلفا دراما مصرية ريفية من فصل واحد اسمها «القرية الحمراء»...

واستأجر عزيز مسرح برنتانيا (مكان سينما كايرو بالاس الآن) وبدأ يقدم هذه المسرحية مع تلاميذه. وبعض الهواة... وكانت قصتها بسيطة أبطالها «عمدة كفر البلاص» وخفير، وابنه الخفير... فلاحة شابة جميلة... وتعمل الفتاة «عين أبوها» فى خدمة العمدة الذى يحبها... ويغتصبها.. فيثور أبوها الخفير ويقتلها. وقد مثل عزيز عيد دور العمدة، ومثل الريحانى دور الخفير وقامت تلك الممثلة الناشئة بدور «عين أبوها».

ولكن الرواية لم تنجح... ولم تستطع هذه الفرقة المجاهدة أن تقف فى وجه الكباريهات والصالات أكثر من أسبوعين.. ثم أسدلت ستارها الأخير..

وتكاثر الناس حول عزيز عيد يحاولون إقناعه بأن يغير رأيه... أن يتخلى ولو قليلاً عن مثله الفنية.. ولكنه أبى، وكان أول من انشق من «الشلة» نجيب الريحانى.. إذ تشاجر يومًا مع عزيز عيد.. وصاح فيه: إذا كنت لا تريد أن تعيش فإننا نريد أن نأكل!.

والتحق الريحانى بكباريه كان يوجد فى شارع ألفى مكان كازينو شهرزاد الحالى. وكان يملكه رجل رومى ويقدم فيه استعراضات من راقصات أجنبيات. وكان نجيب يحب راقصة تعمل هناك اسمها «لوسى» فاجتذبته للعمل معها. وعرض عليه صاحب الكباريه ٢٥ جنيهًا مرتبًا شهريًا ليخرج له روايات من نوع روايات عزيز عيد، مع تحريفها تحريفًا يضمن إقبال جمهور الكباريهات من المصريين والإنجليز على السواء..

وفعلاً بدأ الريحانى يقدم روايات «فرانكو آراب» راقصة واقتبس شخصية العمدة من رواية «القرية الحمراء» وجعلها شخصية

كوميدية، وسماه «كشكش بك»... و «كشكش» فى الأصل هو اسم التدليل الذى كانت لوسى تنادى به صديقها نجيب.. وهكذا ولدت شخصية "كشكش بك" الخالدة فى تاريخ المسرح المصرى.

وقد نجحت روايات الريحانى الفرانكو آراب هذه نجاحًا كبيرًا.. وارتفع مرتبه فى شهور قليلة من ٢٥ إلى ٢٠٠ جنيه.. وانطلقت سائر الكباريهات تقلد هذا اللون وتحاول تقديم روايات مشابهة.. أما عزيز عيد... فكان يذهب إلى نجيب.. ويجلس فى آخر الصفوف، وهو يتحسر على نجيب لنزوله إلى هذا المستوى -فى رأيه- من أجل اجتذاب الناس!! .. وكان الريحانى لا يترك فرصة لمحاولة إقناع عزيز بالانضمام إلى الفرقة، ويغريه بالمرتبات الطائلة.. وعزيز يرفض، ويمضى بتلاميذه إلى الشارع.. لا تملأ جيبه سوى الأحلام!!

وكان يوجد فى شارع عماد الدين ـ مكان سينما ستوديو مصر حاليًا ـ كازينو اسمه «كازينو دى بارى» تملكه سيدة فرنسية لا تعرف كلمة عربية واحدة اسمها مدام مارسيل. ولا أذكر كيف تعرفت تلك السيدة بأمين صدقى وطلبت منه أن يقنع عزيز عيد بأن يكوّن لها فرقة تشبه فرقة الريحانى. وعرضت على عزيز عيد وفرقته ٥٠٠ جنيه مرتبًا شهريًا.. وهو مبلغ خيالى فى ذلك الوقت.. واستطاع أمين صدقى أن يقنع عزيز عيدا قال له: سوف نتعاقد معها لمدة ستة شهور فقط. وسوف تستطيع أن توفر ٣٠٠ جنيه شهريًا على الأقل فيجتمع لك بعد ستة شهور ١٨٠٠ جنيه يمكنك أن تقدم بها الرواية المصرية المحترمة... التى تحلم بها..

وشمر عزيز عن ساعد العمل. واختار مع أمين صدقى رواية فرنسية اسمها «ليلة الزفاف» قاما بتعريبها وتمصيرها تحت اسم «حنجل بوبو».. ثم أخذ يكون فرقته...

وعرف عزيز فى ذلك الوقت يوسف وهبى فضمه إلى الفرقة. وكان يوسف هاويًا يلقى بعض المونولوجات فى الحفلات المدرسية والخيرية. ورآه عزيز مرة فأعجب به جداً وضمه إلى فرقته وضم إليها أيضًا السيدة دولت أبيض. ولم تكن قد عرفت جورج أبيض بعد، وكان اسمها «دولت القصبجى».. وكانت لعزيز بها معرفة عائلية. وانتهز فرصة غضبها مع عائلتها فى تلك الفترة فضمها إلى الفرقة..

وأنفقت مدام مارسيل مبلغًا ضخمًا للدعاية للفرقة... وانهمك عزيز عيد فى توزيع الأدوار وعمل البروفات... كانت دولت أبيض تمثل دور سيدة أجنبية، وأدت الممثلة الناشئة دور «بنت بلد» تلبس البرقع والملاءة.. وكان دور يوسف وهبى أن يلقى بعض المونولوجات خلال المسرحية.. وأذكر بهذه المناسبة أن عزيز كان يصر على أن يوسف ممثل كوميدى لا درامى...

وارتفع الستار فى الليلة الأولى... وفوجئ الممثلون بأن الصالة غاصة إلى آخرها... بالجنود الإنجليز!! لم يكن فى الصالة كلها غير طربوش واحد، لم يلبث الجنود أن تضايقوا من وجوده بينهم فاعتدوا على صاحبه، ومزقوا الطربوش، وطردوه!.

ومضى الممثلون يؤدون أدوارهم والجنود الإنجليز فى واد آخر... يضجون ويسكرون ويعربدون لا يفقهون من الرواية شيئًا ولا يلقون

إليها بالا!... وكان الممثل من أفراد الفرقة لا يكاد يدخل إلى الكواليس حتى يسقط مغشيًا عليه من هول ما رأى فى الصالة.. ومن فرط ما ضغط على أعصابه ليستمر فى أداء دوره..

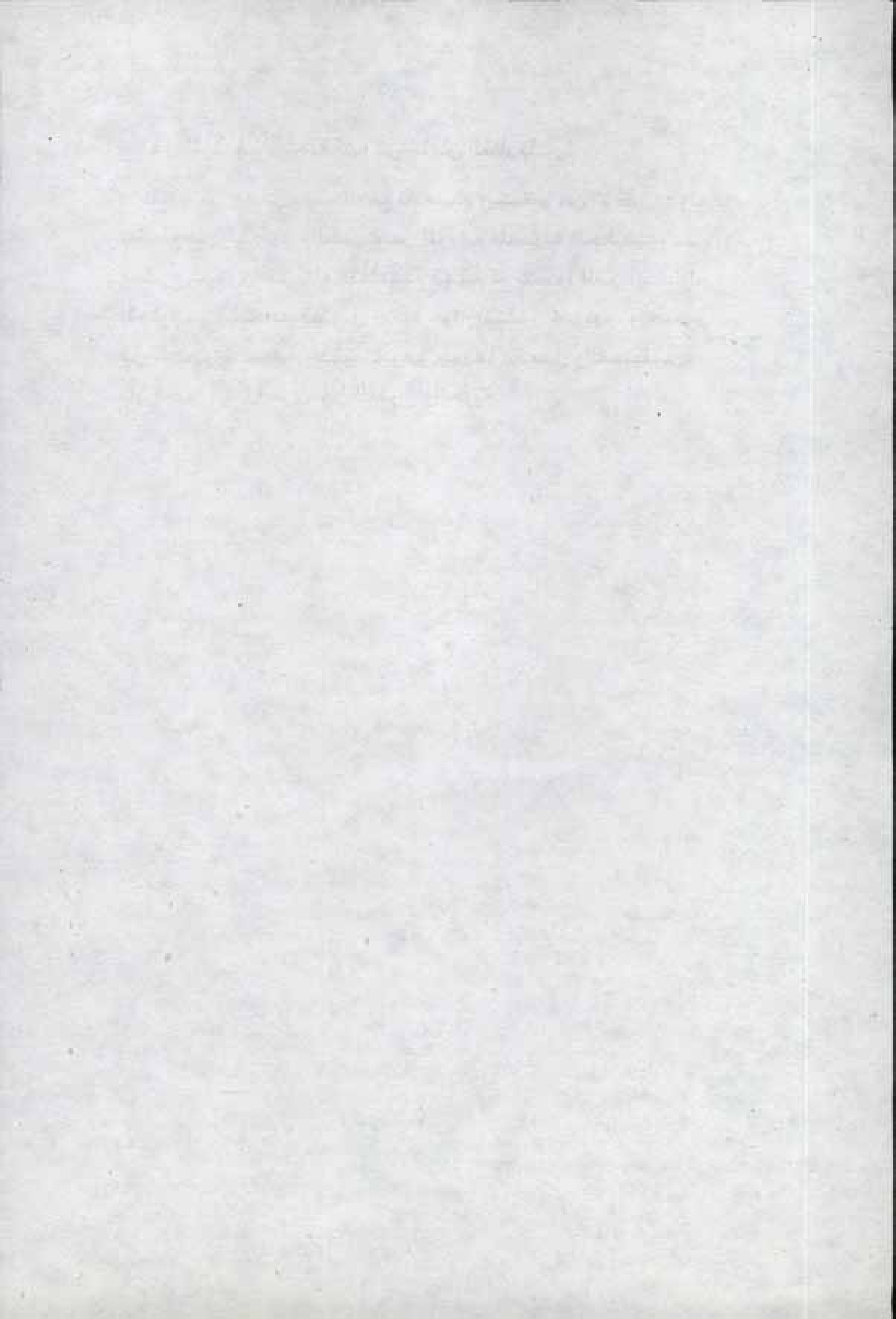
أما مدام مارسيل فكانت فى غاية السرور. فالصالة ليس فيها موضع لقدم وهذا هو كل ما تريد. والجنود يضجون ويعربدون ويسكرون... وهى لجهلها باللغة العربية تحسب أن ذلك كله بسبب نجاح الرواية نجاحًا باهرًا.

ومضى يوم ويومان وأربعة والفرقة تمنى نفسها بأن الجمهور المصرى سوف يقبل على الرواية تدريجيًا... وفى الليلة الخامسة كان الجنود الإنجليز قد أزمعوا أمرًا... فدخلوا إلى الصالة محملين بكميات هائلة من البيض والطماطم وبأكاليل ضخمة من البرسيم! وارتفعت الستار وبدأ التمثيل... وأخذت القذائف تتوالى على المسرح... لا يظهر ممثل على خشبة المسرح إلا وينهال عليه البيض والطماطم.. كان يوسف وهبى يغنى مونولوجًا يقول: امسكوه... امسكوه!... حين أصيب إصابة مباشرة فى جبهته من بيضة نزل سائلها على وجهه وملأ حلقه.. ولبست دولت أبيض إكليلاً باهرًا من البرسيم... وكان حظ عزيز عيد من كل هذه الخضراوات باهرًا... لم تفلت من الأذى فى تلك الليلة سوى الممثلة الناشئة، لأنها كانت تمثل بنت البلد بالملاية اللف... فلا تكاد تظهر على المسرح حتى يصفق الجنود الحليفة ويصفرون..

وفى الصباح... ذهب عزيز عيد إلى المسرح، ليجد ثيابه، وثياب تلاميذه، ملقاة على الرصيف!. بناء على أمر مدام مارسيل، التى أدركت فى تلك الليلة ـ للمرة الأولى ـ أن المسرحية فاشلة!!...

هل أثرت هذه المحنة كلها فى الفنان العظيم؟..

كلا.. بل مضى يضحك مع تلاميذه ويسخر من الآخرين. ولم ينقطع عن التفكير والحديث عن الرواية المصرية الحقيقية، على مسرح مصرى حر.. أما تلاميذه فإنهم لم ينسوا الفن أبدًا، ولم يتخلوا عن أستاذهم قط، بل التفوا حوله يفتشون جيوبهم، ويجمعون قروشهم وملاليمهم، ليقتسموها جميعًا بالعدل والقسطاس... وليواجهوا أيامًا أخرى، من الفقر.. والحرية!.



الفصل الثانى

- علقة لصالحة قاصين.
- الطفلة التى مثلت دور الجدة.
- واحد شربات فى قهوة بلدى.

كيف تعرفت ممثلتنا الناشئة بهذا الأستاذ العظيم... عزيز عيد؟...

كانت يتيمة، من الأب والأم. وكانت صبية صغيرة، تذهب أحيانًا إلى مسرح يقع بالقرب من محلات «صيدناوى» اسمه «دار التمثيل العربى» تتفرج على المسرحيات، وعلى أبطال هذه الحياة الغريبة التى تجرى أمام عينيها على المسرح. وكانت فرقة «عبد الله عكاشة» تحتل هذا المسرح بعد أن اعتزل الشيخ سلامة حجازى التمثيل، وتقدم روايات غنائية من نفس النوع الذى كان يقدمه الشيخ سلامة مثل روايات «شهداء الغرام» و «تليمات» و«الأندلس». وهى روايات لابد أن يكون بطلها مطربًا، ولابد أن يغنى المطرب فيها بضع قصائد. لا علاقة لها أبدًا بموضوع الرواية... بل لمجرد اجتذاب الناس الذين كانوا لا يشهدون التمثيل إلا إذا كان فيه مغنى!

ولم تكن هذه الفتاة الصغيرة تفهم شيئًا من هذا الذى يمثلونه.. إنما هى معجبة، مبهورة بهذه المناظر المزخرفة. والأضواء الساطعة... بهذه الثياب التاريخية التى يلبسها الممثلون وأشرطة الذهب والفضة التى تتحلى بها الممثلات.. هذا العالم الزاخر الخرافى من البطولات والمآسى والأحلام كان يبهرها، وكانت تجلس الساعات تحدق فى المسرح ولا شىء يملأ خيالها إلا أن تلبس - يومًا - هذه الثياب العجيبة التى تلبسها الممثلات... وكان يحدث أحيانًا أن تترك مكانها فى الصالة أثناء التمثيل لتتسلل إلى الكواليس... تقف عند هذا الحائط أو ذاك تحدق فى الممثلين والممثلات وهم يروحون ويجيئون، تحاول أن تتعلم طريقتهم فى الإلقاء الممطوط، وتنغيم الكلمات.. وتتمنى لو أصبحت - مثلهم - تتحدث بالأشعار الرقيقة وتهتف بالكلمات الحماسية..

وكانت واقفة، تائهة، هكذا يومًا حين رآها الممثل الكبير «عمر وصفى» وكان عمر وصفى ضخمًا جدًا، عريض الصوت، واسع العينين، معروفًا بنظراته المخيفة.. رآها عمر وصفى فسدد إليها نظرة فاحصة، جاحظة، بعثت الرعدة فى أطرافها. وانكمشت الفتاة فى الحائط كأنها تريد أن تدخل فيه... واستمرت نظرة عمر وصفى إليها... واستبد بها الرعب فانطلقت تجهش بالبكاء فى حرقة شديدة. ولم يتحرك عمر وصفى، بل قطب جبينه وصاح فيها بصوته الراعد: تعالى! ولم تتحرك الفتاة، ولم تتوقف عن البكاء إلا أنها لمحت بين دموعها رجلاً آخر يدخل المكان.. قصيرًا، قمينًا محدودب الظهر، يضع على كتفيه معطفًا عتيقًا، ما زالت تذكر لونه الأصفر الحائل إلى اليوم، وفى عينيه كانت تطل طيبة وإنسانية

عميقة، عرفت فيما بعد أنه عزيز عيد، واقترب منها عزيز وقال لها: مالك يا بنتى؟... فلم تجب وكرر عليها السؤال مرات وهى معتصمة بصمتها لا تجيب.. تحبس فى صدرها صوتها النحيف الهزيل، وتضم نفسها فى جسدها الصغير وضحك عزيز ثم أمسكها من يدها، وقادها كما يقود الأب ابنته الغاضبة إلى مقهى صغير بجوار باب المسرح... فجلسا.. وطلب لها «واحد شربات»... وأراد أن يستدرجها إلى الحديث فأخذ يحدثها عن الروايات والتمثيل، ويسألها أى الروايات رأت.. وبدأت الفتاة الصغيرة تتحدث وعزيز عيد يشجعها حتى استراحت إليه وشعرت كأن كل ما يحيط بحياتها من الوحدة والألم والضعف والشرود يسقط عنها. ووجدت فى هذا الرجل القصير، المحدودب، أبًا جديدًا.. ولم تكن قد عرفت حنان الأبوة قط.

وافترقا فى ذلك اليوم صديقين. وأخذت الفتاة تكثر من ترددها على المسرح ورؤية الروايات، ولا تنسى أبدًا أن ترى هذا الأب الجديد عزيز عيد. وكانت تفرح كلما ذهبت تهنئه برواية جديدة أخرجها. ثم حدثت قصة طريفة دفعت بالفتاة إلى خشبة المسرح، فى دور غريب.

وقررت الفرقة أن تخرج رواية اسمها «عواطف البنين» وعهدت بإخراجها إلى عزيز عيد. وكانت الرواية تحتوى على ثلاثة أدوار نسائية، البنت والأم والحفيدة. وكانت الفرقة تضم ست ممثلات كلهن سوريات مسيحيات: ألمظ ستاتى وإبريز ستاتى ومريم سماط ووردة ميلان وصالحة قاصين. وكن جميعًا فى سن الشباب. وعهد عزيز بدور البنت إلى أصغرهن صالحة قاصين وبدور الأم إلى إبريز

ستاتى.. وبقى دور الجدة العجوز، فرفضن جميعًا أن يمثلنه!!. رفضت كل واحدة منهن أن تبدو أمام الناس جدة عجوزًا وأمام زميلاتها الأخريات!!... وعبثًا ذهبت محاولات عزيز عيد وصرخاته فيهن... وأخيرًا صاح بأعلى صوته: أتعرفون الفتاة الصغيرة التى تزورنى هنا أحيانًا؟. سوف أعطيها دور الجدة!!..

ولم ينتظر عزيز عيد حتى يسمع تعليقاتهن، فأسرع إلى الفتاة الصغيرة يستدعيها.. ويقترح عليها أن تقف على خشبة المسرح، وفى دور الجدة، ومع أن هذا العرض كان يحقق أحلامًا تساورها.. إلا أن الرعب لم يلبث أن عاودها.. وشعرت بمغص شديد وألم فى جميع أطرافها، ودوار يكاد يغيب بها عن الوجود. أممكن هذا؟. أتستطيع أن تقف حقًا على المسرح؟ ومن أين تأتيها الثقة بالنفس، وليس فى حياتها إلا كل ما يخيفها، ويثبطها ويحملها على الفرار؟... ولكن الثقة التى كانت تنطق بها نظرات عزيز عيد، والشجاعة التى كان يبثها كل من حوله، لم تلبث أن تسربت إليها...

وترك عزيز المسرح أسبوعًا كاملاً تفرغ فيه لتدريب تلميذته الصغيرة... وبذل معها جهدًا لعله لم يبذله مع الكثيرين... أخذ يعلمها أولاً كيف تنطق الكلام بصوت ضعيف، وكيف تجعل صوتها يرتعش ويتهدج ثم أخذ يعلمها كيف تمشى، لا مسرعة كالفتيات الصغيرات بل بطيئة مثقلة، متوكئة على عصا، كالجدات العجوزات... ثم علمها كيف تلقى ابنتها. وكيف تحنو على حفيدتها فى الرواية.. وكانت ابنتها فى الرواية تكبرها ـ فى واقع الأمر ـ بثلاثين سنة تقريبًا!!..

وجاء اليوم العصيب. وبين ضحكات الممثلين وتهريج الممثلات، انهمك عزيز عيد يلبس تلميذته الثياب التاريخية الثقيلة، ويضع لها المكياج.. أما هى فكانت فى عالم آخر يطن ويدور. أما هو فكان كالمقبل على امتحان يريد أن ينجح فيه بأى ثمن. أما الممثلون والممثلات وسائر أفراد الفرقة فقد تجمعوا يتسابقون فى إطلاق النكت، وبينهم يرتفع صوت عمر وصفى صائحًا: عزيز مجنون.. وعايز يعمل تقليعة!!

وارتفع الستار. ودخلت الفتاة الصغيرة تمثل دور الجدة فى سن السبعين، وكان عزيز عيد نفسه أول من فوجئ بالنجاح الباهر. والواقع أن نجاح الفتاة الصغيرة كان طبيعيًا إلى حد بعيد. فصوتها نحيف خافت بلا تصنع وهو يرتعش ويتهدج من فرط خوفها وارتباكها، والثياب ثقيلة عليها، والأضواء ترهبها، فهى تمضى على المسرح متعثرة، مرتجفة، تتوكأ على عصاها.. وتبدو فى النهاية ـ وتحت المكياج ـ كأنها جدة فى السبعين حقًا، راسخة القدم فى دورها!!

ومن تلك اللحظة، بدأ عزيز ينظر إلى فتاته الصغيرة على أنها فنانة حقًا. وقد كان من كلماته المأثورة: «إننى لا أستطيع أن أجعل من الرصاص ذهبًا... ولكننى أستطيع أن أكتشف الذهب وأن أجعله لامعًا خلابًا!»... وآمن عزيز بنبوغ تلميذته فأخذ يعلمها بكل قواه.. أخذ يشترى لها الكتب لتقرأ، وأحضر لها شيخًا يلقنها دروسًا فى اللغة العربية نظير خمسين قرشًا فى الشهر، كان يدفعها من جيبه. وأخذ إذا جلس معها يحدثها بالفرنسية ويحاول أن يعلمها هذه اللغة تدريجيًا.. ورأت الفتاة هذا الاهتمام فزادت حماستها، وانصرفت

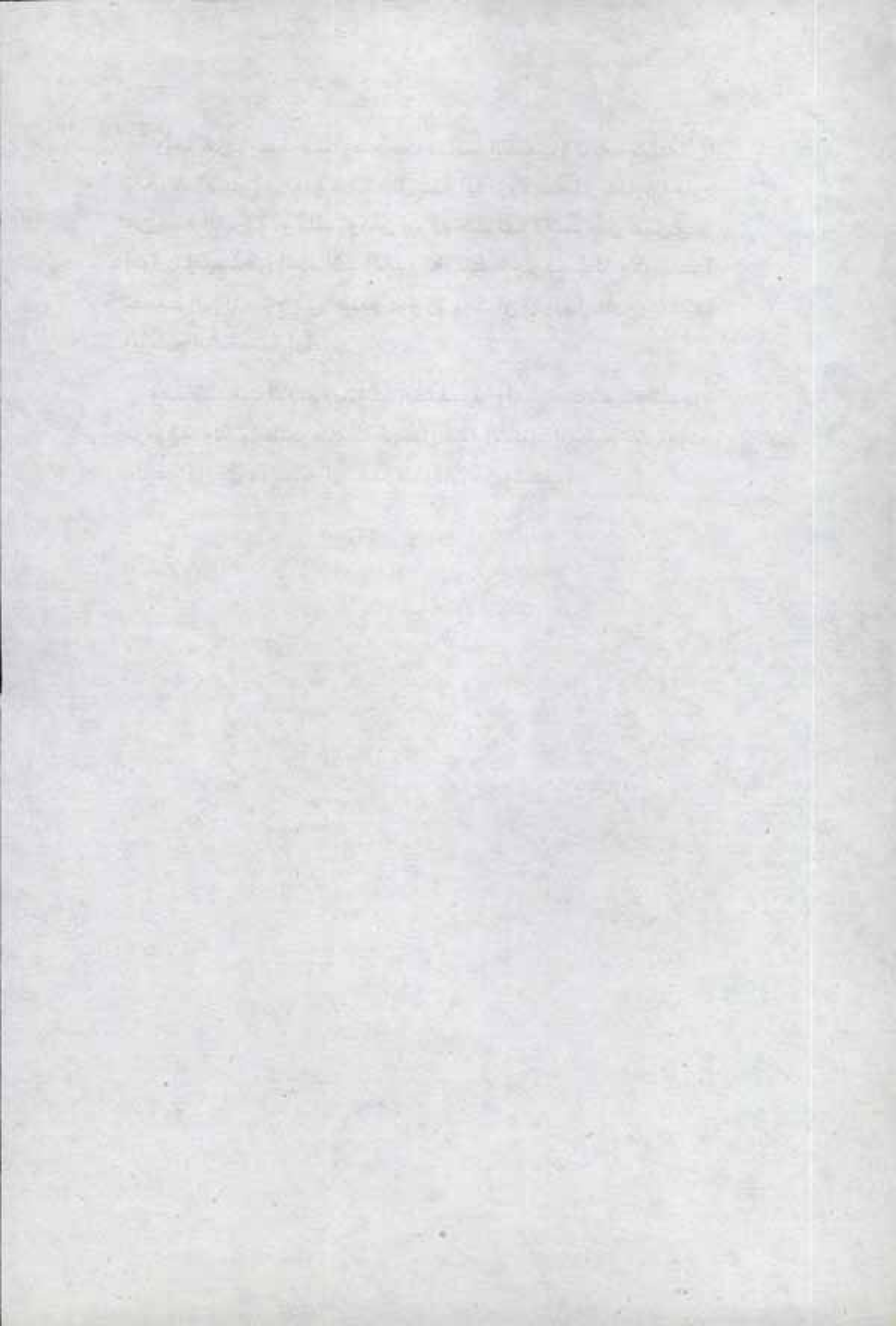
بكليتها إلى الفن تنهل من موارده وتتعمق فى أسراره وتبذل الجهود المضاعفة للبروز فيه.. شىء واحد لم تستطع أن تتخلص منه، ولم ينفعها فيه عزيز عيد: هو هذا الخجل الذى كان لا يزال مسيطراً عليها، وميلها إلى الانطواء والوحدة والهرب من الناس بحكم نشأتها ولكنها ـ يومًا ـ تخلت عن هذا كله، وكان الفضل فى ذلك للسيدة صالحة قاصين.. مد الله فى عمرها...

كانت صالحة قاصين سيدة خفيفة الظل جدًا، لا تكف عن إلقاء النكت والتشنيعات. وقد وجدت فى الفتاة الصغيرة مادة صالحة فانطلقت تسخر منها وتتكر عليها، ولا تكف عن تقليدها ومحاكاة صوتها النحيل.. حتى تجعلها سخرية. وكانت الفتاة تضيق جدًا بذلك، وتتلوى ألمًا. ولكنها عاجزة عن أن ترد السخرية أو حتى عن أن تصيح فى وجه صالحة قاصين. كانت تشعر دائمًا أنها دخيلة عليهم: مبتدئة عاجزة، فتسكت. حتى كان يوم لم تستطع فيه على سخرية صالحة قاصين صبراً.. ولم تشعر إلا وهى تهجم على صالحة فتجذبها من شعرها إلى حجرة خالية، وتغلق الباب، وتنهال عليها ضربًا بيديها ورجليها وبكل شىء وصل إليها، وصالحة تستغيث ولا مغيث... ثم خرجت الفتاة وأغلقت خلفها الباب على صالحة... خرجت من الحجرة وقد خلقت خلقًا جديدًا. وقد أغلقت وراءها الباب على الخوف والضعف والاستكانة والتردد.. ومشت بين الناس مرفوعة الرأس، كأنها قد سجلت حقها فى أن تكون حرة، محترمة، لا تخاف اقتحام كل هذه الحياة!!..

أما صالحة قاصين، فقد أصبحت صديقة عزيزة لها!.

وأما عزيز عيد فقد أصبحت فتاتنا الصغيرة تتبعه كظله.. لا تتحرك إلا بمشورته، ولا تنفصل عنه أبداً، ولا تتخلى عنه إذا طرد من هذه الفرقة أو تلك. وكان هو يبحث لها دائمًا عن عمل وعن أدوار تؤديها فى الحفلات الخيرية، لقاء أجر بسيط، ولا يدعها تصعد إلى المسرح فى أصغر دور إلا بعد أن يدربها عليه ويعلمها ويوضح الشخصية لها...

وقد تقدمت الأيام بفتاتنا الصغيرة. وأصبحت سيدة شهيرة مرموقة، ولكنها ظلت حافظة لجميل هذا الأستاذ العظيم حتى مات، بالرغم من كل ما سببه لها هذا العرفان من متاعب.



الفصل الثالث

- جورج أبيض يغنى على المسرح!
- المصارع الذى اشترك فى التمثيل.
- العقد الذى لم يوقعه عزيز عيد

انتهت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ وقد مات التمثيل الجدى تقريبًا.. اكتسحته من السوق موجة عاتية من الكباريهات والصالات التى أنشئت لتزخر بجنود إنجلترا وإمبراطوريتها.. وكان الشيخ سلامة حجازى قد اعتزل التمثيل بعد جهاد طويل... أصيب بالشلل فى ذراعه اليمنى فكان يمثل ويغنى، ويبارز فى أدوار البطولة بذراعه اليسرى، حتى أقعده الشلل تمامًا.. فلم تبق إلا فرقة الأستاذ جورج أبيض برواياتها التقليدية وممثليها القدامى، وبعض فرق الأرياف الهزيلة. ولم يبق متلألئًا فى سماء الفن إلا اسمان كبيران: جورج أبيض، وعزيز عيد..

وقد عمل هذان الفنانان معًا، على خشبة مسرح واحد، زمنًا طويلاً. ومع ذلك فقد كانا نقيضين فى كل شىء: جورج أبيض صاحب الفرقة «الناصح» بقامته المديدة، وصوته العريض، وأعضائه

البالغة الهدوء، لا يثور أبدًا ويحيا حياة منتظمة مع أمه وأخته وأخيه، يدبرون له معيشته، ويدخرون له القرش الأبيض ينفعه فى اليوم الأسود... وعزيز عيد القصير، القمىء، المحدودب الظهر، الملتهب الأعصاب الدائم الغليان الطيب كطفل، يحيا حياة مشردة قلقة غير مستقرة، ينفق ما فى الجيب ثم لا يأتيه شىء من الغيب!.

واقترح الأستاذ جورج أبيض على السلطات الإنجليزية - بعد انتهاء الحرب - أن يؤلف فرقة كبيرة يطوف بها الوجه البحرى كله. وأن تقوم السلطة بتنظيم الرحلة وإقامة السرادقات فى القرى وبيع التذاكر بواسطة العمد والأعيان، على أن يأخذ جورج - وفرقته - ثلث إيراد الرحلة، ويذهب الثلثان الباقيان إلى الصليب الأحمر. ووافقت السلطات الإنجليزية. وأسرع جورج فألف فرقة كبيرة خليطًا من الممثلين القدامى، الذين أدركوا سلامة حجازى والممثلين الناشئين، وعرض الأستاذ جورج أبيض على عزيز عيد أن يكون مخرج الفرقة خلال هذه الرحلة ويمثل بعض الأدوار نظير ٢٠٪ من صافى نصيب الفرقة. وأعد جورج أبيض عقدًا بينه وبين عزيز بهذه الشروط وأرسله إليه ليوقعه، ولكن عزيز لم يوقع، لسبب أو لآخر، لم يتصور أن لهذا التوقيع أهمية ما، ألم يتفقا على الشروط فعلاً؟.. ووضع العقد فى جيبه بلا توقيع. وانصرف يجهز للرحلة بكل همة ونشاط...

•

ومضت الفرقة تتنقل من قرية إلى قرية، وكلما حلت قرية وجدت الإدارة قد أعدت لها مسرحًا بسيطًا فى سرادق كبير. وكانت الفرقة تقدم رواية مصرية اسمها «دخول الحمام مش زى خروجه» من تأليف المرحوم إبراهيم رمزى تجرى وقائعها فى أحد حمامات

السوق وتنطوى على نقد لنظام المحاكم الشرعية وأحكام النفقة والطلاق. ورواية مترجمة اسمها «الممثل كين» عبارة عن ممثل يحب أميرة من الأميرات. ولكنه يفاجأ إذ يراها ـ وهو يمثل ذات ليلة ـ جالسة مع أحد اللوردات فينسى دوره ويتجه إليها بالكلام. وكان الشخص الثانى فى الرواية «ملقن» طيب القلب يحب هذا الممثل العاشق ويصادقه ويحنو عليه، وهو دور كوميدى. وكان جورج أبيض يمثل دور «كين» وعزيز يمثل دور الملقن... وقد وجدت شخصية الملقن الطيب المضحك صدى عميقًا فى نفوس المشاهدين من أهل الريف المصرى... فلا تخرج الفرقة من قرية إلا واسم عزيز على كل لسان.. بل كان القرويون يصادفون عزيز فى الشوارع فينادونه باسم الملقن. ودامت الرحلة ثلاثة شهور متوالية.

وكانت وسائل الراحة طوال الرحلة معدومة، فإذا جاء الليل ذهبت الممثلات للمبيت فى بيت العمدة، وخرج الممثلون يبحثون عن ناد بسيط، نظير قروش معدودات للنفر الواحد. وكان قد سافر وراء الفرقة طباخ سورى ومعه صندوق كبير يحمل فيه أدواته.. وهو طباخ من الذين يعرضون أطعمتهم على أرصفة القاهرة فى الأحياء البلدية. وكان لا يصنع شيئًا إلا نوعًا من «السجق» المعروف فى سوريا باسم «مقانق» وصادف ذلك هوى عند أفراد الفرقة الذين كان أغلبهم من أصل سورى... فكانوا لا يجدون بدًا من أن يفطروا ويتغدوا من هذه «المقانق» وإذا انتهى التمثيل آخر الليل، خرج الممثلون والممثلات من الباب الخلفى ليجدوا الطباخ السورى بجوار الباب الخلفى يطهى «المقانق» فيعطيهم «ساندويتشات» السجق، يلتهمونها وهم منصرفون، وقد حدث أن خرج الممثلون ليلة، وقد

صرخت بطونهم من الجوع بعد التمثيل، فلم يجدوا الطباخ، ولم يجدوا شيئًا على الإطلاق يأكلونه. ثم تبين أن الطباخ قد مرض وأن عليهم أن يصوموا حتى يشفى.. وبكت الممثلة الناشئة تلك الليلة من الجوع!

وركبت الفرقة قطارها لآخر مرة، عائدة إلى القاهرة.. وفى الطريق أعلن الأستاذ جورج أبيض حل الفرقة، وكان نصيبه من الإيراد قد بلغ حوالى خمسة آلاف جنيه. ومعنى ذلك أن نصيب عزيز عيد يصل إلى الألف جنيه تقريبًا.. وكان عزيز ـ والفرقة فى طريق العودة ـ فى قمة مرحه وسعادته. فالحلم الخالد عن إخراج رواية مصرية صميمة مازال يساوره... وها هو الحلم يبدو له ـ لأول مرة- قريب المنال. فحين يصل إلى القاهرة سوف يقبض الألف جنيه. والعقد الذى يعطيه هذا الحق فى جيبه. وسوف يستطيع بهذا المبلغ أن يستأجر مسرحًا محترمًا يحقق على خشبته حلم حياته كلها، وقد كان لهذا الغرض ذاته يقتر عن نفسه طوال الرحلة، فلا يأخذ من الأستاذ جورج إلا المبلغ الضرورى لطعامه ونومه، حتى لم تزد نفقاته فى الثلاثة شهور على خمسة وأربعين جنيهًا... مدخرًا الباقى.

وجاء يوم الحساب فى القاهرة، وأخذ عزيز يتردد على الأستاذ جورج وعلى أخيه سليم مطالبًا بالمبلغ، ثم يعود كل مرة إلى تلاميذه المترقبين يسوق لهم سببًا جديدًا من أسباب التأجيل. ولم يزعجه هذا التأجيل أول الأمر فالعقد فى جيبه على أى حال. ثم فوجئ بالناس يقولون له إن هذا العقد لا يساوى ثمن المداد الذى كتب به. وأنه مادام لا يحمل توقيعات المتعاقدين فهو ليس إلا قصاصة ورق.

وذهل عزيز. وكان هذا الفنان لا ينسى اللمحة الخاطفة إذا وقف على المسرح ساذجًا غريرًا فى معاملاته المالية. وكان ذهوله لأنه هو بالذات، الذى أهمل فى توقيع العقد حين أرسله إليه جورج...

وأسرع عزيز إلى بيت جورج أبيض يطالبه بالألف جنيه. واستقبله جورج مرحبًا محتفيًا، وأجلسه وأخذ يطيب خاطره بلهجته الهادئة.. وقال له وهو يبتسم - إنه لا يقول شيئًا خطيرًا: صحيح لك عندى ألف جنيه، لكن إزاى تتصور أننى أطلع ألف جنيه من جيبى وأعطيها لك.. أنا ما بأقدر أعمل كده، ولا أخويا سليم بيقدر يعمل كده، ولا أمى كمان بتقدر!

وبهت عزيز فلم يتكلم. ومضى جورج يتحدث ضاحكًا فى هذا المعنى، ويقول له إنه سوف ينشئ فرقة أخرى وسوف يجعله مخرجًا لها بمرتب شهرى ضخم... مائه جنيه مثلاً!.

وخرج عزيز دون أن ينطق بحرف وعاد إلى تلاميذه المترقبين مهزوزًا، مسحوقاً، زائغ العين، شارد اللب، أصفر الوجه... كأنه فقد شيئًا عزيزًا عليه. وقد كان حلمه الضائع عزيزًا عليه حقًا. والتف حوله تلاميذه يسألونه ما الخبر؟... وكان من عادته - فى ساعات بؤسه البالغة - أن يبقى صامتًا ولا ينطق بحرف واحد. وأن يستمر على هذه الحالة أربعة أو خمسة أيام متوالية... ومضت أربعة أيام وتلاميذه يحاولون أن يعرفوا منه الخبر وهو لا يفتح فمه. وفجأة، ابتسم. وكأن هذا الفنان الأصيل قد فقد إحساسه بقيمة الألف جنيه، وبدأ ينظر إلى ما فى القصة من سخرية. وتحول ابتسامه ضحكًا. ثم قفز من مقعده لا ليروى لهم القصة، بل أخذ يمثل لهم المقابلة كلها... مقلداً جورج أبيض وهو يرحب به، ويلين له فى

الحديث ويقول له إنه معترف بالألف جنيه ولكنه يستكثر على نفسه أن يدفعها!.. ووقف تلاميذ عزيز عيد.. نجيب الريحانى وحسين رياض وستيفان روستى وزميلتهم الناشئة، وقفوا يشاهدون أستاذهم يمثل هذه المسرحية الحية، كانت جيوبهم خاوية، وقلوبهم مثقلة، ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن يضحكوا ويضحكوا على هذه القصة التى كانت نكتة الموسم كله... وما زالوا حتى اليوم لا يملكون أنفسهم من الضحك كلما ذكروا القصة ومحاكاة عزيز عيد للأستاذ جورج أبيض.

وهكذا كانت طبيعة عزيز الفنية تطغى على كل ألم وتمسح كل دمعة... ولم يبق فى نفسه سوى أنه يريد أن يغيظ جورج، كما غاظه جورج!...

ولاحت له الفرصة. فقد جاء جورج فعلا إلى عزيز يطلب منه أن يكون مخرجًا لفرقته الجديدة. وقفز عزيز وقال إن لديه فكرة رائعة!.

اقترح عزيز أن تكون الفرقة الجديدة ضخمة جداً، وأن يستأجر جورج لها مسرحًا فاخراً، وأن تقدم الفرقة روايات غنائية استعراضية حافلة بالمناظر والملابس والممثلين حتى تقف فى وجه هذا النوع الذى انتشر فى ذلك الوقت وأعجب جورج بالفكرة، وأسرع يستأجر مسرح "الرنيسانس" الذى كان يقع فى شارع فؤاد ـ مكان سينما ريفولى ـ بإيجار شهرى قدره سبعون جنيهًا، وكان فى ذلك الوقت مبلغًا خياليًا.. واشترى عزيز ـ لحساب الفرقة ـ رواية استعراضية من تأليف مصارع شهير فى ذلك الوقت اسمه «عبد الحليم المصرى» تحتوى على غناء رقص ومونولوجات... وكل شىء!

وكان سيد درويش لا يزال ملحنًا ناشئًا فعهد إليه عزيز بتلحين أغانى الرواية. وبلغ عزيز قمة «الشيطنة» حين أقنع جورج بأن يمثل المصارع عبد الحليم المصرى دورًا فى الرواية... ثم أخذ يقنع الأستاذ جورج أبيض بأن يمثل الدور الغنائى فى الرواية... أى أن يغنى على المسرح. واقتنع جورج، بل وتحمس للفكرة.. وعكف على العملُ فى «بروفات» الأغانى... وانساق جورج وراء اقتراحات عزيز فتوسع فى النفقات توسعًا لم يعرفه المسرح من قبل... وحشد فى الفرقة عددًا من الممثلين والكومبارس لم يسبق له مثيل. وأنفق على حملة إعلانية واسعة... فلما ارتفعت الستار فى أول ليلة كان قد انفق مبلغًا كبيرًا جدًا.

ولست فى حاجة إلى أن أذكر أن الرواية سقطت سقوطًا شنيعًا، سارت بذكره الركبان!.. وما أذكر من قصة الرواية الآن إلا أنها كانت ضجة وصخبًا متصلاً، وممثلين كثيرين فى ثياب فضفاضة يزعقون ويغنون... وإن كنت لا أنسى منظر جورج أبيض ممثل التراجيديا الكبير، بجسمه الضخم وصوته العريض وقد وقف على المسرح يغنى فيخرج صوته نحيفًا ممزقًا، اكتسى اللحن وضوابط النغم حتى يبعث الاضطراب في الفرقة الموسيقية كلها!..

وأسدل الستار نهائيًا على هذه المسرحية بعد أسبوع واحد من الفشل، والخسارة الفادحة... وكان عزيز فى وسط هذا الفشل كله يضحك فى جذل... فقد "غاظ" جورج... وإن بقى جورج كعادته هادئًا، ساكن الأعصاب...

وعاد جورج بعد هذه التجربة القاسية إلى رواياته القديمة، وممثليه القدامى، وعلى رأسهم «إبريز ستاتى» وشقيقتها «ألمظ

ستاتى» وبقى عزيز مخرجًا للفرقة.. وإن ظلت خلافاتهما لا تنقطع، وحوادثهما المضحكة تتوالى يومًا بعد يوم ولا أنسى ليلة إذا كان عزيز وجورج يمثلان مشهدًا فى رواية الشرف اليابانى وسقط عزيز على الأرض وطار الخنجر من يده. وكان المفروض أن يتناول جورج الخنجر ويطعن به عزيز... ولكن حدث أن الأستاذ جورج أبيض - وكان يخلع نظارته أثناء التمثيل - لم ير أين وقع الخنجر... ومن عادة جورج أنه يتحدث على المسرح ويسب ويلعن كثيرًا بصوت منخفض طبعًا لا يسمعه المتفرجون..وأخذ جورج يبحث عن الخنجر عبثًا... وبدأ يسب عزيز ويقول له: فين الخنجر.. يخرب بيتك!. وعزيز يشير إلى مكان الخنجر ويحاول أن يرشده إليه... وطال المشهد، والناس ينظرون وأصبح مؤكدًا أن المأساة ستنقلب إلى كوميديا... واختار عزيز أخف صور الكوميديا، فتناول الخنجر وأعطاه لجورج كى يطعنه به!...

على أن أكبر مصدر للخلاف بين الفنانين الكبيرين كان يرجع إلى بطلتى فرقة جورج: إبريز وألمظ ستاتى. وكان عزيز يرفض الاعتراف بهما كممثلتين بتاتًا، ولا تنقضى ليلة دون معركة بينهم يتندر بها كل أفراد الفرقة. فى حين كان جورج يقدر إبريز ستاتى ويصر على إعطائها أدوار البطولة. إذ كانت لها فى قلبه مكانة خاصة! وكانت ألمظ ستاتى بالذات تغيظ عزيز جدًا.. فهى تصر على أن لا تظهر على المسرح إلا بعد أن تتزين بالزهور الصناعية الضخمة وبعشرات من قطع الحلى - الزجاجية طبعًا - وكان يحدث أحيانًا أن تقف على المسرح لتمثل دور خادمة.. فتظهر سيدتها بغير مجوهرات وتصر "الخادمة" على أن تحمل على رأسها وجيدها نفس

الكميات من الزهور والحلى والمجوهرات!!...

أما ممثلتنا الناشئة، فكانت فى عزلة نسبية عن جو الفرقة، ملازمة دائمًا لأستاذها عزيز، مصغية دائمًا إلى آرائه وانتقاداته لتمثيل قدامى الممثلين...

وقد حدث أن كانت الفرقة تمثل رواية «لويس الحادى عشر» وفيها دور مهم لولى العهد. والشرط الأول لمن يؤدى هذا الدور: الحجم الصغير، والصوت الخفيض والبشرة البيضاء. وكانت تمثل هذا الدور ممثلة صغيرة السن اسمها نظلة مزراحى.. وحدث أن تركت نظلة مزراحى الفرقة فجأة. وأراد عزيز أن يعهد بالدور إلى الممثلة الناشئة التى يناسبها الدور شكلاً... ولكن جورج أصر على أن تأخذ الدور إبريز ستاتى... وفعلاً لبست إبريز ثياب ولى العهد الذى يبلغ ١٢ سنة من العمر.. وكانت بقامتها الضخمة ولونها الأسمر تبدو أكبر من أبيها - فى الرواية - الأستاذ جورج أبيض.

وفى إحدى معارك عزيز العنيفة مع الشقيقتين ستاتى.. ترك الفرقة وتركها معه تلاميذه جميعًا. وكان قد قرر أن يحقق حلمه هذه المرة بأى ثمن... والتف حوله تلاميذه يرسمون معه الخطط والمشروعات... ثم لاحت لهم الفرصة.

الفصل الرابع

- أول مسرح فى الهواء الطلق...
- على كل متفرج أن يحضر مقعداً...
- ضجة فى رأس البر بسبب بيجاما..

قرر عزيز عيد أن يعمل هذه المرة مستقلاً عن الآخرين... أن يقدم إلى الناس شيئًا يرضى عنه فنيًا.. فماذا يقدم إلى الناس؟.

إن الناس لا يهضمون بعد الدراما الرفيعة أو الموضوعات الأخلاقية البحت.. وفكر عزيز أن «الفودفيل» الخفيف قد يكون حلاً وسطًا... يرضى الناس، ويرضى كبرياءه الفنى. وعثر عزيز على مؤلف فرنسى اسمه «فيدو» كان متخصصًا فى تأليف هذا النوع من المسرحيات، واختار من بين مسرحياته واحدة ترجمها بالاشتراك مع أمين صدقى فى ظرف أسبوع واحد اسمها «خللى بالك من أميلى»...

وأبطال المسرحية عبارة عن رجل وصديقته، وصديق له، ووالد الصديقة وأمير روسى. ويضطر الرجل إلى السفر فيترك صديقته فى رعاية أبيها وصديقه الذى يقول له «خللى بالك من أميلى»...

ولكن الأمير الروسى تعجبه الصديقة، ويغازلها، ويحاول إغراءها على ترك هذه الحياة الفقيرة الضيقة لتهرب معه وتعيش حياة براقة حافلة. وكان الدور الكوميدى فى الرواية هو دور الأب، الذى يسهل اتصال ابنته بالأمير الروسى، ويشجعها على الفرار معه وترك صديقها الفقير!.. ولعب عزيز دور الصديق ولعبت الفنانة الناشئة دور الصديقة، ولعب ستيفان روستى دور الأمير الروسى، ونجيب الريحانى دور الأب... وقد نجح الريحانى فى دوره الكوميدى نجاحًا رائعًا. ونجحت الفنانة الناشئة وأطلقت عليها الصحف فى ذلك الوقت ـ لأول مرة ـ اسم «الفودفيلية الحسناء»...

مثلت الرواية لأول مرة على مسرح برنتانيا. وكان عزيز قد تعب فى البحث عن مسرح خال تمثل عليه المسرحية. فلم يجد إلا مسرح برنتانيا، وكان خاليًا لمدة ثلاثة أيام فقط، فاستأجره عزيز لهذه الأيام الثلاثة. وإنه لغريب أن نلاحظ أن القاهرة مازالت تعانى إلى الآن من عدم وجود مسارح كافية.. فغير مسرح الأوبرا، ومسرح ريتز، ومسرح الأزبكية، لا نكاد نجد مسرحًا آخر يصلح للتمثيل... بل إن هذه المسارح الثلاثة ليس فيها مسرح مستعد بمعنى الكلمة غير الأوبرا. وقد اكتظ مسرح برنتانيا بالمشاهدين أيام العرض الثلاثة، ثم اضطرت الفرقة إلى جمع ثيابها وترك المسرح.. وأخذ عزيز يقلب القاهرة رأسًا على عقب، باحثًا عن مسرح آخر..

وبعد جهد جهيد، عثر عزيز على صالة «باتيناج» فى شارع الفجالة، فيها ما يشبه خشبة المسرح، وقرر عزيز أن يستأجر هذه الصالة. وصالة الباتيناج ـ كما يعرف القارئ ـ مكشوفة ليس لها سقف.. وأرض واسعة ليس فيها مقاعد. وكان جنونًا من عزيز أن

يسمى هذا مسرحًا. ولكنه صمم على أن يقدم الرواية بأى ثمن. فاستأجر الصالة ليلاً فقط إذ كان هواة الباتيناج يستعملونها نهارًا، ونشر فى الإعلانات عن الرواية أن على كل مشاهد أن يحضر معه مقعداً ليجلس عليه.. حيث إن «المسرح» ليس به مقاعد!... وأسرع عزيز فاشترى كمية ضخمة من قماش «الدمور» الرخيص ليصنع منه الستائر والديكورات للمسرحية. وما زلت أذكر أنه رسم بنفسه جميع مناظر الرواية وديكوراتها. وجعل أقل ثمن للتذكرة خمسين قرشًا...

واستمرت الفرقة تعرض رواية «خللى بالك من أميلى» بنجاح على هذا المسرح مدة شهر ونصف. ولعله كان أول مسرح فى الهواء الطلق عرفته مصر! وكان الوقت صيفًا مما جعل التمثيل فى الهواء الطلق ممكنًا. وفي كل ليلة منذ الغروب، كان الناس يتوافدون على المسرح، وقد جاء مع كل واحد من المتفرجين خادم يحمل له مقعدًا، أو "فوتيلاً" ضخمًا من «الفوتيلات» المغطاة بالتيل الأبيض التى كانت شائعة فى البيوت فى ذلك الوقت!.. فإذا جاءت أسرة بأكملها احتاجت إلى حمولة عربة من المقاعد والفوتيلات!!.. فكان هذا المسرح من أعجب المسارح فى تاريخ التمثيل!..

ولم يكن عزيز يعطى ممثل الفرقة مرتبات.. بل قسم الإيراد إلى أسهم يخص كل ممثل أو ممثلة عدد من الأسهم، وفى كل ليلة، بعد انتهاء التمثيل وخصم المصاريف، توزع الأرباح على الأسهم. فإذا كان الريحانى مثلاً له ٣٠ سهمًا وكان السهم يدر خمسة قروش فى الليلة فمعنى ذلك أن يأخذ ١٥٠ قرشًا فى الليلة. ولم يكن عزيز ـ الفنان إداريًا أبدًا.. كان لا يدخر من إيراد الفرقة مليمًا واحدًا... كل

الإيراد يوزع يومًا بيوم على الممثلين والممثلات، وكل ممثل يأخذ نصيبه ويذهب إلى حيث ينفقه كما يشتهى... فإذا جاءت الليلة التالية اكتشفت الفرقة ـ مثلاً ـ إنه لابد من شراء باقات ورد لبعض مشاهد الرواية.. والفرقة ليس لديها مليم، فيجتمع الممثلون والممثلات، ويخرج كل منهم ما قد تبقى فى جيبه من قروش، ليشتروا باقات الورد..

ثم زحف الشتاء... وأصبح الجلوس فى الهواء الطلق مستحيلاً فقل الإقبال، وهبط الإيراد، فاضطرت الفرقة إلى أن تغلق أبوابها... دون أن يتبقى مليم واحد فى جيبها. وأذكر أن إيراد السهم- فى آخر ليلة ـ قرشين صاغ!

أغلقت الفرقة أبوابها.. ولكن بعد أن أثبتت للجميع أنها تستطيع أن تنجح. وكان جورج أبيض أول من لمح ذلك، فأسرع إلى عزيز يعرض عليه أن يعود مخرجًا وممثلاً فى فرقته.. على أن يعود بمفرده لا بفرقته. وأصر عزيز على أن يأخذ معه الممثلة الناشئة على الأقل، وبعد مناقشة طويلة قبل جورج أن تنضم الممثلة الناشئة إلى فرقته بمرتب شهرى قدره ثلاثة جنيهات ونصف!.. ثم أصر جورج على ألا تلعب الفنانة الناشئة إلا أدوارًا صغيرة جدًا. كان كل دورها فى إحدى المسرحيات أن تنحنى وتقدم خاتمًا لإحدى البطلات وتقول لها جملة واحدة: «... ومنى هذا الخاتم!».

ثم حدث أن اتفق جورج مع إحدى الجمعيات الخيرية على أن يمثل لحسابها رواية على مسرح الأوبرا بعد حوالى خمسة عشر يومًا من تاريخ الاتفاق. واختار جورج رواية فرنسية شهيرة اسمها «الشعلة» وكان فى الرواية فصل كامل بلا حوادث... عبارة عن حوار

فقط بين جنرال فرنسى وزوجته. وقرر جورج أن يمثل دور الجنرال، وأن تمثل إبريز ستاتى دور الزوجة... ورفض عزيز أن يخرج الرواية على هذا النحو. فهذا الفصل الطويل بالذات يحتاج إلى موهبة فنية وطريقة حديثة فى الإلقاء لا تتوفر فى إبريز ستاتى ـ وكان هذا رأيه فيها دائمًا ـ واحتدمت المناقشة بين صاحب الفرقة والمخرج وهدد عزيز بالانسحاب... ثم حلت إبريز نفسها المشكلة إذ رفضت أن تمثل الدور، حين عرفت أن فيه حوارًا طويلاً يحتاج إلى حفظ ولم تقدر قيمة الرواية الفنية... ورشح عزيز الفنانة الناشئة لتلعب دور الزوجة أمام جورج. وأطلق جورج ضحكة عريضة. كيف تمثل هذه الممثلة الضئيلة الحجم الصغيرة القد أمام جورج بقامته الهائلة؟... وقال جورج كلمة ما زال الكثيرون يذكرونها: إنها (أى الممثلة الناشئة) زيتونة أمامى... ما بتشبعنى! واقترح على عزيز أن يقوم هو بدور الجنرال الفرنسى..

ولم يكن دور الجنرال يلائم عزيز شكلاً.. فالجنرال يجب أن يكون جميلاً أنيقًا، ممشوقًا... وعزيز قصير، محدودب، بعيد عن أن يكون جميلاً، ولكنه كان يفهم الدور جيدًا، ويلمس أعمق خلجاته.. وقضى الخمسة عشر يومًا فى جهد متصل لكى يتقن هذا الدور هو وتلميذته الناشئة... خصوصًا ذلك الفصل الخالى من الحوادث الذى يقتصر على حوار متصل بينهما. مما يحتاج إلى اتقان مضاعف للأداء حتى لا يمل المتفرجون.

وكانت فرقة عبد الرحمن رشدى تقدم نفس الرواية فى ذلك الوقت على مسرح آخر، وتلعب دور البطولة فيها بريمادونه الشيخ سلامة حجازى الشهيرة السيدة ميلياديان. تلعبه بنفس الطريقة

القديمة فى الإلقاء الممطوط المنغم والحركات الممجوجة المبالغ فيها التى لا تلائم هذا النوع من الروايات الفنية، كما كانت ترجمتها فيها شىء من التصرف واستعمال الكلمات العربية الصعبة والجمل الرنانة لاستدرار التصفيق مما أبعد الترجمة عن أصلها الحديث.

وارتفعت الستار فى دار الأوبرا الملكية... ودخلت الممثلة الناشئة إلى خشبة هذا المسرح لأول مرة وخلف الكواليس وقف جورج أبيض وبقية أعضاء الفرقة، أيديهم على قلوبهم، ينتظرون السقوط الفاحش للفنانة الناشئة. ولكن انتظارهم لم يطل. فقد لمع عزيز تلميذته على المسرح من اللحظة الأولى... وكان أداؤها درسًا بليغًا فى فن التمثيل، سيطر على المتفرجين وربط مشاعرهم إلى خشبة المسرح بخيط مشدود، فإذا انتهى فصل انهالت باقات الزهر، وطرابيش المتفرجين، على هذه «الزيتونة الصغيرة» وكان قذف الطرابيش هو أقوى وسائل التعبير عن الإعجاب فى ذلك الوقت... وتزعم الهاتفين فى تلك الليلة صديقى الأستاذ سليمان نجيب، الممثل فى فرقة عبد الرحمن رشدى فى الوقت نفسه!.. فإذا دخلت "الزيتونة" الصغيرة خلف الكواليس، تلقاها جورج أبيض قائلاً فى حماس: أحسنت... ما كنت عارف كده!.. وأسرع إليها الدكتور عبد السلام الجندى - مترجم الرواية - يقدم لها أقراص الباستيليا التى تعين صوتها على الاستمرار!.

ولكن هذا النجاح لم يدفع الأستاذ جورج أبيض إلى موالاة عرض المسرحية. ولعله كان واقعًا تحت تأثير بعض بطلات فرقته القديمات، فأغلق على المسرحية أحد أدراج مكتبه.. ولم تر النور إلا بعد ذلك بسنوات طويلة، على مسرح رمسيس.

ومرة أخرى ترك عزيز عيد فرقة جورج أبيض وكون لنفسه فرقة مستقلة، وأراد أن يكرر تجربته الفودفيلية. فاختار مسرحية أخرى ساخرة للكاتب الفرنسى «فيدو» اسمها «يا ست ما تمشيش كده عريانة!!» والرواية تقدم الحياة الخاصة لنائب فرنسى، هو رجل متزمت حريص على سمعته جداً، وزوجته سيدة طائشة صغيرة السن... تظهر فى البيت أمام ضيوفه كما تظهر أمام زوجها فى ثياب البيت الخاصة بما يكشف عن مفاتنها ولا يليق مع سمعته غير محتشمة أمام الموجودين من الضيوف... وهو يثور غضباً من تصرفات زوجته، ولكنه يحبها جداً، ولا يستطيع أن يتركها!..

ولم تكد تظهر الإعلانات الأولى عن الرواية حتى قامت فى الصحف وأوساط النقد زوبعة هائلة ضد عزيز.. فقد استنتج بعض الناس من اسم الرواية أن البطلة ستظهر على المسرح عارية أو شبه عارية... وعلى هذا الأساس شنوا حملاتهم على عزيز... بدعوى الخروج على الآداب والتقاليد. ولم يأبه عزيز بهذه الحملة... بل إنها على العكس ساقت إلى مسرحه أكبر عدد من المشاهدين..

وفى الليلة الأولى كانت خيبة آمال المتفرجين بالغة.. إذا ظهرت الفنانة الناشئة فى دور الزوجة، ووجد الناس أنها لم تكن عارية، بل كاسية تلبس "روبًا" طويلاً يصل إلى الأرض!. على أن التمثيل الجيد والموضوع الطريف لم يلبث أن عوض الناس عما كانوا ينتظرون.. ونجحت الرواية نجاحًا كبيراً، بين عاصفة من النقد والحملات الصاخبة...

وسافرت الفرقة فى بعض الأقاليم تعرض رواياتها «خللى بالك من أميلى» و«يا ست ما تمشيش كده عريانة» وغيرها. وانضمت إلى

الفرقة فى ذلك الوقت السيدة بديعة مصابنى ـ وكان اسمها فى ذلك الوقت «فيرونا» ـ على أن عزيز عيد لم يلبث أن تشاجر مع بديعة بسبب بعض تصرفاتها خارج المسرح، فأخرجها من الفرقة.

ومرة أخرى، حل عزيز الفرقة وعاد إلى فرقة الأستاذ جورج أبيض. وانفصلت الممثلة الناشئة ـ لأول مرة ـ عن أستاذها، فذهبت إلى فرقة عكاشة التى كان يمولها ويشرف عليها الفقيد العظيم طلعت حرب، وكان الصيف قد أقبل، وسافرت فرقة عكاشة كعادتها إلى رأس البر لإحياء موسم الصيف هناك.

ووجدت الفنانة الناشئة فى الفرقة الجديدة جوًا من الفوضى والارتجال، لم تألفه أثناء وجودها مع أستاذها عزيز عيد. لم يكن هناك إخراج دقيق وبروفات مضنية ولا أى شىء من هذا القبيل. كان كل ممثل يحفظ دوره فى بيته، ثم يصعد ليلة التمثيل إلى خشبة المسرح ليمثل كما يشاء!.. وكانت بطلة الفرقة سيدة يهودية اعتنقت الإسلام وتزوجت الأستاذ عبد الله عكاشة مدير الفرقة اسمها فكتوريا، وكانت جميلة تجيش بالعاطفة، لولا عيب كبير فيها.. إذ كانت ـ لسبب متصل بحنجرتها ـ لا تستطيع أن تضحك بصوت عال أبدًا.. فإذا كان دورها يقتضى أن تضحك فى أحد المواقف، وقفت ممثلة أخرى وراء الستار تضحك نيابة عنها فى هذا الموقف!... وكانت الفرقة مازالت تتعثر فى روايات الشيخ سلامة القديمة، ويقدم معها شيئًا اسمه «الفصل المضحك» يخرج فيه على المسرح ممثل وممثلة يرتجلان التهريج والحركات المضحكة المبتذلة حسب الظروف!... ولم يكن هذا كله من الفن فى شىء!.

فى هذا الجو الغريب عاشت الفنانة الناشئة تائهة... ولم تستطع أن تنسجم أبدًا فى أدائهم الفنى العتيق. ولم تجد صديقات لها بين ممثلات الفرقة العجائز، المحتشمات بسبب الكهولة والبدانة لا بسبب الحشمة..

وكان يوم راحة... ورأت الفنانة الناشئة صباح رأس البر الجميل.. الرمال ومياه البحر التى تلتقى بمياه النيل... والناس على الشاطئ يمرحون... ونزلت الفنانة إلى الشاطئ تلبس «بيجامة» طويلة... ولم تكن تدرى أن هذا التصرف سيثير فى وجهها البراكين وسيؤدى إلى فصلها من الفرقة!.

ثار طلعت حرب على هذا التصرف الذى رآه خروجًا على التقاليد من إحدى ممثلات الفرقة التى يشرف عليها. وصمم على ضرورة فصلها وإعادتها إلى القاهرة فى نفس اليوم... وأسرع الأصدقاء يتوسطون لديه أن يقبل اعتذارها وتبقى. ولكن الفنانة الناشئة التى تعلمت العناد والاستقلال بالرأى رفضت أن تعتذر، وتقبلت الفصل. وعمدت إلى البقاء فى رأس البر بعد فصلها أيامًا، لتنزل إلى الشاطئ بالبيجامة، إغاظة لطلعت حرب!.. وانقضت هذه الأيام وطلعت حرب يتهكم عليها وهى تتهكم عليه ونزلاء المصيف يتسلون بالمعركة الطريفة.. ولم تتحسن العلاقات بين الزعيم الاقتصادى الكبير والفنانة الناشئة، إلا بعد سنوات... وأصبح طلعت حرب يكن لها تقديرًا كبيرًا...

وإنى لأتلفت اليوم فى ميادين القاهرة باحثة عن تمثال لطلعت حرب فلا أجد. وأنصت إلى الأصوات التى ترتفع بتخليد ذكرى هذا وتمجيد ذاك فلا أسمع صوتًا يذكر طلعت حرب ولا أجد إلا تماثيل

غريبة للاظ أوغلى وسليمان الفرنساوى ومن إليهم... ولا أدرى ما الذى يمنعنا من رفع واحد من هذه التماثيل ليقف بدلها طلعت حرب؟ هذا الإنسان البسيط، الكبير القلب، الذكى الفؤاد، لا يجد التكريم الكافى لذكراه من مواطنيه، وتلاميذه، بل ولا من الذين ورثوا مجده وتربعوا على عروش المال من بعده. والناس ينظرون اليوم إلى بنك مصر، وشركاته المنتشرة فى كل مكان، كما ينظرون إلى أى شىء عادى آخر. ولكن الذين عاصروا الرجل وهو يشيد هذا البناء الضخم يعرفون أنه كان معجزة حقيقية...

كان ميدان المال والصناعة قاصرًا على الأجانب، محرمًا على المصريين. وكانت العقيدة السائدة أن المصريين قوم لا يصلحون إلا لفلاحة الأرض. وكانت الدول الأجنبية التى يهمها أن تبقى مستأثرة بالسوق الاقتصادية فى مصر تؤكد هذا الوهم الكبير، وكانت إنجلترا تعرقل كل مشروع مصرى بشتى الوسائل، ليبقى استثمار الخيرات المصرية قاصرًا على رءوس الأموال الأجنبية، وفى وجه هذه السدود الهائلة تقدم طلعت حرب... تقدم فردًا لا جماعة معه ولا حزب ولا أصدقاء... وأعلن عن مشروعه لإنشاء بنك لمصر، تكون أمواله كلها مصرية، وموظفوه جميعًا مصريون... وأخذ يطوف المدن والأقاليم ليقنع المصريين بمساعدته فى هذا السبيل. وما زلت أذكر أنه ذهب مرة إلى أحد أغنياء المنيا وأنفق ساعتين كاملتين يشرح له وظيفة البنك وأغراضه وأرباح المساهمين فيه... وفى نهاية الجلسة، قال له الثرى الكبير: يا ابنى... الله يحنن عليك... أنا لا أفهم فى هذه الأشياء، ولكن خذ ٢٠ جنيهًا تساعدك!.... ولم يغضب طلعت حرب، ولم يفقد أعصابه بل أخذ العشرين جنيهًا

وأرسل بها أسهما إلى الثرى الكبير. ومن يدرى؟ لعل هذا الثرى الكبير قد فهم الآن معنى البنوك، وأصبح من كبار المساهمين.

وشن عليه الجميع حربًا شعواء. الأجانب يحاربونه ليهدموه والملك فؤاد يحاربه، لأنه ليس من رجاله. الأحزاب تحاربه. الإنجليز لا يطيقونه. الصحف المرتزقة تهاجمه لكى يدفع لها مصاريف سرية من أموال البنك. وكان يدفع مصاريف سرية فعلاً، ولكن من جيبه الخاص. فهو لا يستطيع أن يترك الصحف تمضى فى شن الحملات عليه. ولا يستطيع أن يدفع لها من أموال المساهمين.

وكانت الفكرة السائدة أيضًا أن الشبان المصريين لا يصلحون إلا للوظائف الحكومية دون الأعمال الحرة. ولكن طلعت حرب أصر على الا يستخدم فى بنك مصر وشركاته إلا المصريين. وكان الزائر للبنك فى أية ساعة من النهار يرى طلعت حرب يطوف بالمكاتب والفروع... ليعرف مقدرة كل موظف ومجهوده وكانت عيناه تلتقطان الشاب الكفء فيدفعه إلى الأمام، ويعهد إليه بالمسئوليات... والجيل الحاضر الذى يسيطر على اقتصاديات مصر معظم أفراده من صنع يدى طلعت حرب...

وشجاعة طلعت حرب فى اقتحام الميادين المجهولة يفتقدها خلفاؤه اليوم. لقد اقتحم ميادين خطرة وأنشأ فيها شركات راسخة مثل شركة مصر للطيران وشركة مصر للتمثيل والسينما وشركة مصر للملاحة النهرية وشركة مصر لمصايد الأسماك.. دعك من الشركات الكبرى كشركات الغزل والنسج. والغريب أن الشركات التى أنشأها طلعت حرب لم تزد بعد وفاته شركة واحدة... بل إن الشركات التى تركها صغيرة ناشئة لم تتدعم بعد، لا تزال حتى اليوم صغيرة، غير راسخة!...

اقرءوا قصة جهاد طلعت حرب... ابحثوا كيف صنع لكى يجد فى مصر ـ ومنذ ربع قرن ـ رءوس الأموال الكافية لكى ينشئ عشرات الشركات من مال مصرى حر، وبأيد مصرية صميمة!... ولو ظهر فى مصر خمسة فقط مثل طلعت حرب لاستقلت مصر اقتصاديًا من زمن بعيد، ولأدى هذا الاستقلال الاقتصادى حتمًا إلى الاستقلال السياسى الذى ما زلنا نكافح من أجله!.

وليس كلامى عن طلعت حرب فى هذا المجال بغريب... فقد كان الرجل إلى ذلك كله فنانًا... وقد قدمت أنه كان يشرف على فرقة عبد الله عكاشة ويمولها... وأضيف الآن أنه هو الذى أنشأ ستوديو مصر الذى لا يزال المؤسسة الفنية الأولى فى عالم السينما... لم يبخل عليه بالنفقات والجهود ولأنه كان يعرف تمامًا قيمة الفن حين يخدم المجتمع...

الفصل الخامس

- متى ظهر «كشكش.. بك»؟
- كيف كان سيد درويش يلحن؟
- عندما كان الريحانى ينافس نفسه!

مازال عزيز عيد فى حاجة إلى الكتابة عنه، فتاريخ هذا الرائد الأول الذى لم يكن يوجد غيره فى الوسط الفنى فى ذلك الوقت يكاد يندثر، وتلاميذه الباقون على قيد الحياة يذكرون كل شىء إلا عزيز عيد، هذا فضلاً عن أن قصة حياة عزيز العاصفة، بما فيها من صعود وسقوط. وبسمات ودموع، ليس إلا قصة الحركة الفنية فى هذه الفترة المضطربة التى كانت بالنسبة لفن التمثيل - فترة الميلاد.

كانت الممولون وأصحاب الفرق يسمون عزيز عيد «النحس»؛ لأن مشروعاته الفنية عادة لا تدر الأرباح الكثيرة على شباك التذاكر، ولكنهم كانوا يعرفون فى الوقت نفسه أن عزيز هو الأستاذ وأنه الوحيد الذى يفهم.

أما عزيز، فكان يبحث دائمًا عن صاحب المال الذى يحقق له مشروعاته، كما تبحث الفراشة عن النار... وعثر هذه المرة على تلميذ قديم له، أصبح صاحب مال، هو: نجيب الريحانى. وكان الريحانى لا يزال يكسب أرباحًا طائلة من شخصية «كشكش بك» ـ التى سبق أن رويت قصتها ـ وكان الإقبال شديدًا ومستمرًا على رؤية قصة العمدة الغنى الطيب القلب، الذى تحيط به غانيات القاهرة الأجنبيات يضحكن على ذقنه ويسلبن ماله.

وثابر عزيز عيد مدى شهرين على إقناع الريحانى بأن ينفق على مشروع جديد: إن الغناء فيما يبدو ناجح.. وهو يريد أن يقدم مسرحية غنائية ـ أوبريت ـ شيئًا يعجب الناس... ويكون فى الوقت نفسه أرفع وأرقى من قصص كشكش بك وكان الريحانى ـ رحمه الله ـ معروفًا بالبخل وبتقديره المال تقديرًا كبيرًا... حتى أنهم يذكرون أنه ظل مصرًا على ألا يطلق بديعة مصابنى... بالرغم من كل شىء، على أمل أن يرثها يومًا... ولكن المقادير شاءت أن يموت الريحانى وأن تنازع بديعة مصابنى بقية الورثة فى تركته. وعلى ذلك فلم تكن مهمة إقناع الريحانى بأن ينفق على إخراج رواية أخرى ـ غير الروايات التى يمثلها ـ بالمهمة السهلة... ولكنه اقتنع، وقبل أن ينفق على الرواية.

وبعد أن ضمن عزيز المال، ذهب يبحث عن القصة.. والتقى بأحد أبناء الطبقة الأرستقراطية التركية من هواة الفن ـ المرحوم محمد تيمور ـ وأخذا يفكران فى قصة... شخصية جديدة غير شخصية العمدة الريفى. شخصية تكون من واقع الحياة المصرية... حتى انتهى تيمور إلى وضع أوبريت «العشرة الطيبة».. متحدثة هذه

المرة عن الشخصيات التركية المتعجرفة، الضيقة الأفق.. فى ثوب من النقد المرير والسخرية. وأخذ بديع خيرى القصة لينسج لها الأزجال والأغانى.. وليرصعها بالنكات المصرية الصميمة.

وقضى عزيز فترة طويلة يختار مع تيه ،ر شخصيات الأوبريت... واختارا «زكى مراد» لدور البطولة الغنائية وسيدة اسمها «برلنتى» لدور البطلة المغنية، واختارا أيضًا مختار عثمان وستيفان روستى ومحمد المقرطم وحسين رياض ومحمود رضا. واختارا الممثلة "نظلة مزراحى" لدور ست الدار. ووضعا دورًا خاصًا ليس فى غناء... لتقوم به الممثلة الناشئة.

الألحان... ومن المرحوم سيد درويش تعلم عزيز عيد داء كان له أثر بالغ فى حياته فيما بعد، فقد كان سيد درويش لا تطاوعه الألحان إلا إذا وصل إلى قمة «الانبساط» بتعاطى كميات ضخمة من المخدرات... وكان عزيز عيد فى حاجة إلى أن يجرى خلف سيد درويش حتى ينجز له الألحان بسرعة. واضطر عزيز إلى مصاحبة سيد درويش مصاحبة دائمة حوالى عشرين يومًا تم فيها وضع الألحان... هو وممثل فى الفرقة اسمه محمود رضا. كان الثلاثة يجلسون فى أحد المقاهى الرخيصة أو الحانات الخفية. ويشترى عزيز ـ من ميزانية الرواية- كميات الحشيش والأفيون اللازمة... وإذ هم على هذا النحو يطلق سيد درويش الألحان ـ وكان يلحن شفويًا ـ ويسرع محمود رضا فيحفظ الألحان ـ وكان سريع الالتقاط... وفى اليوم التالى يذهبون إلى المطربين فيمضى محمود رضا فى ترديد ألحان سيد درويش وتحفيظها للممثلين، بحضور السيد درويش... وهكذا. ونستطيع أن نقول إن عزيز عيد قد

اشترك فى وضع هذه الألحان، إذ كان يقترح على الشيخ سيد التعديلات. ويبدى رأيه فى مدى تعبير اللحن عن هذا الموقف أو ذاك.. وكان الصبح لا يأتى على هؤلاء الثلاثة إلا وهم خارجون من حانة أو كهف... فى حالة بشعة من الغيبوبة والاصفرار والاضطراب.

وقد جاءت الألحان ـ فعلا ـ عملا رائعًا خالدًا، فى تاريخ المسرح الغنائى المصرى... أما عزيز... فقد ركبه هذا الداء منذ تلك اللحظة... وأصبح كلما أغرقته الهموم، وألم بروحه الضعف والإرهاق، لجأ إلى هذه المكيفات يغرق فى دخانها الأزرق... حتى تنتشله منه يد، أو مشروع أو عمل جديد.

وارتفعت الستار عن الأوبريت... وكل شىء فيها جديد. الوجوه... والألحان، والإخراج، والروح العامة السارية فى المسرحية كلها...

وكانت الأسر التركية فى ذلك الوقت قوية النفوذ فى مصر وللأرستقراطية التركية مكان مرموق من رهبة الناس، وتندر العامة. وكانت بعض التيارات السياسية فى مصر مازالت تناضل الإنجليز من أجل إعادة مصر إلى حظيرة الخلافة العثمانية... والذين يدينون بالولاء للتفكير التركى أو الأصل التركى كثيرون... والأرستقراطية المصرية كلها تقضى أصيافها على ضفاف البوسفور.. وصدمت أوبريت «العشرة الطيبة» كل هؤلاء بما حوته من نقد وسخرية بهذه الطبقة والعقلية فثارت فى بعض الصحف والدوائر حملة عنيفة عليها... بل أذكر أن عددًا كبيرًا من المتفرجين فى الليلة الأولى، وثبوا من مقاعدهم ثائرين صاخبين، يصرخون فى وجوه الممثلين احتجاجًا واستنكارًا..

وكان معظم رواد المسرح ـ خصوصًا فى الليالى الأولى ـ من الأغنياء... ذوى الأصل التركى طبعًا.

وتجمع عدد من المتفرجين يهتف ضد المسرحية بحياة تركيا وسلطان تركيا! وكان عزيز عيد قد اتفق مع مؤلف المسرحية «محمد تيمور» على أن يحضر الافتتاح لكى يقدمه إلى الجماهير بعد انتهاء التمثيل... وكان تيمور إنسانًا حساسًا، رقيق المشاعر جدًا، فما أن رأى ثورة هؤلاء الناس، وكان هو نفسه تركى الأصل ولم تجد طبيعته الفنية حرجًا من السخرية بالأتراك. حتى ركن إلى الفرار من المسرح كله. وعبثًا أخذ عزيز يبحث عنه بعد انتهاء التمثيل.

على أن هذه الثورة كانت سببًا آخر لنجاح الرواية، فقد دفع هذا الجو إلى صالة المسرح أفواجًا من الناس جاءوا بين متفرج، ومعجب، وشامت...

وبعد أسبوعين من النجاح المتصل، بدأ مسرح الريحانى الذى يمثل فيه الريحانى نفسه يتأثر من هذا النجاح وبات وضع الريحانى غريبًا.. فهو يمثل فى مسرح آخر ويهمه إقبال الجماهير عليه طبعًا.. وهو فى الوقت نفسه ممول هذه الفرقة التى تنافسه، الذى يأتى آخر الليل ليتسلم الإيراد ويصرف الفنانين أجورهم. وأخذ نجيب يقبض يده فى متابعة الإنفاق على الرواية، وأخذ يقلل الدعاية لها، حتى هبط الإيراد هبوطًا ملحوظًا، فذهب إلى عزيز يقول له: إنه يجب إيقاف الرواية؛ لأنه لا يستطيع أن يبدأ فى الخسارة.

وأسدل الستار فعلا على هذه الأوبريت... وسكت أنغامها العبقرية، وظلت كذلك يعلوها الغبار، ويخفيها ظلام المكاتب حتى عادت الفرقة المصرية فأخرجتها منذ سنوات قليلة إخراجًا جديدًا...

الفصل السادس

- ظهور محمد عبد الوهاب
- اشتراك الفن فى ثورة ١٩١٩
- التمثيل يصبح فنًا محترمًا

لم تذهب جهود هؤلاء الفنانين من أبناء الرعيل الأول عبثًا فمن ناحية أخذ يتكون بالتدريج جمهور مصرى كبير يواظب على مشاهدة المسرح، ومن ناحية أخرى، أخذ التمثيل يبدو ـ فى عيون الناس ـ شيئًا محترمًا له كرامته، مما دفع الشباب المثقف من أبناء الأسر الكبيرة إلى دخول هذا الميدان .

وكان ألمع من ظهر من هذا الشباب فى تلك الفترة الأستاذ عبد الرحمن رشدى. حصل عبد الرحمن رشدى على ليسانس الحقوق ـ وكان شيئًا نادرًا ـ واشتغل بالمحاماة زمنًا، ثم هوى التمثيل فانضم إلى فرقة جورج أبيض، وأذكر أن عقده مع جورج كان ينص على أن مرتبه الشهرى عشرون جنيهًا «مصريًا».. وكانت العملة الشائعة فى ذلك الوقت الجنيه.. الذهبى الإنجليزى، وكان يساوى $97 \frac{1}{2}$ قرشًا فقط.. أى أقل من الجنيه المصرى بقرشين

ونصف! وأذكر أن عبد الرحمن رشدى كان يصر على أن يقبض قرشين ونصف فوق كل جنيه ذهبى إنجليزى.. فقد كان محامياً، وكان يتمسك بحرفية العقد .

وكان عبد الرحمن رشدى جميل الوجه، فارع الطول. وكان ضعيف الأعصاب سريع التأثر جداً.. فلا يكاد يمضى فى أداء الدور المسرحى قليلا حتى ينسى نفسه، ويفقد سيطرته على مشاعره.. فإذا به يبكى حقًا، ويرتعد، ويلهث صوته وينفعل حتى تنطمس معالم الكلمات الخارجة من فمه، فإذا انتهى التمثيل ظل فترة على هذا النحو.. غائبًا عن حقيقة نفسه تائهًا وراء الدور الذى كان يؤديه.. وإذا كان "الاندماج" فى الدور ميزة كبرى، فإن الاندماج الزائد ينقلب إلى أداء منفلت من صاحبه، ليس له زمام .

عمل عبد الرحمن رشدى فى فرقة جورج فترة وجيزة أحرز فيها شهرة واسعة خصوصاً فى دور «تيمور» الفتى الأول فى رواية لويس الحادى عشر.. ثم دب بينهما خلاف على بعض المسائل المالية، فقرر عبد الرحمن رشدى أن ينفصل وحرضه على ذلك الشباب المثقف الذى زحف إلى الفرقة حرضوه مندفعين بحماستهم، وقلة تجربتهم، على ترك فرقة جورج وتكوين فرقة مستقلة به..

وفعلا.. انفصل عبد الرحمن رشدى وأعلن عن فرقة جديدة..

وما زلنا حتى الآن نعانى من هذا الداء.. دار التسرع والفردية والارتجال... لا يشتهر ممثل وممثلة إلا وتسارع بالانفصال لتكون لنفسها شركة سينمائية تحمل اسمها.. لا يلمع قلم إلا ويسرع إلى إصدار مجلة أو جريدة خاصة به. والعيب فى ذلك مزدوج: عيب

الناشئ الذى لا يعرف أن انفصاله قبل الأوان يضيعه، وأن ما يصنعه بمفرده . . وعيب صاحب العمل القديم الذى لا يعرف أن كل انفصال عنه يضعفه، وأنه من الخطأ أن يتغاضى عن حقوق الناشئين .

كون عبد الرحمن رشدى فرقة من الشبان الناشئين بصفة عامة. ولكنه أخذ ميلياديان بطلة الشيخ سلامة القديمة كممثلة أولى للفرقة. وقدمت الفرقة روايات أذكر منها «العرائس» و «الموت المدنى». . وكانت ميلياديان تبدو غريبة تمامًا على جو الفرقة.. بطريقتها القديمة وإلقائها المتخلف.. ولا أنسى أنها ظهرت مرة فى رواية اسمها «البدوية» ألفها المرحوم إبراهيم رمزى.. وكان فى الرواية دور بنت أعرابية ـ نحيلة ككل الأعرابيات ـ فى سن السادسة عشرة.. ولعبت ميلياديان هذا الدور. . بوزنها الذى كان يقترب من المائة كيلو على أنها لم تلبث أن اختلفت مع عبد الرحمن رشدى، وحلت الفنان الناشئة محلها فى البطولة النسائية للفرقة.

وكان مخرج الفرقة الممثل عمر وصفى يخرج الروايات بطريقة ليست من الإخراج فى شىء... إذ لم يكن عبد الرحمن رشدى على وفاق مع عزيز عيد... كل منهما شديد الاعتزاز بنفسه وليس مستعدًا للرضوخ لآراء الآخر.

ونجحت الفرقة فى أول الأمر نجاحًا لم يستمر طويلاً.. فصاحب الفرقة عبد الرحمن رشدى ليس إداريًا على الإطلاق ليس فى جعبته سوى الليسانس وبعض نقود الأصدقاء... ومرتبات الممثلين قليلة جدًا. والروايات التى تقدمها الفرقة قليلة رديئة الإخراج... فلما هبط الإيراد هبوطًا ملحوظًا... لجأت الفرقة إلى الطريقة

التى كانت تتحايل بها الفرق على البقاء: بالذهاب إلى الريف، فى رحلات طويلة.

وشاءت الأقدار أن توفق فرقة عبد الرحمن رشدى فى هذه الفترة إلى اكتشاف فنى كبير. فقد بدأ جورج أبيض يقدم بين فصول الروايات مطربًا ناشئًا هو حامد مرسى، ليلقى الطوائف فى مصر... وكانت المظاهرات ممنوعة ولا تقابل إلا بإطلاق النار... وكانت كل مظاهرة تخرج وقد استعدت للعودة بعدد لا بأس به من القتلى والجرحى... وفى الساعة المحددة خرجت كل فرقة من المسرح الذى تعمل فيه، وقد حملت علمًا كبيرًا، والتقت الفرق كلها فى ميدان الأوبرا أمام فندق الكونتيننتال... وكان فى السائرين جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى وعزيز عيد ونجيب الريحانى وزكى طليمات. ومحمد عبد القدوس ومحمد تيمور وكل من كان يعمل فى المسارح ممثلاً أو مخرجًا أو عاملاً، وكان بعضهم يلبس ملابس عربية وبعضهم يلبس ملابس فرعونية وغيرها من ثياب القومية المصرية.. وتقدمت المظاهرة عربة حنطور تركبها الممثلتان الوحيدتان فى المظاهرة: الممثلة الناشئة تحمل علمًا والممثلة مارى إبراهيم ومعها فى العربة الأستاذ عبد الحليم الغمراوى المحرر بالأهرام، وكان مديرًا لمسرح برنتانيا.

وتجمع حول المظاهرة خلق كثير: وسارت تقطع ميدان الأوبرا ومن حولها تسعى جنازات الشهداء وصيحات الجماهير وتحت تمثال إبراهيم باشا مباشرة رأت الممثلة الناشئة جنديين إنجليزيين صريعين، وقد نزف منهما دم غزير.. واتجهت المظاهرة إلى شارع عدلى. ولم تكد تمضى فيه، حتى تصدى لها جنديان إنجليزيان

آخران... ومضت المظاهرة... ورفع أحد الجنديين بندقيته وصوبها إلى الفنانة الناشئة حاملة العلم وتجمدت الفنانة الناشئة من الرعب، وشعرت بسخونة تغمر جسدها.. وأحست كأن رصاصة قد انطلقت واخترقت ظهرها فعلاً فتشبثت بالعلم كأنها تستند إليه. ولم يكن قد أصابها فى الواقع شىء من هذا الذى صوره لها الفزع... وقد تبينت فيما بعد أن الجندى الإنجليزى لم يكد يرفع بندقيته حتى عاجلته رصاصة من أحد الثوار المصريين، كان مختبئًا فى شارع جانبى صغير متفرع من شارع عدلى...

وأسرعت المظاهرة عائدة إلى مسرح برنتانيا...

وانتهت الثورة بأول انتصار سجله الشعب المصرى فى عصره الحديث: بإطلاق سراح سعد زغلول وصحبه، وتذكر فنانتنا الناشئة أن هذه الأحداث كانت بدء اهتمامها بالسياسة ولم تكن تفهم بعد كل تفاصيلها... كل ما كانت تفهمه أن البلد فيه إنجليز يغتصبونه، وأن سعد زغلول رجل عظيم قام يحرر هذا البلد، وأحبت سعد زغلول حبًا شديداً، وأنها لتذكر أيامًا سارت فيها على قدميها من ميدان باب الحديد إلى مصر الجديدة لتستمع إلى خطاب يلقيه سعد هناك... ولعل إعجابها بسعد وحرصها على سماعه كلما خطب فى مكان كان له سبب آخر متعلق بالفن... فقد كان سعد صاحب أجمل صوت بين أصوات الخطباء... صوت يهدر كالرعد ويعصف كالريح... ويهدأ كالموج المتكسر الصغير... وطريقته فى الإلقاء تعطى الكلمات ـ نفس الكلمات ـ رنينًا أخاذًا ومعانى جديدة. وكان كل الناس مثل الفنانة الناشئة فى هذه المشاعر. يحبون سعداً... بلا رهبة، ولا خوف، ولا نفاق.

الفصل السابع

- **تكوين فرقة رمسيس**
- **أزمة بسبب نقد يوسف وهبى**
- **الجراج الذى أصبح مسرح الريحانى**

اليوم... أصل إلى مرحلة مهمة من مراحل التاريخ المسرحى فى مصر... وأقصد بها تلك المرحلة التى لمعت فيها فرقة رمسيس... الفرقة التى مازال الناس يذكرونها كصفحة مجد للمسرح المصرى.

وسوف أعمد فى حديثى عن فرقة رمسيس إلى ترك الحوادث الصغيرة التى قد لا تهم إلا أصحابها... فالذى يهمنى هو أن أوضح قدر الطاقة، لماذا نجحت فرقة رمسيس ولماذا فشلت. محاولة أن أكون فى حديثى هذا صريحة إلى أقصى حد، وراجية فى الوقت نفسه أن يكون كلامى خفيفًا على صديقى القديم الأستاذ يوسف وهبى.

وقد سبق لى أن رويت، كيف كان يوسف وهبى هاويًا يلقى المونولوجات فى الحفلات الخيرية، ثم كيف ألحقه عزيز عيد لأول مرة بفرقته، ليلقى بعض المونولوجات أيضًا فى أثناء التمثيل... وهى الفرقة التى انتهت حياتها سريعًا، تحت وابل من البيض والطماطم.

على أن صلة يوسف بعزيز لم تنقطع بعد هذه التجربة فقد ظل يوسف يوالى الاتصال بعزيز، وكان على خلاف شديد مع عائلته الغنية الكبيرة لهوايته التمثيل ثم حدث أن سافر يوسف إلى إيطاليا وقيل إنه سافر لأسباب عائلية. وقيل إنه سافر فراراً من حب إحدى راقصات المسارح له وكانت تدعى «كاليوبا».

وكان عزيز يبحث عن كل صاحب مال ويحوم حوله كما تحوم الفراشة حول النار... وكان يقول فى تفسير ذلك: إن عندى الفن... وأريد من عنده المال! وعلم عزيز يومًا أن والد يوسف ـ المرحوم وهبى باشا ـ قد مات، وأن الشاب الذى يهوى التمثيل قد أصبح وارثًا غنيًا. وبسرعة البرق، حزم عزيز حقائبه، وأعلن أنه مسافر إلى إيطاليا ليقابل يوسف ويقنعه بإنشاء فرقة تمثيلية..

وسافر عزيز فعلاً وبصحبته الأستاذ مختار عثمان. وكان يوسف قد اتجه ذهنه أول الأمر إلى السينما. وفكر فى العمل فى الأفلام الإيطالية.. وكان من أصدقاء يوسف الأستاذ زكى طليمات، فأخذ يرسل له الخطابات الحارة... لإقناعه بالعودة إلى مصر والعمل على خشبة المسرح، واقتنع يوسف فعلاً آخر الأمر... وإن كان قد ظل ـ وفى أثناء عمل فرقة رمسيس ـ يجرى بعض التجارب السينمائية الصغيرة لنفسه...

ولعل هذه الحقيقة خليقة أن تذكر... تصحيحًا لما يقال من أن يوسف هجر المسرح إلى السينما.. فإن عقله متعلق ببريق السينما منذ قديم، وقبل أن يعتلى خشبة مسرح رمسيس ذاتها..

ومضى شهران أو ثلاثة. ورست الباخرة فى الإسكندرية تحمل عزيز عيد ومختار عثمان ويوسف وهبى.

وروى عزيز بعد ذلك أن يوسف بعد أن ترك حلم السينما مؤقتًا، كان يريد أن ينشئ فرقة استعراضية... إذ لم يكن قد تخلص بعد من هواياته الأولى وهى: الغناء وإلقاء المونولوجات والعزف على البيانو. ولكن عزيز وزكى طليمات ومختار عثمان أقنعوه بأن الخير فى إنشاء فرقة للروايات الدرامية تقدم روائع المسرح العالمى بعد ترجمتها.

وبدأ عزيز يجمع الممثلين. وبدأ بممثلتنا الناشئة، التى كانت قد أصبحت فنانة راسخة القدم، والبطلة الأولى على المسرح المصرى، فتعاقد معها لكى تكون الممثلة الأولى للفرقة.

ثم انضم إلى الفرقة حسين رياض وأحمد علام، ثم فاطمة رشدى وزينب صدقى. وكانت فاطمة رشدى لا تزال تلقى المونولوجات الاستعراضية... أما زينب صدقى فقد رأتها الممثلة الفنانة مرة تشترك فى استعراض تقدمه فرقة أمين عطا الله وذهبت الممثلة الفنانة تقول لعزيز:

- خسارة أن تكون هذه الفتاة فى فرقة استعراضية لا تليق بها.

فأسرع عزيز يتفق معها على الالتحاق بالفرقة الجديدة.

واكتملت فرقة صغيرة من حوالى ١٥ممثلاً وسبع ممثلات باقة بديعة من الفنانين النوابغ.. اجتمعوا فى هذه المحاولة وكل واحد منهم لا يدفعه إلا حماسه الخالص للفن، وحرصه البالغ على المستوى الرفيع.

وبدأت هذه الباقة تبحث عن مسرح..

وعثرت الفرقة على صالة، أرضها بلاط، صاحبها يهودى اسمه «عاداه» لا أذكر أكانت فى الأصل جراجًا أم دارًا للسينما هى الصالة التى تطورت حتى أصبحت الآن «مسرح الريحانى».

وبدأت الفرقة تعمل، كخلية النحل... يوسف وهبى يصنع المستحيل لكى يحول هذا الجراج إلى مسرح لائق... هنا يجب أن تنصب خشبة المسرح... وهنا البناوير، وفوقها الألواج... أعلى التياترو لا لزوم له... الأرض البلاط يجب أن تغطى، الإضاءة يجب أن توزع... المدخل فى حاجة إلى تجميل.

وأشهد لقد أثبت صديقى الأستاذ يوسف وهبى كفاءة فى الإدارة وذوقًا فى الدعاية يحسد عليه... وقد اشتهر بعد ذلك - وإلى يومنا هذا - ببراعته فى الدعاية الواسعة وإثارة الضجة حول أعماله.

وبين أعمال النجارة والإصلاح والبناء... كان عزيز وأبطال الفرقة لا يكفون عن التدريب.. وقد اتفقوا على أن يظهروا جميعًا فى الروايات الأولى... مهما كان الدور صغيرًا على هذا البطل أو تلك... ولعل البروفات المسرحية لم تشهد نظامًا كالذى كان يحافظ عليه الممثلون فى فترة الاستعداد هذه...

كانوا - وفيهم الأبطال الراسخون - كالتلاميذ... لا يكفون عن التدريب حتى يدق جرس كبير على الباب فيخرجون إلى الشارع الصغير المجاور للمسرح، يأكلون الساندويتشات ويشربون الشاى فى قهوة الفن الموجودة هناك وبعض الحوانيت الصغيرة المجاورة... حتى يدق الجرس مرة أخرى، فيلقون ما بأيديهم، ويسرعون إلى الداخل، يلتفون حول أستاذهم القصير المحدودب، عزيز عيد... ويواصلون التدريب.

وقد فوجئ الممثلون أثناء البروفات بحقيقة غريبة هى: أن الممثل الناشئ يوسف وهبى أكثرهم حاجة إلى التدريب لم يكن له سابق عهد بالإلقاء السليم. ولم يكن قد سبق له الاضطلاع بأدوار درامية مهمة... وهو إذا تكلم أطلق لصوته وعضلات وجهه العنان.. يهدر كالشلال الصاخب، جارنا فى طريقه الكلمات حتى لا تكاد تبين، وبين هديره تنفجر بعض مخارج الألفاظ كقطع الأحجار المتطايرة من الشلال الهادر على نحو يصدم الأذن... وفى غمرة هذا الاندفاع كثيرًا ما ينسى يوسف فقرات كاملة ـ وهو لا يحفظ أدواره عادة ـ وكثيرًا ما يترك النص ليتحدث بكلام من عندياته.. مطمئنًا إلى أن المتفرج لا يميز الكلمات تمامًا بحيث يدرك هذا الخروج.

وكان ممثلو الفرقة يلتفون حول عزيز يطلبون منه ـ وبشدة ـ أن يرغم يوسف على التدريب وتعديل طريقته. وعزيز متحرج أول الأمر أن يصارح يوسف حتى لا يغضب ويفشل مشروع الفرقة قبل افتتاحها. وأخيرًا أخذ عزيز يدربه فى لين وطول بال... وإن فشل فى إقناعه بتغيير هذه الطريقة الغريبة، التى مازلت ـ إلى اليوم ـ طابع تمثيله.

وكانت المرتبات قليلة جدًا... فأكبر مرتب فى الفرقة كان ثلاثين جنيهًا يأخذها عزيز.

وكانت الممثلة الناشئة تأخذ ٢٥جنيهًا.

وكان حسين رياض وأحمد علام وغيرهم لا تزيد مرتباتهم على ١٢ أو ١٥جنيهًا.

ولم يكن الفنانون يجدون فراغًا لينظروا إلى هذه المرتبات ويقولوا إنها ضئيلة... كانوا ينفقون وقتهم كله، وحرارتهم كلها، لكى يقدموا عصارة خبرتهم ومهارتهم إلى هذه الفرقة، ويلتفوا - وفيهم من شاب شعره على المسرح - حول هذا الشاب الوارث الذى يحب الفن.. مصممين على النجاح بأى ثمن... فإذا انتهى اليوم الحافل بالعمل.. كنت تراهم خارجين من باب المسرح متعبين، يمشون على أقدامهم إلى حيث يسكنون... فيما عدا يوسف، الذى اشترى سيارة فاخرة فكان أول ممثل اقتنى سيارة.

وكان الأستاذ يوسف وهبى فى ذلك الوقت متزوجًا من سيدة أمريكية تربت فى إيطاليا. كانت تحب الفن وقيل إنها كانت تمثل فى روايات الأوبرا الإيطالية حيث عرفها يوسف، ولكنها كانت سيدة محترمة مهذبة جدًا، تقف فى المسرح دائمًا إلى جوار زوجها. وكانت تؤيد الرأى السليم الذى يتفق مع الفن ولو خالفت زوجها.

ومن الابتكارات التى ابتدعها يوسف فى ذلك الوقت... أنه وضع فانوسًا سحريًا أمام باب المسرح يعرض صور أبطال الفرقة مضيئة متلاحقة كالفيلم السينمائى. ولم تكن أنوار «النيون» الشائعة الآن قد عرفت بعد، فكان هذا الفانوس السحرى دعاية بارعة جذبت انتباه الناس إلى حد كبير.

واستقر الرأى على أن يكون الافتتاح برواية «المجنون».

ولم يكن عزيز عيد، ولم تكن الممثلة الأولى، راضين عن هذا الاختيار.. فالرواية فى الواقع ليست من مسرحيات الدرجة الأولى. ولكن الاختيار وقع عليها لأسباب كثيرة. منها أن البطولة معقودة

فيها لرجل، مما يعطى فرصة الظهور ليوسف وهبى بوصفه صاحب الفرقة، ومنها أيضًا أن دور يوسف وهبى هو دور «مجنون» وتمثيل دور المجنون سهل... إذ أنه لا يخضع لقواعد دقيقة، وأى شىء يأتيه الممثل يمكن أن يقال عنه إنه جنون!..

وارتفع الستار أول مرة يوم ١٠مارس.

وشهد الناس لأول مرة فى مصر هذه المجموعة المختارة من الأبطال يؤدون أدوارهم طبقًا لأحدث قواعد التمثيل، ويقدمون للناس عملاً جديدًا تمامًا يتلخص فى أن الممثل لا يمثل على المسرح ولكنه يحيا... يحيا حياة طبيعية تمامًا.. ينسى معها المتفرج أن القصة التى يشهدها من ابتكار مؤلف... لا تزيد ولا مغالاة... لا انفعال فى موضع الهدوء... ولا صخب فى موضع الانفعال.

ونجحت الرواية...

وخرج الناس يتحدثون عن هذا الفن الجديد... وعن الأبطال الكبار يلعبون الأدوار الصغيرة، ويتضامنون فى الأداء والرغبة الصادقة فى الارتفاع بمستوى الفرقة.

وفى الليلة الأولى، بعد نهاية التمثيل وقعت بسبب رواية «المجنون» أزمة كبيرة، ظل الأستاذ يوسف وهبى يجهلها زمنًا طويلاً..

فقد كان بين شهود الرواية الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى. وكان مختصًا بكتابة النقد الفنى فى جريدة «الأخبار» التى كان يصدرها المرحوم أمين الرافعى. وكتب المازنى مقالاً يمدح فيه الممثلين، وينتقد تمثيل يوسف وهبى بالذات... وكانت وجهة نظر

المرحوم المازنى أن الجنون أنواع: هناك الجنون الهادئ، والجنون الذاهل، والجنون الثائر.. هناك المجنون الذى ينطوى على نفسه والمجنون الذى يضرب ويحطم وأن الأستاذ يوسف وهبى لم يوضح نوع الجنون المصاب به البطل. ولكنه خلط كل أنواع الجنون وانطلق يصنع على المسرح ما يشاء، مما لا يتيح للناقد أن يحاسبه على الأداء حسابًا دقيقًا...

كتب الأستاذ المازنى هذا المقال وأرسله إلى المطبعة. وكان للمرحوم أمين الرافعى صاحب الجريدة صديق عزيز هو المرحوم عبد الخالق مدكور باشا. وكان عبد الخالق مدكور صهر لأسرة يوسف وهبى. وتدخل مدكور باشا عند أمين الرافعى طالبًا عدم نشر المقال، قائلاً: إن هذه الفرقة الجديدة يجب تشجيعها، ومن الظلم لها أن تقابل فى أول أيامها بهذا النقد..

وأمر أمين الرافعى بعدم نشر المقال.

وصمم المازنى على الاستقالة من الجريدة إن لم ينشر المقال وبعد مفاوضات طويلة، عاد المازنى، ولكنه امتنع عن كتابة النقد الفنى طيلة أيام فرقة رمسيس.

وقد ظل يوسف دائمًا يكره النقد الفنى، ويضيق بالصحف التى تتصدى له بالتوجيه، وهى طبيعة لا يجب أن تكون فى الفنان الأصيل.. فالفنان الحقيقى يستفيد من كل نقد سليم يوجه إليه. والفنان الحقيقى لا يخدشه أى نقد زائف.

الفصل الثامن

• ليلة الافتتاح فى مسرح رمسيس.

• غادة الكاميليا تستعير ملابسها!!

رويت فى الحلقة الماضية كيف تكونت فرقة رمسيس، وروح التضحية والإيثار والإخلاص للفن التى سادتها، حتى ارتفعت الستار عن أولى رواياتها، وكانت رواية «المجنون».

وأحب أن أسجل هنا - للتاريخ - أسماء الذين تكونت منهم الفرقة ونهضوا بعبئها غير الممثلة الأولى، وعزيز عيد ويوسف وهبى وهم: حسين رياض. أحمد علام. مختار عثمان. حسن فايق. ستيفان روستى. فتوح نشاطى. أدمون تويما ثم فاطمة رشدى وزينب صدقى ومارى منصور وسرينا إبراهيم ونعمت رياض.. والتحقت بالفرقة بعد بدء الموسم بقليل أمينة رزق وخالتها أمينة محمد. وكان الملقن حسن شلبى. ومنظم المسرح على هلال.

وعلى أن رواية «المجنون» كانت بداية فقط. وكان اختيارها كبداية لأسباب واعتبارات سردتها فيما سبق. أما العمل الفنى الكبير الذى قدمته الفرقة فانفجر فى الوسط الفنى كالقنبلة، وكان

دعامة النجاح الأولى للفرقة، فقد كان مسرحية «غادة الكاميليا»..
ترجمها محمود أفندى عزت، الذى كان ولا يزال إلى الآن موظفًا فى
المجموعة الرسمية بوزارة العدل ثم نقحها وراجعها الأستاذان عزيز
عيد وأدمون تويما.

والقصة فى «غادة الكاميليا» بسيطة هادئة.. ليست من النوع
الحافل بالمفاجئات أو الفواجع أو المواقف الصاخبة.. والروايات من
هذا النوع تحتاج إلى براعة فى التمثيل أكثر. فالممثل يقف فيها على
المسرح مجردًا إلا من مقدرته.. وكذلك المخرج.. فليس هناك
مفارقات أو مبالغات تخفى ضعف الممثل إن ضعف، أو عدم كفاءة
المخرج إن كان غير كفء للموضوع.

فالمسرحية تروى قصة حب عنيف نشب بين غادة الكاميليا
مرجريت وبين محام شاب مستقيم آت من الريف حديثًا.. اسمه
أرمان ديفال..

وقد اضطلعت الممثلة الأولى بدور مرجريت، وهو الدور الذى
خلد ذكر سارة برنار فى فرنسا، فكان أكبر أدوار حياتها الفنية..

ولعب يوسف وهبى دور أرمان.. وأرمان شاب هادئ لا شذوذ فيه
ولا جنون، وهو من هذه الناحية لا يلائم يوسف، ولكنه كان أيضًا
شابًا قادمًا من الريف، ساذجًا، غير مصقول فكان من هذه الناحية
يلائم يوسف الممثل الناشئ، الحديث العهد بهذه الأدوار.

ولكن يوسف وهبى لم يكن راضيًا عن دوره فى «غادة الكاميليا»..
فهو دور عاطفى، رقيق، فياض بالإحساس المرهف. وهى أدوار لا
يحبها يوسف الذى يريد دائمًا أن يزأر ويطلق اللعنات. وكان يصف

هذا الدور بأنه «رقيع» ويقول لمنظم المسرح قبل أن يدخل استخفافًا بالدور:

زغزغنى يا هلال علشان أمثل الدور ده! .

وحول الممثلة الأولى ويوسف وهبى ـ أو حول مرجريت وأرمان ـ كانت تدور الحياة التى أراد إسكندر ديماس الابن أن يصورها فى مسرحيته..

هذا هو الأب ديفال والد أرمان.. الذى يطلب من مرجريت أن تترك ابنه ويكلمها بلهجة شديدة قاسية. وتهم مرجريت بطرده فيتأثر الأب الوقور، ويدرك أن هذه الغانية لها قلب من ذهب فينقلب متوسلاً إليها باسم الحب أن تتركه له.. فتجيب رجاءه هذه المرة. إن الأب ديفال فى مسرح رمسيس كان الأستاذ عزيز عيد.

وهذا جاستون، الرجل الطيب جداً، الوفى جداً، والصديق الناصح لمرجريت يقوم بدوره حسين رياض.

وهذا مسيو سان جودان العجوز الغنى الذى تعبث به غانية رشيقة جميلة من صديقات مرجريت. وهو ولهان بها رغم كل شىء.. ودوراهما ينهض بهما أحمد علام وزينب صدقى..

وهناك صديقة أخرى لمرجريت، من نوع آخر اسمها ناشيت.. فتاة باسلة تعمل وتكسب تمثلها فاطمة رشدى، وتريد أن تتزوج من صديقها جوستاف الذى يمثله مختار عثمان. وناشيت من رأيها أن تتزوج مرجريت من أرمان ولا تكف عن محاولة إقناعها بذلك.

ثم هذه برودتس ـ أو سرينا إبراهيم ـ السيدة التى كانت فى شبابها تبيع الهوى ثم أصبحت الآن بعد أن تقدمت بها السن تتاجر فيه.

وهذا حسن فايق يؤدى دور الدوق دى فرفيل الثرى المتصابى الذى يطارد مرجريت بحبه وهى تفر منه.

وأخيرًا.. لنين خادمة مرجريت الوفية التى تسهر على صحتها حين يهزمها المرض كانت تؤديه ممثلة اسمها نعمت رياض.

ولا تنسى الممثلة الأولى مأساة هذه الممثلة نعمت رياض التى كانت تؤدى دور خادمتها على المسرح. فقد كان على الممثلة الأولى أن تمثل دور المريضة بالسل. التى أنهكتها العلة فى فصول الرواية الأخيرة.. أما نعمت رياض التى كان عليها أن تلعب دور الخادمة فقد كانت مريضة بالسل فعلاً.

وحدث فى ليلة أن كانت الممثلة الأولى تلعب المشهد الذى تنهض فيه من السرير ثم توشك أن تقع.. وكان المفروض أن تسرع إليها الخادمة لتسندها.. ولكن الخادمة ـ المريضة بالسل فعلا ـ سقطت على الأرض.. وأسرعت الممثلة الأولى تسندها لكى تستطيع أن تمضى فى الأداء إلى آخر المشهد.

على هذا النحو احتشد كل الأبطال اللامعين فى الرواية.. لا يقول واحد منهم: إن دورى صغير.. وقد كان دور حسين رياض بالذات دورًا صغيرًا بسيطًا، ولكنه بمظهره الطيب العطوف ـ وإن كان طيبًا عطوفًا فى مخبره أيضًا ـ استطاع أن يلمع، وأن يجعل من دوره هذا الصغير شيئًا مهمًا.

ونجحت الرواية نجاحًا لم تصادفه أية رواية مسرحية أخرى نجحت بالإخراج الدقيق والأداء المخلص والبعد عن التهريج.

ولما كان العمل الجيد فى ذاته خير من كل أنواع الدعايات فقد ظفرت الرواية بإقبال من الناس منقطع النظير.. ولأول محمود كامل وتوفيق دياب ومحمد التابعى ـ لأول مرة يكتبون نقداً هو الثناء الخالص..

وأذكر أن الأستاذ التابعى لم يشأ أن يفوته النقد، فلم يجد ما يأخذه على الممثلة الأولى الا أن كعب حذائها كان مزوداً بقطعة من الكاوتش!.

ولكن ذلك لم يمنع من أن يطلق النقاد على الممثلة الأولى لقب: سارة برنار الشرق.

وقطعة الكاوتش التى لمحها الأستاذ التابعى فى حذاء الممثلة الأولى.. تفتح الباب لذكريات طريفة..

فقد قلت إن مرتبات الممثلين فى فرقة رمسيس كانت ضئيلة وأن الممثلة الأولى لم يكن يزيد مرتبها على خمسة وعشرين جنيهاً. وكان على الممثل مع ذلك أن يشترى ـ على حسابه ـ الثياب اللازمة للروايات إذا كانت ثيابًا عصرية. أما الروايات التاريخية التى تحتاج إلى ثياب خاصة فالفرقة هى التى تتكفل بإحضارها.. ومع أن رواية "غادة الكاميليا" تؤدى عادة بملابس العصر القديم، أن الفرقة رأت اقتصاداً للتكاليف أن تقدمها بثياب عصرية.. وساعدها على ذلك أن موضوع الرواية إنسانى مما يمكن أن يحدث فى كل زمان ومكان. وهكذا أصبح على الممثلة الأولى أن تشترى لهذه الرواية ـ على حسابها ـ خمسة فساتين لفصول الرواية الخمسة.

فماذا تصنع؟..

ذهبت إلى محلات شيكوريل وصيدناوى وفتحت فيهما حسابًا.. فاشترت الفساتين اللازمة على أن تدفع ثمنها بالتقسيط، جنيهين كل شهر. وأبدى أصحاب المحلين للممثلة الأولى تشجيعًا كبيرًا وتسهيلات لا تنساها لهم، من ذلك أن أحد الفساتين اللازمة للرواية كان غاليًا جداً، يصل ثمنه إلى ٢٠جنيهاً ـ وهو مبلغ ضخم فى تلك الأيام ـ فصرح شيكوريل للممثلة الأولى بأن تستعيره وتلعب به الدور إلى أن يجد لها المحل ثوبًا مشابهًا أقل فى الثمن قليلاً، فتعيده إليه.. بلا مقابل..

والذين يقولون الآن إن الحاسة الفنية لدى الجمهور المصرى ضعيفة.. والذين يزعمون أنه لا يقبل إلا على روايات التهريج الرخيص.. والذين يعتذرون عن كل ضعف فى عملهم بأنهم إنما «ينزلون» إلى مستوى الجماهير.. هؤلاء جميعًا يجب عليهم أن يذكروا ليالى «غادة الكاميليا» فى فرقة رمسيس منذ ما يقرب من عشرين سنة.. الإقبال الذى لا مثيل له.. الهدوء والخشوع والصمت الذى كان يسود بين المتفرجين من لحظة ارتفاع الستار عن المشهد الأول إلى أن يهبط فى المشهد الأخير.. كأنهم فى معبد.. الاحترام الشديد الذى بدأ النقاد والناس من جميع الطبقات ينظرون به إلى هؤلاء الأبطال المسرحيين، وهذا العمل الفنى المجيد هؤلاء الناس الذين رأوا التمثيل يصبح لأول مرة شيئاً جديًا، علمياً، مهمًا.. كالسياسة أو الاقتصاد أو التعليم.. تحشد له الجهود وتبذل فيه القوى، وتكدح فيه المواهب.. لا فوضى ولا شعوذة ولا هزر.. وقد كان يحدث أحيانًا أن يغشى على أحد المتفرجين أثناء الرواية من فرط التأثر فى مشاهدها الأخيرة.. فماذا كان يحدث؟ لا أحد

يتحرك حتى الجالس بجواره، بل يدخل العامل بهدوء، ويحمل المغمى عليه إلى الخارج.. دون أن ينزعج الناس، أو يخرجهم الحادث عن جو الرواية المسيطر عليهم، الآخذ بمشاعرهم.

أذكر مرة أن الستار ارتفع عن الفصل الثالث وهو بدء المأساة الحقيقية فى الرواية.. وفجأة ظهرت قطة كبيرة على خشبة المسرح، ومضت إلى حيث تجلس مرجريت جوتييه وأخذت تطوف حولها. ولو كانت سيطرة التمثيل على الناس ضعيفة لضحكوا وضجوا أو حتى تهامسوا.. ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث.. بل مدت الممثلة الأولى يدها إلى القطة تربت عليها فى حركة طبيعية وهى تؤدى دورها.. ومر الناس بهذا المشهد الطبيعى دون أن يخرجوا عن خيط القصة لحظة واحدة.

وأذكر مرة أخرى أن أحد الجرسونات فى الصالة أخطأ ودخل فى أثناء التمثيل يحمل فنجان قهوة لأحد المتفرجين الجالسين فى البناوير. ومع أنه دخل فى هدوء شديد لم يلحظه أحد. إلا أن التمثيل توقف دفعة واحدة، وأنزل الستار فورًا.. وذهب المشرف إلى هذا الجرسون ففصله من عمله جزاء له على إخلاله بآداب المسرح، وخجل المتفرج طالب القهوة خجلاً شديدًا، وأخذ يعتذر عنه.

إلى هذا الحد أراد الممثلون أن يكون لهم احترام. ولتمثيلهم آداب. وإلى هذا الحد كان تأثر الناس وتقديرهم كبيرًا.

واستمر عرض الرواية أول الأمر أسبوعًا كاملاً. وبعد ذلك تعاقبت الروايات اللامعة التى يقترن بها اسم الفرقة ويستفيد من سمعتها. وظلت العمود الفقرى الذى يدور حوله التمثيل.. فبين كل

بضع روايات تعرض «غادة الكاميليا» ليلة أو ليلتين، وكلما هبط الإيراد أو قل الإقبال قليلاً، قدمت الفرقة «غادة الكاميليا» لاستعادة حماسة الجماهير لها.

وأصبحت «غادة الكاميليا» شخصية يعرفها كل الناس، ويحبها كل الناس كأنها واحدة منهم.

الفصل التاسع

- غادة الكاميليا، تربح ١٢ألف جنيه !!!
- جورج أبيض يمثل إلى الفجر..
- موجة من الطلاق تجتاح القاهرة!

مضى الموسم الأول لفرقة رمسيس بلا ارتباك ولا توقف ولا خلاف.. فلما اقترب الموسم من نهايته وقع الخلاف الأزلى بين عزيز عيد وأصحاب الفرق التمثيلية.. وصاحب الفرقة هذه المرة هو يوسف وهبى..

وكان عزيز فى هذه الفترة فقيرًا جدًا، مفلسًا تمامًا لا يملك إلا مرتبه الذى لا يزيد على ثلاثين جنيهًا، يدفع جانبًا منه لمساعدة بعض أهله. كان بلا بيت ولا أسرة. حمل ثيابه ومتاعه البسيط إلى إحدى حجرات المسرح، واتخذها سكنًا فإذا خرج المتفرجون آخر الليل وانصرف يوسف وهبى فى سيارته الفاخرة، وتفرق الممثلون، وانفض السامرون، وأطفئت الأنوار.. أغلقت الأبواب على عزيز، يقضى ليلته فى نفس المسرح.. على خشبته يسكب عصارة فنه فى البروفات صباحًا وفى التمثيل ليلاً، فإذا اقترب الفجر نام خلف

الكواليس بين الأنوار المطفأة والديكورات المنصوبة.. فى الجو الذى كانت فيه منذ قليل تهمس «مرجريت» ويصخب «المجنون».

وكان عزيز متفقًا مع يوسف على أن يأخذ خمسة فى المائة من صافى إيراد الفرقة، فوق مرتبه الشهرى، فلما اقتربت نهاية الموسم بدأ عزيز يطالب بنصيبه.. ويوسف وهبى يراوغ، ويخرج من جيبه كل يوم.. عذرًا.. الحساب لم يصف بعد.. الدفاتر لم تسو.. الديون لم تدفع.. حتى وصل إلى العذر الأخير: إن الفرقة لا تكسب!

الصالة كل يوم غاصة بالناس وشباك التذاكر يحمل لافتة «كامل العدد».. و«غادة الكاميليا» وحدها ـ كما قال مدير الحسابات ـ ربحت ١٢ ألف جنيه.. والمسرح ـ وإن كان يوسف يقول إن تكاليف إعداده بلغت عشرة آلاف جنيه إلا أن أية عين خبيرة تعرف أنه لم يتكلف أكثر من ثلاثة آلاف.

ويوسف يقول إن الفرقة لا تكسب ! وجن عزيز ! .. وقرر أن يترك المسرح.. أن يفقد عمله، ومرتبه، وسكنه، وأسرته وحياته كلها التى انحصرت فى هذا المسرح الصغير.. ولكن الممثلة الأولى تدخلت لتسوية الخلاف وتهدئة الأعصاب وهدأت أعصاب عزيز كما كان يحدث دائمًا.. فلم يعد إلى حديث نصيبه فى الأرباح، ولم يعد يوسف إليه طبعًا.

وكانت قصة نصيب عزيز المفقود آخر رواية قدمتها فرقة رمسيس فى هذا الموسم.. وراء الكواليس..

وعلى هذه القصة انتهى الموسم.. وسافر يوسف إلى أوروبا فى إجازة. وكان النظام أن يقضى ممثلو الفرقة العطلة بلا مرتبات،

وأيام البروفات بنصف مرتب.. وبعد شهرين عاد يوسف.. وبدأ الاستعداد للموسم الثانى.. فبأى رواية تبدأ الفرقة هذه المرة؟

راسبوتين..

وكان راسبوتين فى ذلك الموقف لم يمض على سقوطه إلا بضع سنوات.. وكما حدث عقب خروج فاروق مثلا.. انطلقت صحف العالم تتسابق فى سرد الروايات والقصص عن راسبوتين وارتفعت المبالغات فى بورصة السبق الصحفى. حتى اتخذ راسبوتين صورة بشعة جدًا.. كريهة جداً.. شاذة جداً.. لرجل قذر فى كل شىء.. فى سلوكه وأخلاقه وهيئته..

واقتنص يوسف هذه الشخصية. فهذه المبالغات الهائلة ترضيه. والأدوار الشاذة هى التى تناسبه.. وفعلاً نجح يوسف فى أداء هذه الشخصية نجاحاً مازال مذكوراً.

ورفضت الممثلة الأولى أن تلعب فى هذه الرواية دور القيصرة الهزيل، الميت، الذى لا فائدة من نفخ الروح فيه فأعطاه يوسف للبطلة القديمة إبريز ستاتى. وارتفعت الستار فى أول الموسم الثانى ليرى الناس راسبوتين.. إنسانا قذرًا نابيًا.. يبصق على الأرض ويتمخط فى أكمامه ويصرخ فى الناس.. ثور شرس هائج ليس لشخصيته أساس عميق، ولا لأعماله تفسير.

ولم يمض أسبوع حتى أسرع يوسف إلى الممثلة الأولى يرجوها أن تقبل أداء دور القيصرة.. إنقاذًا للشخصية التى هوت بها إبريز ستاتى. واضطرت الممثلة الأولى آخر الأمر إلى القبول. فعقدها يلزمها بأن تمثل الأدوار الأولى التى يعهد بها إليها. وإن بقيت تؤدى هذا الدور الميت وهى كارهة.

وكتب الناقد الكبير الأستاذ إبراهيم المصرى مقالا طويلاً فى العدد الذى صدر فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤من مجلة "التمثيل" عن رواية "راسبوتين" هذه قال فيه بعد أن لخص موضوع المسرحية:

هذا جوهر الموضوع وأنك لتدرك منه سلسلته الفقرية وحاجته إلى حادثة رئيسية تتحرك الأشخاص بموجبها وتظل تنمو حسب قاعدة التدرج المسرحى حتى نهاية الرواية فيخرج منها المشاهد بمجموعة شخصيات صادقة أو بفكرة اجتماعية عميقة أو بتحليل ظاهرة نفسية ذات شأن.

لم نفهم البتة كيف أصبح راسبوتين صاحب السلطة المطلقة فى روسيا، ولا الكيفية التى تكون بها دهاء ذلك الرجل بل رأينا راسبوتين فجأة داهية محتالا تحنى له أكبر الرءوس دون سبب يشرحه لنا المؤلف. ثم أن يوسف بك لم يقدم لنا راسبوتين بالمرة، ولم يرسم لنا فى بدء الرواية شخصيته الدفينة وقرارة نفسه حتى يمهد لنا السبيل لغريب الوقائع التى سيقوم بها، ونشأ عن ذلك أن جاء الرجل محض صورة خيالية، وكأن كل عمل يأتيه يدعو إلى الاندهاش لدرجة عدم الاقتناع، مثال ذلك أن النساء جميعًا كن يقعن فى لحظة أسيرات هواه بلا ممانعة أو تدلل أو مقاومة. ونحن لا ندرى ما سبب ذلك، ولأن يوسف بك أبرزه لنا وحشى الخلق غليظ المنطق بشع المظهر لا دلالة فيه البتة على رجل الاستمالة والإغواء..

«ثم أن هناك مسألة أخرى، وهى أن راسبوتين يوسف بك ليس بالإنسان، إنما هو الله بنفسه هبط إلى الأرض. فإن أعداءه حاولوا قتله ثلاث مرات، الأولى بسم زعاف والثانية بالسم أيضًا، والثالثة

بثلاث رصاصات، غير أن المؤلف لم يشأ لراسبوتينه أن يموت بفعل ذلك كله، بل أوعز إلى أحد أشخاصه بأن يلقيه بزلعة ضخمة هائلة حتى يزداد تأثير الذعر على نفس المتفرج. على أن «التأثير» فى المسرح إذا غالى المؤلف فى استعماله انقلب إلى ضده».

كانت هذه هى مسرحية راسبوتين كما كتب عنها «الأستاذ إبراهيم المصرى».

ثم بدأت الروايات التافهة تزحف على مسرح رمسيس.. وتتزاحم عل أبوابه. وقد اعتدنا أن كل عمل ناجح لا يلبث أن يتزاحم حوله الفضوليون والمنافقون والجهال، كل واحد يريد أن يظفر بشىء من هذا النجاح.. وهذا ما حدث لرمسيس فقد ألفت حول يوسف عدد كبير من هذا النوع: وأغرقوه بفيض من الروايات التى هى فى الواقع أقرب إلى الروايات البوليسية. وكان أبسط طريق يسلكه صاحب المسرحية لتملق يوسف هو أن يجعل دوره يستغرق المسرحية كلها وأن يبتر سائر الشخصيات من حوله.. ومن هذا النوع رواية «القناع الأزرق» وما إليها.

وبقدر ما بدأت الفرقة تبتعد عن الطريق الفنى الصحيح، بدأ الإيراد يهبط وإقبال الناس يقل. وإزاء ذلك اقتنع يوسف بأن يخرج من درج مكتبه مسرحية عالمية فى شهرتها، كان يصر على دفنها من وقت بعيد. مسرحية خلدتها سارة برنار على المسرح الفرنسى وترجمها للفرقة الأستاذ حبيب جاماتى هى مسرحية «فيدورا»..

ومسرحية «فيدورا» تلعب الدور الأول فيه سيدة، وهذا هو سر معارضة يوسف فى إخراجها أول الأمر وأذكر أن الأستاذ عزيز عيد

بذل جهداً كبيراً فى إقناع يوسف بإخراجها، فلم يصل إلى إقناعه إلا بعد أن أقنعه بأن دوره فيها سوف يظفر بتصفيق الناس، وأمسك الرواية وأخذ يقلب صفحاتها ويشير له إلى المواضع التى سوف يقف عندها، ليصفق الناس.

ولكن تمثيل الرواية لم يأت ـ من هذه الناحية فقط ـ بما يرضى يوسف إذ يبدو أن الجمهور قصر فى التصفيق له.

وأذكر أن القصة كانت تحتوى على مشهد دقيق جداً بين يوسف والممثلة الأولى التى كانت تلعب دور البطولة: يوسف قتل خطيبها.. وهى قد جاءت لتنتقم منه.. ولكنه يسرد لها قصة هذا الخطيب المقتول.. كيف كان فاسداً خائناً مجرماً. وتنهار فكرة البطلة عن خطيبها دفعة واحدة.. حتى إذا وصل يوسف فى كلامه إلا أنه لكل هذه الأسباب قد قتله تقول له البطلة: أحسنت..

فالمشهد ـ كما ترى ـ كلام متصل من يوسف وصمت متصل من البطلة.. ولكن الناس كانوا ـ بحكم الرواية ـ أكثر انتباهاً للبطلة والتعبيرات المتعاقبة على وجهها وحركاتها وهى تسمع هذه الاعترافات الرهيبة.. حتى إذا قالت البطلة كلمتها الوحيدة «أحسنت» انفجر الناس فى تصفيق طويل.

وكانت ثورة يوسف لأن كل الكلام الذى قاله لم يحرز التصفيق الذى أحرزته كلمة واحدة تقولها البطلة.. مع أن حوادث القصة وحدها هى التى جعلت الأهمية لهذه الكلمة الوحيدة.

وقصة «فيدورا» كما يرى القارئ ـ هى التى أخذ يوسف عنها روايته «غرام وانتقام»، وكان أبرز التعديلات التى أدخلها من عنده

عليها إضافته استعراض «نشيد الأسرة العلوية» الشهير. يؤكد صفة أخرى فى يوسف هى حبه المبالغة فى كل شىء. فهو فى رواية «غرام وانتقام» يبحث عن استعراض موسيقى ضخم وتستعرض له البطلة أسمهان تاريخ مصر من أيام الفراعنة، ولكنه يقول لها ما معناه إن مصر لم تخلقها إلا الأسرة العلوية.. ثم يلقى خطبة حماسية طويلة يرفع فيها الأسرة العلوية من محمد على إلى فاروق إلى أعلى مراتب القديسين ثم يقدم هذا النشيد. فإذا تغير العهد وطارت الأسرة العلوية المجيدة، ووقف على مسرح التحرير يخطب بحماس بالغ أيضاً، حتى اقترح إلغاء حرف «الفاء» الذى اشتهر به فاروق وأسرته.. وقال عن هذه الأسرة العلوية كلامًا لم يقله أحد من أقدم خصومها..

وما سردت هذه الملاحظة، إلا لأقول إن الفنان الحقيقى إنسان لا يتغير ولا يساير.

فالفنان الحقيقى لا يعتز بشىء قدر اعتزازه بفنه وكرامته ولا يرى فى الدنيا شرفًا أرفع من الولاء للمثل العليا التى يمثلها هذا الفن، أو مجد يدانى الإخلاص له والتفانى فى خدمته وكل سيد غير الفن ـ فى نظر الفنان الحقيقى ـ مهما كانت عظمته ومهما بلغ مجده وسلطانه.. أتفه من أن يرضى بأن يضحى من أجله بذرة واحدة من ولائه للفن.

المهم أن رواية «فيدورا» نجحت نجاحًا كبيرًا وصل إلى مرتبة نجاح «غادة الكاميليا» وأضيفت به إلى سجل الأعمال الباهرة التى قدمها مسرح رمسيس مثل «نتاشا» و«المقنعة» و«دافيد كوبر فيلد» التى قدمتها الفرقة باسم «الذهب».

وفى هذه الروايات برز كل فنان من أفراد الفرقة فى الشخصية أو الشخصيات التى تلائمه، وكانت لكل فنان أو فنانة لياليه الخالدة..

أحمد علام فى شخصيته القاسية فى رواية «كوبرفيلد». وعلام إنسان مثقف واسع الاطلاع، لا يكف عن قراءة روائع الأدب العالمى، وأذكر أنه كان معجبًا بالأدب الروسى بصفة خاصة.. ومع أن علام اشتهر أخيرًا بالأدوار العاطفية الرقيقة مثل دور «مجنون ليلى» إلا أنه فى الواقع يبدو أكثر امتيازًا فى أدوار الرجل القوى منه فى أدوار العاشق المحطم الضعيف.

وفاطمة رشدى الفتاة المجتهدة التى لم تكن تترك ـ نسختها من الرواية التى تمثلها إلا لحظة دخولها المسرح.. لا تكف عن الحفظ التمرين والتجربة. وهى تتألق عادة فى دور القوية الإرادة العنيفة، التى تناضل دون ما تريد..

ولست أدرى ما الذى جعل فاطمة رشدى تعتزل المسرح.. وتترك فيه هذا الفراغ الكبير، وأنا شخصيًا لا أذكر أنى رأيتها منذ خمس عشرة سنة تقريباً.

وأمينة رزق التى كانت فى أول عهدها برمسيس تلميذة رائعة.. لا تترك الكواليس، محدقة فى المسرح، تكاد تلتهم التمثيل والممثلين التهامًا.. مختزنة فى أعصابها تجارب التمثيل وطرق الأداء والتعبير. وكانت تتفوق فى أدوار الفتاة الرقيقة، المشوبة العاطفة، السريعة التأثر.

وزينب صدقى فى دور «بلانشت» الفتاة المتأففة التى تعلمت تعليمًا راقيًا فى الجامعة، ثم عادت إلى بيئتها الريفية.. فهى كارهة لهذه البيئة غير راضية عنها. وقد كانت موفقة فى هذا الدور جداً.

أما يوسف وهبى فإن دوره فى رواية «الذهب» أو «كوبرفليد» يعتبر فى نظرى من أخلد أدواره.. وهذا اللون الشاذ من الشخصيات هو أكثر ما يناسب يوسف من ألوان.

وأخيراً حسين رياض الذى لا يبارى.. إن هذا الرجل يكاد يكون الوحيد بين أبطالنا الذى يؤدى أدوار الكوميدى والدراما بنفس الامتياز. ولا أكاد أعرف بين أبطالنا من يجاريه فى الأداء الطبيعى.. أنك لتراه على المسرح كأنه فى بيته، الذى اعتاد عليه منذ عشرات السنين.. ضاحكًا أو حزينًا على حد سواء.. ولا أنسى له دور الضابط الروسى «ميكالوف» فى رواية «نتاشا».. وهو دور زوج عنيف غيور.. ولا دوره فى رواية «المقنعة» الذى أحرز فيه الجائزة الأولى للتمثيل التى أنشأتها وزارة الاشتغال فى هذه الأيام.

ثم حلت بفرقة رمسيس ـ فى نفس هذا الموسم ـ أول ضربة عنيفة هزت سمعتها فى السوق الفنية.. وكانت هذه الضربة نتيجة لأن يوسف بدأ يستبد بالرأى، ويصبح دكتاتوراً فى الفرقة.. يخرج من يشاء ويدخل من يشاء بغير استشارة مخرج الفرقة على الأقل.

فقد انضم الأستاذ جورج أبيض ومعظم أفراد فرقته القديمة إلى أسرة رمسيس، وتقرر أن يقدم جورج وممثلوه رواية: «سيرانو دى برجراك» وهى رواية تحتوى على حوالى ستة عشر منظراً.. وتحتاج تبعًا لذلك إلى أداء محكم سريع، واستعداد فنى كامل لتغيير المناظر فى وقت قصير.

ولكن مسرح رمسيس لم يكن يضم هذا الاستعداد الضخم الذى تحتاج إليه الروايات التاريخية، خصوصًا إذا كانت كثيرة المشاهد مثل رواية "سيرانو دى برجراك" .. كذلك دفعت الظروف الفرقة إلى التعجيل فى تقديمها، مما أدى إلى عدم إعطائها فرصة الاستعداد كاملة.. فكانت النتيجة أن استمر تمثيل الرواية فى الليلة الأولى من الساعة التاسعة مساءً حتى الساعة الرابعة فى الفجر..

ونام الكثيرون فى الصالة منكمشين من البرد، فلما خرجوا وجدوا الصباح قد أشرق، والمدينة بدأت تستيقظ.

وفى اليوم التالى اجتاحت القاهرة موجة من الطلاق بسبب هذا الحادث الفنى الفريد.. فكم من زوجة لم تصدق زوجها حين جاء إليها مع الفجر وأقسم لها إنه كان فى المسرح!!. وكم من زوج لم يصدق أسرته التى أرسلها إلى المسرح فى التاسعة فعادت إليه مع الصباح.

كانت هذه الحادثة كما قلت بمثابة ضربة عنيفة هزت سمعة المسرح الفنية. ولم تعد الفرقة تجد بدًا من أن تعيد من حين لآخر تمثيل روايات «غادة الكاميليا» و«فيدورا» و«المجنون».

ولم تعد الممثلة الأولى راضية عن أدوارها التى يعطيها لها يوسف ليختنق مجدها الفنى فيها. وبدأت تشعر أن جدران هذا المسرح تهتز، وأن الأرض تميد تحت الأقدام.

الفصل العاشر

- نظرية النزول إلى مستوى الجمهور.. خاطئة!.
- مناحة مسرحية اسمها «الذبائح!».
- النحاس يشهد مسرحية الوداع..

بدأ الفشل يزحف على فرقة رمسيس مع بداية الموسم الثالث لها. وتجمع الطفيليون حول يوسف كما يتراكم الفراش يتملقون صاحب المال، كل واحد يريد أن يظفر بنصيب.

وكانت الضربة التالية التى أصيبت بها فرقة رمسيس هى نظرية النزول إلى الجمهور التى ظهرت فى أفق الفرقة واتخذها يوسف ـ حتى اللحظة ـ شعارًا له.. ونزلت الفرقة إلى الجمهور بتقديم روايات باللغة العامية، بل السوقية، وما كان ذلك فى الواقع نزولاً إلى الجمهور ـ فالجمهور كان يقبل على الروايات الفصيحة الجيدة مادامت مكتوبة بلغة سهلة ـ بل كان ذلك لأن الأداء باللغة العامية أسهل، لا يكلف كثيراً من التدريب، والإتقان، والتمرس بالإلقاء.

ثم نزلت الفرقة مرة أخرى بتقديم روايات الفواجع المبالغ فيها. وكلما زاد انصراف الناس عنها كلما ارتفع صراخ رواياتها وزادت

بشاعة حوادثها، وأسرفت فى إثارة المتفرجين، حتى فاقت كل حدود المعقول.

وكان خلاف الممثلة الأولى مع يوسف الخلاف الذى أدى إلى تركها رمسيس، كان بسبب رواية من روايات الفواجع هذه اسمها «الذبائح» واسم الرواية وحده كاف لكى يعطى للقارئ فكرة عن أهوالها. وقد ألفها مؤلف اسمه أنطون يزبك.. وكان أنطون يزبك هذا قد سبق وألف لفرقة جورج أبيض رواية اسمها «عاصفة فى بيت» جمع فيها كل ما استطاع أن يجمعه من عواصف. فلما أتى ليوسف برواية «الذبائح»، ورأى يوسف ما فيها من إسراف هائل، أعجبته، وقرر أن يخرجها فوراً. وبدأ التدريب عليها تحت إشراف المؤلف نفسه بطريقة الإدلاء المبالغ فيها أيضًا، الطريقة التى قامت فرقة رمسيس للقضاء عليها، فكنت تجد الزوج مثلا يصرخ بصوت مروع فى زوجته قائلا لها: روحى وأنت طالقة بعدد شعر رأسك.. بعدد رمال الصحراء.. بعدد السلالم اللى حتنزلى عليها.. إلى هذه المبالغات الكلامية، والإلقائية التى ليست من الفن فى شىء..

ولا أسترسل فى الحديث عن هذه الرواية.. ولكننى أنقل للقراء فقرات من مقال كتبه الأستاذ الكبير محمد التابعى يعلق به عليها فى مقال نشر فى ٢ نوفمبر ١٩٢٥ وكان الأستاذ التابعى فى ذلك الوقت متخصصًا فى النقد الفنى، قال:

«الأستاذ والروائى الكبير أنطون يزبك ليس فى حاجة إلى أن نقدمه لرواد المسارح.. فالكل مدينون له أما بالبكاء وأما بالتشنج! طلع فى العام الماضى على عالم التمثيل برواية عاصفة فى بيت».. وقد كفت «عاصفة» واحدة لا تجعل من الأستاذ يزبك مؤلفًا

مسرحيًا يشار إليه بالبنان.. وها هو قد تقدم هذا الموسم بقصة أخرى وهى «الذبائح»..

«ولست أنوى أو ألخص القصة.. وإنما أريد أن أشير فى إيجاز إلى نفسية المؤلف بعد أن شهدنا له قصتين.. أكبر ظنى أنه وهو يكتب لا يسعى إلى إرضاء الفن وحسب، ولكنه يسعى أيضًا إلى التأثير على الجمهور، فإذا اصطدمت أسباب الغرضين لم يتردد كثيرًا فى تضحية الفن فى سبيل العرض الثانى وهو التأثير على الجمهور! يريد دائمًا أن يهز أعصاب الجمهور هزًا عنيفًا، وهو فى ذلك قاس لا يعرف رحمة ولا شفقة.. ومثلت "الذبائح" وكان للمؤلف ما أراد ! أبكت الجمهور وراجت تجارة المناديل وأقلقت راحة جمعية الإسعاف!»

ثم يقول: «الذبائح إن هى إلا مناحة قائمة كل من فيها صارخ باك لاطم يشق الجيوب!.. ليس فى القطة - إذا استثنينا ليلى - شخص واحد نحبه أو نحقد عليه أو نرثى لحاله أو نحتقره.. مهارة من المؤلف، فليس فى وسع كل كاتب أن يؤثر عليك بشخصيات كهذه طعمها ليس بالحلو ولا بالمر! ما الذى فعله «همام باشا» حتى نحبه؟ وأى ذنب جناه حتى يقتله المؤلف بيد «نورسكا» وأى يد له فى انتحار ابنه «عثمان»؟ لأنه تزوج من امرأة أخرى غير أمه؟ لو صح هذا السبب لكان عدد المنتحرين أكثر من عدد المواليد! إن روميو لم ينتحر لما استحالت عليه رؤية جوليت ولكن «عثمان» لما أخبروه أن ليلى مسافرة إلى طنطا انتحر.. قبل السفر!.. وإذا ارتفع سبب انتحار عثمان عن كاهل همام باشا انتفت التهمة الأخرى وهى "جنون ليلى" لأنها لم تجن إلا لموت عثمان!»

وهذا بعض ما قاله الأستاذ التابعى!

هذه الرواية هى التى خرجت من أجلها الممثلة الأولى من الفرقة..

فقد كان فى الرواية بطولتان نسائيتان إحداهما شخصية سيدة أجنبية، والثانية شخصية سيدة مصرية، وأراد مؤلف الرواية أن يعطى الممثلة الأولى دور السيدة الأجنبية، وأرادت هى أن تمثل دور السيدة المصرية. ولم يكن ذلك؛ لأنها ترى أن هذا الدور أكبر من سواه –فقد كان الدوران متعادلين تقريبًا ـ ولكنها أرادت فقط أن تنجو بنفسها بقدر ما تستطيع من الفواجع والأهوال التى تزدحم بها المسرحية، فتمسكت بدور السيدة المصرية لكى تقلل نصيب هذه الشخصية من هذه المبالغات التى لا علاقة لها بالفن. ولكن المؤلف تمسك بأن تترك هذا الدور تمسكًا غريبًا وتابعه فى ذلك صاحب الفرقة. وأفهموا السيدة أمينة رزق الممثلة الأولى لا تتمسك بهذا الدور إلا لأنها لا تريد لأمينة أن تظهر أو تلعب دورًا رئيسيًا فى إحدى الروايات. وكان هذا غير صحيح. فلم يكن من دأب الممثلة الأولى أن تحاول الطغيان على أحد. وهى قد تركت لزينب صدقى مرة فى رواية "بلانشيت" دور البطلة ولعبت دور الأم، صارفة همها إلى أن تنجح زينب وهى على أول درجات المجد. كما أن الممثلة الأولى كانت دائماً تحب أمينة رزق، وتعتقد أن لها مستقبلا زاهرًا على خشبة المسرح وهى إذ تسترجع اليوم هذا الماضى، تؤمن بأن بطولة «الذبائح» قد جنت على أمينة أكثر مما أفادتها، إذ دفعتها إلى مبالغات الحزن التى يأخذها النقاد عليها أحياناً.

وبالرغم من ذلك كله فقد تمسك صاحب الفرقة برأى المؤلف، وهو إذ انتهى من فرض إرادته المطلقة على كل شىء فى الفرقة، لم يبق إلا أن تخضع الممثلة الأولى أيضًا وأصبح على الممثلة الأولى أن تتخذ قرارًا حاسمًا. فهى إما أن تركن نهائيا إلى إرادة صاحب الفرقة وتقبل زوال مجدها تدريجياً وإما أن تترك الفرقة كلها.. إما أن تخرج متحفظة بالشهرة التى وصلت إليها، وإما أن تبقى حتى تتهدم هذه الشهرة مع انهيار المسرح الذى بات قريبًا.. وكان من رأيها دائما أن الفنان يجب أن يترك المسرح قبل أن يتركه المسرح.. وأن من يبنى مجده درجة يجب ألا يفرط فيه، ولا يترك نفسه يهبط السلم الذى صعده.. وهو الشىء الذى لا يؤمن به - مع الأسف - الكثير من فنانينا..

وتركت فنانتنا الفرقة.. وسافرت فى عطلة إلى باريس. أما الفرقة فمضت تتوالى عليها الضربات.. دب الخلاف بين الممثلين والممثلات وانقلبت روح التعاون التى أقامت صرح هذا البناء إلى روح من الخصومة والمشاحنات مزقت كيانها واصطدم يوسف أيضًا بفاطمة رشدى، وكان عزيز عيد قد أحبها وتزوجها فخرجت فاطمة وعزيز ليكونا فرقة مستقلة.. وكان ذلك ضربة أخرى عنيفة للفرقة.. ومضى هذا الشمل البديع يتبدد ويتفرق.

وبدأ النقاد يكتبون عن الفرقة مقالات أقرب إلى رثاء الموتى أختار منها مقالاً كتبه الكاتب الكبير الأستاذ إبراهيم المصرى فى مجلة التمثيل فى ١٠ إبريل ١٩٢٤ قال فيه:

لم يكن يخطر على بالنا ونحن الذين شاركنا أصحاب مسرح رمسيس فى فكرة تكوين دراهم أن نفاجأ منهم يوما بمثل هذه

الأمثلة الضعيفة التافهة من الروايات التى تقوم عليها الآن حياتهم، ويستدرون منها ربحا يفوق بمراحل قيمتها من الوجهة الفنية البحته كنا نشاطرهم آمالاً كباراً ونعلق عليهم صفوة أمانينا.. وكانوا عند حسن ظننا بهم فأتحفوا البلد بالسبعة روايات الأولى التى بذلوا من أجلها قصارى جهدهم فشاهد شعبنا وثبة فنية حقه كان فى وسعهم إبلاغها أوج الكمال، لولا رواية حقيرة جوفاء شوهت ذلك الإطار البديع إلا وهى «المجنون» اقتباس وجمع يوسف بك وهبى.

لم تكن هناك إدارة فنية منظمة ولا لجنة مشكلة لفحص الروايات، فمال مدير المسرح يوسف بك وهبى لقبول ما كان قائمًا على أدوار مميزة كبيرة يمثلها هو أو كان مفعمًا بضروب التهويش والذعر.. غير عابئ بقيمة الرواية فنيًا ولا باتفاقها مع مزاج جمهورنا ونفسيته.

وكان يوسف بك وهبى قد أخذ قسطه من الشهرة التمثيلية بواسطة إعلانه عن نفسه وتوخيه القيام بأدوار كبيرة ليست أدواره، فلم يكتف بذلك، بل اشرأب عنقه مبتغيًا مجداً آخر هو مجد التأليف. فحشد جميع وسائله الأمريكية المستحدثة فى ضروب الإعلان. وهرع إلى مختلف السينما توغرافات مستقيًا منها موضوعاته، فأخرج لنا أسخف ما أبرزته المسارح المصرية من الروايات «كالدم» و«انتقام المهراجا» مبرهنًا على سعة اطلاع نادرة فى التهكم بذهنية كل مستنير فى البلد وجسارة مدهشة رائعة فى العبث بحقوق الجمهور!

«هذه خلاصة ما آلت إليه كل تلك الجعجعة الفنية التى صدعوا بها آذاننا.. وهم سائرون فى طريق غوايتهم يسوقهم شيطان

الكبرياء وتستحثهم فوضى النقد غير عابثين بشيء سوى الشهرة الطنانة والنفع المادى».

انتهى كلام الأستاذ إبراهيم المصرى.

لم تعش إذًا فرقة رمسيس كفرقة ناجحة محترمة ذات سمعة رفيعة إلا ثلاث سنوات. أما السنوات التى عاشتها بعد ذلك لا تحتسب فى عمرها، فقد فقدت الفرقة اسمها القديم.

ونزلت الفرقة إلى الجمهور كما شاء صاحبها حتى هبطت عن الجمهور ووصلت إلى التراب.. وباتت تلجأ إلى طرق الفاشلين.. كأن تبيع حفلاتها للمتعهدين ويبيع المتعهدون تذاكرها بالمساومة وبأسعار مختلفة.

تلك هى قصة رمسيس. فإذا سأل القارئ بعد ذلك ما السر الأول فى انهيارها، لقلت له: إنه استبداد صاحب الفرقة بالرأى. وقد يبدو ذلك فى عين القارئ أمرًا بسيطًا لا يزعزع بناءً شامخًا. ولكنه الحقيقة.. فنظام التعاون والتآخى غير نظام الاستبداد. فى الأول يشعر كل فرد بأن الفرقة فرقته، ويساهم كل فنان بخبرته، فى الناحية التى يتقنها، ومن الجدل الحر والتآزر يمكن الوصول إلى الحلول السليمة. أما نظام الاستبداد فهو يركز الخبرة والعبقرية والاهتمام فى فرد. ويصبح الباقون تابعين له إجراء عنده فقط لا غير.. والفرد يخطئ، ويميل، ويتعثر، وفى اعتزاز المستبد يرفض المشورة والرأى أو الاعتراف بالأخطاء.

إن هذا الاستبداد قد عصف بالشعوب والحكومات.. فما بالك بفرقة تمثيلية؟

وقد أرجع الأستاذ يوسف وهبى نهاية فرقة رمسيس إلى ارتفاع نفقات رواياتها مما أدى إلى إفلاسه وفقده لثروته.. وهذا غير صحيح. فلم تكن روايات رمسيس تزيد فى نفقاتها على غيرها من الروايات. وقول يوسف إنه أفلس وفقد ثروته يخالفه الواقع المشهور.. فقد أنشأ يوسف بعد إغلاق فرقة رمسيس شيئًا يسمى «مدينة رمسيس» مدينة كبيرة فيها المسارح ودور السينما والمقاهى وشتى الألعاب.. فهل الإنسان الذى يفلسه مسرح صغير كمسرح رمسيس. ينشئ مدينة ضخمة كهذه المدينة.

وبعد مدينة رمسيس هذه، اشتهر يوسف بمشروعات تجارية أخرى كمدينة الفيلات التى أقامها فى شارع الهرم. مشروعات لا يقدم عليها مفلس أبدا..

ثم إننا إذا صدقنا يوسف، فهو على الأقل قد استرد ماله بعد هذا الإفلاس المزعوم. فلماذا لم يحاول أن ينشئ مسرحًا محترمًا يحمل اسمه.. أهو المال.. أم هو الفن؟

إننى أخشى أن يكون الأخير. ذلك أن الفن الجيد هو الذى أقام رمسيس والفن الردىء هو الذى أغلق أبوابه، وقد قال لى الأستاذ يوسف مرة: إنه لو خسر نقوده التى ورثها لانتحر وهو ـ كما يعلم القراء ـ لم ينتحر إلى الآن.. والحمد لله.

وفى باريس تلقت فنانتنا رسالة من الأستاذ محمد التابعى يدعوها إلى العودة، لأن نجيب الريحانى يكون فرقة للتمثيل الدرامى ويريد أن يعهد إليها بالبطولة، وأرسل إليها مع الخطاب عقدًا مكتوبًا لتوقعه.. وعادت الفنانة، وانضمت إلى فرقة الريحانى.

ولكنها لم تبق فى الفرقة أكثر من أسبوعين. فهذا الرجل قد خلق للكوميديا لا للدراما وقد كان يقف على خشبة المسرح فى الموقف المحزن فيضحك الناس.

واعتزلت فنانتنا المسرح.. ومضت تسع سنوات حتى جاءت سنة ١٩٣٤ ووقع حريق كبير التهم قرية محلة زياد.

وكان الحريق كارثة أليمة شمل الحزن عليها القطر المصرى كله. وتسابق الناس للتبرع لإعادة بناء القرية. ودعا الرئيس السابق مصطفى النحاس - وكان فى المعارضة - كل أنصاره إلى التبرع والمساهمة. وكانت فنانتنا قد أصبحت من أنصاره المقربين. فقررت أن تمثل «غادة الكاميليا» ليلتين متواليتين يخصص دخلهما لمساعدة القرية المنكوبة.

وتطوع كل أبطال «غادة الكاميليا» القدامى للتمثيل فى هاتين الليلتين، عدا الأستاذ يوسف وهبى، فقام أحمد علام بدور أرمان وقام بإخراجها الأستاذ زكى طليمات، وأقبل الناس على شراء تذاكرها المرتفعة الثمن إقبالا ليس له نظير.

وحضر مصطفى النحاس ومكرم عبيد والنقراشى وغيرهم من زعماء الوفد الحفلة الأولى.. فخرج النحاس متحمسًا جدًا، يناقش إخوانه فى طريقة تحول هذه المجموعة إلى فرقة دائمة وجلس فى الصفوف الأولى للمتفرجين الزملاء محمد التابعى ومحمود أبو الفتح وغيرهم من الصحفيين، وقد وضعوا أيديهم على قلوبهم. والتابعى يردد خائفًا: يا ترى الأستاذة حتعرف تمثل بعد الاعتزال الطويل؟!

وكانتا ليلتين خالدتين.

وبين زملائها القدامى علام وحسين رياض وزينب صدقى ودولت أبيض وغيرهم.. وبين تصفيق هذا الجمهور المختلط من أهل الفن وأهل السياسة تركت فنانتنا للمرة الأخيرة. خشبة المسرح!

الفصل الحادى عشر

- النقد الفنى.. أيام زمان..

- حين ضربت بديعة مصابنى أحد النقاد.

أظن أنه من حق النقاد الفنيين على ـ قبل أن أختم حديثى عن أيام الفن ـ أن أتحدث عنهم.. وقد كان لهم فى النهوض بفن التمثيل دور كبير لا يقل عن الدور الذى نهض به الممثلون والمخرجون وأصحاب الفرق.

وقد كان التمثيل المسرحى فى ذلك الوقت يحظى باهتمام كبير. لم تكن هناك سينما ولم تكن فنون الرسم وهكذا تركز النشاط الفنى كله تقريبًا فى التمثيل المسرحى الجدى.. واتجه النقاد والأدباء كلهم تقريبًا إلى الكتابة عن المسرح.

وكانت كل جريدة أو مجلة تفسح للمسرح صفحة أو صفحات، وتخصص كاتبًا من كتابها اللامعين للنقد المسرحى كان الأستاذ التابعى يكتب عن المسرح فى «الأهرام» بتوقيع «حندس» والأستاذ إبراهيم المصرى يكتب فى مجلة «التمثيل» والأستاذ محمود كامل المحامى فى جريدة «السياسة». ومحمد على حماد فى «البلاغ»

وزكى طليمات فى «المقطم». وعبد المجيد حلمى فى «كوكب الشرق».. وظل الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الأسبق زمنًا يكتب عن الفن فى «روز اليوسف» أول صدورها، كما كان الأستاذان إبراهيم عبد القادر المازنى ومحمد توفيق دياب يكتبان أيضًا عن المسرح من حين لآخر.

وأذكر أن الأستاذ توفيق دياب كان عائدًا لتوه من إنجلترا حيث كان يتعلم فن الإلقاء.. وكان يذهب إلى المسرح كل ليلة.. ويخرج آخر الليل مع الطائفة الممتازة من الممثلين والممثلات، وقد نامت المدينة، وخلت الشوارع من العابرين.

فيمضى معهم وهو يلقى عليهم نماذج من الخطب بالإلقاء الذى تعلمه، أو يقف ـ فى الشارع أيضًا ـ يؤدى قطعًا من روايات شكسبير.. باللغة العربية حينا والإنجليزية أحيانا.. وصوته الجهورى يتردد فى جنبات الشوارع الهاجعة.

وكان لكل ناقد طريقته فى النقد، وفى الحياة، وفى الشخصية.. عبد المجيد حلمى أكثرهم حرارة وتطرفًا، لا يخفى سخطه أو رضاه حتى على أبسط الأشياء.. دخل يوما حجرة إحدى الفنانات فى المسرح فوجد فى أرضها قشر فستق ملقى، فخرج غاضبا وكتب مقالا طويلاً عما يجب أن تكون عليه حجرات الفنانات ! وقد أخرج مجلة خاصة أسماها «المسرح».. ولم يكن أحد يتصور أن هذا الإنسان المتحمس أن حبا وأن كرها يحمل فى صدره مرض السل، فلم يلبث أن صرعه، ومات فى عمر الزهور.

ومحمد التابعى بأسلوبه اللاذع فى الصحافة والحياة.. لا ينقطع عن التشنيع على الممثلين والممثلات وابتكار الأسماء الساخرة لهم..

دون أن يكرهه أحد منهم بالرغم من كل شيء ثم هو سخى مسرف ينفق ما فى الجيب ليأتيه ما فى الغيب... مولع بحضور المآدب الحافلة، ودفع الحساب فى نهايتها، حتى آخر مليم فى جيبه. وقد دعته الفنانة الأولى يومًا إلى العشاء بعد نقاش حاد حول نقده لإحدى المسرحيات.. لكنه فى نهاية العشاء أصر على أن يدفع هو الحساب وكان مبلغًا ضخمًا فى تلك الأيام ـ ١٥٠ قرشًا ـ ويبدو أنها كانت آخر مائة وخمسين قرشا فى جيبه، فقد اختفى من اليوم التالى حوالى أسبوعين، بعد أن نشر نص المناقشة الحامية فى جريدة «السياسة».

ومحمود كامل المحامى، الذى كان طالبًا فى كلية الحقوق بمظهره الوقور.. وحبه الشاب للظهور.. وقد كان ذات مرة حديث الموسم، إذ اقترض من صديق ثرى سيارته المكشوفة الفاخرة، ودعا فنانة معروفة إلى الغداء ـ سميط وبيض وجبن ـ على أرض حديقة الأورمان.. تمامًا كما كان يفعل التلاميذ.. ثم طاف الشوارع جالسًا بجوار الفنانة المعروفة فى السيارة الفارهة. يباهى الزملاء.. وأنى أراه الآن أحياناً يجوب القاهرة فى سيارة فاخرة.. مملوكة له حقا.. الا يتمنى الصديق محمود كامل أن يعود إلى الوراء ثلاثين عامًا؟؟

أما الأستاذ إبراهيم المصرى، فهو الناقد الجاد.. الذى يعالج الحياة الفنية كلها معالجة مخلصة عميقة.. وقد ألف جمعية سماها «جمعية الأدباء» مكونة من ثلاثة أو أربعة من الأدباء كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى قهوة الفن.. وعلى مائدة قريبة منهم الأستاذ التابعى يطلق حولهم التشنيعات والفكاهات.

ولا شك أن الأستاذ يوسف وهبى كان بين المشتغلين بالفن صاحب أوفى نصيب من حملات النقاد. ويوسف فى الوقت نفسه ضيق الصدر جداً إزاء النقد.. لا يطيق المناقشة.

كتب الأستاذ التابعى مرة مقالاً طويلاً فى ٢٣نوفمبر ١٩٢٥حول هذه الصفة فى يوسف فقال:

«... وقبل أن أتكلم عن التمثيل أود أن أوجه كلمة إلى سيد رمسيس: يا ابن الشمس وأخا البدر! قد تكون إلها، ولكنك لست إله التمثيل كما ينادى عبيدك المقربون، ولست أيضا بطل التمثيل فى الشرق لأن الشرق واسع وعماد الدين شارع ليس إلا! أنت تخطئ وتصيب. تجيد أحيانًا وأحيانًا لا تجيد. فليتسع صدرك لقولنا، أخطأت كما أنت تبتسم لقولنا أحسنت ! الناقد يكتب بيده لا بيدك. بعقليته لا بعقليتك فإن ظفر بالأمس فى تمثيلك كاتب فلماذا لا تؤمن بحسن نيته وبأنه كتب ما يعتقد، وقد يقوم غدا فيمدحك فى دور آخر.

لست أعنى نفسى ولما أتشرف بالكلام عنك كممثل، ولكنى أعنى زملاء لى نالهم شىء كثير من سلاطة وبذاءة أنصارك ومأجوريك! خفف الوطأ يا صديقى وخف مادحك أكثر مما تخاف ناقدك! قد أعجب بك اليوم كممثل ومقتبس وقد أقوم غدا فى قصة أخرى فأذم الاثنين ! أإذا أعجبت بك كنت ناقداً عالمًا، وإذا لم أعجب كنت ناقداً جاهلاً مغرضاً.. أليس كذلك بأية عقلية تفكرون؟!.

وكان إبراهيم المصرى لا يرحم يوسف ولا يترك أخطاءه بلا نقد، وبلهجة عنيفة.. كتب مرة فى مجلة «التمثيل» (٢٦يونيو ١٩٢٤) يقول:

«هناك يا سيدى فن آخر غير فنون التهويش والذعر والقاذورات التى تتبطن رواياتك. هناك فن يقوم على الفكر الباحث السامى. والتصوير الناقد الصادق. والإصلاح الصاخب الهادم. هناك فن يبعث الشعوب من مرقد العدم ويستنهض أشلاء الآمال. ويرسم خطة العمل اليومى.. ويسير بالتطور كجيل هائل نحو تكوين مدنية عصرية جديدة هى الغرض الذى من أجله نعيش وفى سبيله نفكر ونتعلم ولكن روحك هى أبعد ما تكون عن مثل الجمال العليا.. وعقلك هو لا أثر فيه للثقافة كى يفهم قيمة الفن فى الدنيا أنت من نسور المعاملات لا يستثيرك سوى المغنم الوقور، فكيف تريدنا على أن نضع بين يديك صفوة أيامنا فريسة لأطماعك وجشعك».

وبأسلوب أقل قسوة، كتب محمود كامل فى «السياسة» (٢١ ديسمبر١٩٢٤) يقول:

لرمسيس ـ أحياناً ـ ولع بإخراج القصص الشعبية التى تدخل إلى القاعة لمشاهداتها فلا تخرج بنتيجة اللهم إلا فزعًا من المواقف العنيفة التى تتخلل القصة أو دويًا يظل محتلاً أذنيك من تصفيق جمهور النظارة الساذج وهو واقع تحت سلسلة قاسية من انفعالات المؤلف فى قصته.

«نعم لم يزل جمهورنا صغيراً فى تفهم الفن الصحيح. فى التفكير الهادئ والبحث الفلسفى أو قل إنه كعضو الجسم الذى برد إحساسه ولا يؤثر فيه إلا نغز الإبر. ولا أصلح لذلك النغز من الأنواع البوليسية والجرانجنيول والميلودراما والتى أرى أن صاحب رمسيس قد نبغ فيها نبوغًا صفق له الجمهور وهلل.. لا بأس فلترض ـ إلى درجة ما ـ ذلك الجمهور.. ولكنى آمل أن يكون بجانب هذا شىء آخر».

أما محمد على حماد فكانت له مع يوسف قصة طريفة، فقد حدث فى أول عهد يوسف بالتمثيل بعد عودته من إيطاليا أن قال له زكى طليمات ـ وكان زكى هو الكاتب الوحيد الذى يدافع عن يوسف فى المقطم ـ قال له: إن كل فنان كبير هنا يجب أن يقول ـ للدعاية ـ إنه تلميذ فنان أوروبى.. وجورج أبيض تلميذ سيلفان.. فيجب أن تختار اسم ممثل كبير تقول فى الإعلانات أنك تلميذه..

وضرب يوسف رأسه.. وذكر اسم الممثل الإيطالى الكبير كيانتونى.. وانطلقت الإعلانات تقدم يوسف باسم «تلميذ كيانتونى».. ثم حدث بعد ذلك أن نشرت الصحف أن كيانتونى آت فى زيارة لمصر.. وأرسل محمد على حماد ـ وكان يصدر مجلة اسمها «الناقد» ـ مندوبا قابل كيانتونى فى الإسكندرية، وسأله هل كان يوسف وهبى تلميذا له حقًا فقال كيانتونى أنه لا يذكر هذا الاسم.. وأنه لا يذكر أن أحدا من المصريين تتلمذ عليه فى أى وقت!..

ونشر محمد على حماد التصريح: مهاجمًا يوسف. ويوسف كما قلت بارع فى الدعاية.. فأسرع إلى كيانتونى يدعوه إلى النزول فى ضيافته طوال مدة إقامته ويضع سيارته تحت تصرفه ويحيطه بهالة ضخمة من الحفاوة والترحيب، وكسب يوسف الرجل، وظهر أمام الجمهور فى مظهر تلميذه الحقيقى!!

وعلى صفحات الأعداد الأولى من «روزاليوسف» لمع قلم محام شاب، كان يتمرن على المحاماة فى مكتب الرئيس السابق مصطفى النحاس، ويمارس الكتابة والنقد الفنى فى «روزاليوسف».. ذلك هو السياسى الفنان الدكتور محمد صلاح الدين.. وكان الدكتور صلاح

الدين يتجه فى نقده عادة إلى الموضوعات الفنية العامة دون التعرض لفرق أو روايات معينة..

كتب مرة فى عدد ٢٦ أكتوبر ١٩٢٥ من «روزاليوسف» يقول:

أما الجمهور فإنه لا يهتم فى أمر التمثيل بأكثر من أن يتلمس فيه لنفسه تسلية أو لهوًا، ولذلك راج عنده سوق التهويش على الفن والتهريج باسمه والتطفل عليه وكان أحب الممثلين إليه من يرتدى العباءة والتاج ويضع السيف ويخرج زاعقًا من أغوار فؤاده ملوحًا بيمينه مشيرًا بيساره محركًا رأسه كالمسلوب..

«أما الممثلون فأكثرهم مغرور دعى لا يعرف قدر نفسه ولا يسكن عند مواهبه. ويتطلع دائما إلى الأدوار التى لا تناسب استعداده لمجرد الحرص على أن يقال إن فلانًا يعهد إليه بأدوار الأبطال.. ويهرب دائماً من الأدوار الثانوية وإن كان صالحًا لها..».

ولم تكن هذه المعارك النقدية تنتهى دائمًا على خير.

هاجم الأستاذ عبد الرحمن نصر مرة السيدة بديعة مصابنى فتربصت به فى أحد الأماكن وهاجمته على حين غرة وأعطته «علقة» ساخنة.

وهاجم محمود كامل يوسف وهبى مرة فاعتدى عليه عمال مسرح رمسيس وأمر يوسف وهبى بحرمان النقاد من تذاكر الدعوة.. واجتمع النقاد وقرروا مقاطعة المسرح مدة طويلة.

وهام أحد الكتاب بالسيدة فاطمة رشدى.. فلما رفضت فاطمة هذا الهيام، شن عليها حملة عنيفة.. ولم تمض أيام حتى قابلته فاطمة صدفة فى أحد الشوارع فأغرقته بفيض من الشتائم على مشهد من الجميع.

ولم يكن كل الكتاب الفنيين ـ بالطبع ـ يكتبون لوجه الله. بل كان هناك ـ كالحال فى كل مهنة ـ من يكتبون للارتزاق والكسب غير الشريف.. وقد قرأت الفنانة الأولى ذات مرة نقدًا عنيفًا لها فى "الكشكول".. فدعت الناقد المتحمس إلى العشاء لتختبر صدق قلمه. فخرج الناقد بعد أن التهم الطعام ليكتب مقالاً من المدح العريض! ولكن سخافات هذا النوع من النقاد لا تشوه رسالة النقد ودوره فى نهضة المسرح فى ذلك العهد..

فبالنقد، وبالتوجيه، تتضح العيوب.. ونتعلم من الأخطاء ونمضى إلى الأمام..

ولا أختم حديثى عن أيام الفن أيضًا قبل أن أوجه إلى المسئولين كلمة صغيرة عن الفرق الحكومية.

فقد وصلت الفرقة المصرية التى مضى على تكوينها ما يقرب من العشرين عاما إلى حالة يرثى لها. ولم يشفع لها عند الجمهور أنها مازالت تضم نخبة الأبطال الراسخين.. فأعرض الناس عنها، والحكومة هى المسئولة الوحيدة عن هذه الحال بغير شك، فقد كان الوزراء المتعاقبون يعاملونها معاملة سائر مرافق الحكومة الأخرى.. يتدخلون فى شئونها ويميزون بعض الممثلات وبعض الممثلين. تغضب ممثلة على دورها فتذهب إلى الوزير.. ويتدخل الوزير موصيًا لها بدور آخر.

وأذكر أن الأستاذ نجيب الهلالى كان وزيرًا للمعارف أول تكوين الفرقة القومية. وأرسل إلى يسألنى رأيى فيما يجب أن تكون عليه هذه الفرقة. ولم يأخذ الأستاذ الهلالى بالرأى الذى أبديته له فى

ذلك الوقت، ولكننى مازلت مصرة عليه، بل أن تجربة الفرقة المصرية زادتنى اقتناعا به.

إننى أقترح حل الفرقة المصرية وفرقة المسرح الحديث، بالفن. فهى الكفيلة أن تقف فى وجه الموجة الطاغية وتختار من بينهم فرقة واحدة جديدة.. حوالى ١٥ ممثلا وعشر ممثلات. تعطيهم الدولة مرتبات كبيرة نظير امتناعهم عن الاشتغال بالسينما. وتجعل لهم أسهمًا فى رأسمال الفرقة ونصيبًا بقدر الأسهم من أرباحها. على أن تقتصر الفرقة على تقديم الروايات الراقية من الدرام والكوميديا الأخلاقية مما يفتقده الناس فى السينما المصرية وعلى ألا يكون للوزارة من السلطة على الفرقة أكثر من الإشراف المالى فقط.. وهذا التنظيم يشبه النظام الذى تسير عليه فرقة «الكوميدى فرانسيز» أقوى الفرق المسرحية فى فرنسا. ويستطيع المسئولون أن يرجعوا إليها للإحاطة بالتفاصيل. ومثل هذا التنظيم سيكون أكثر إنتاجًا وأقل نفقة مما هو عليه الآن.

ولتتكون من باقى الفنانين فرق أهلية تتنافس مع هذه الفرقة وتمدها الحكومة بإعانتها.

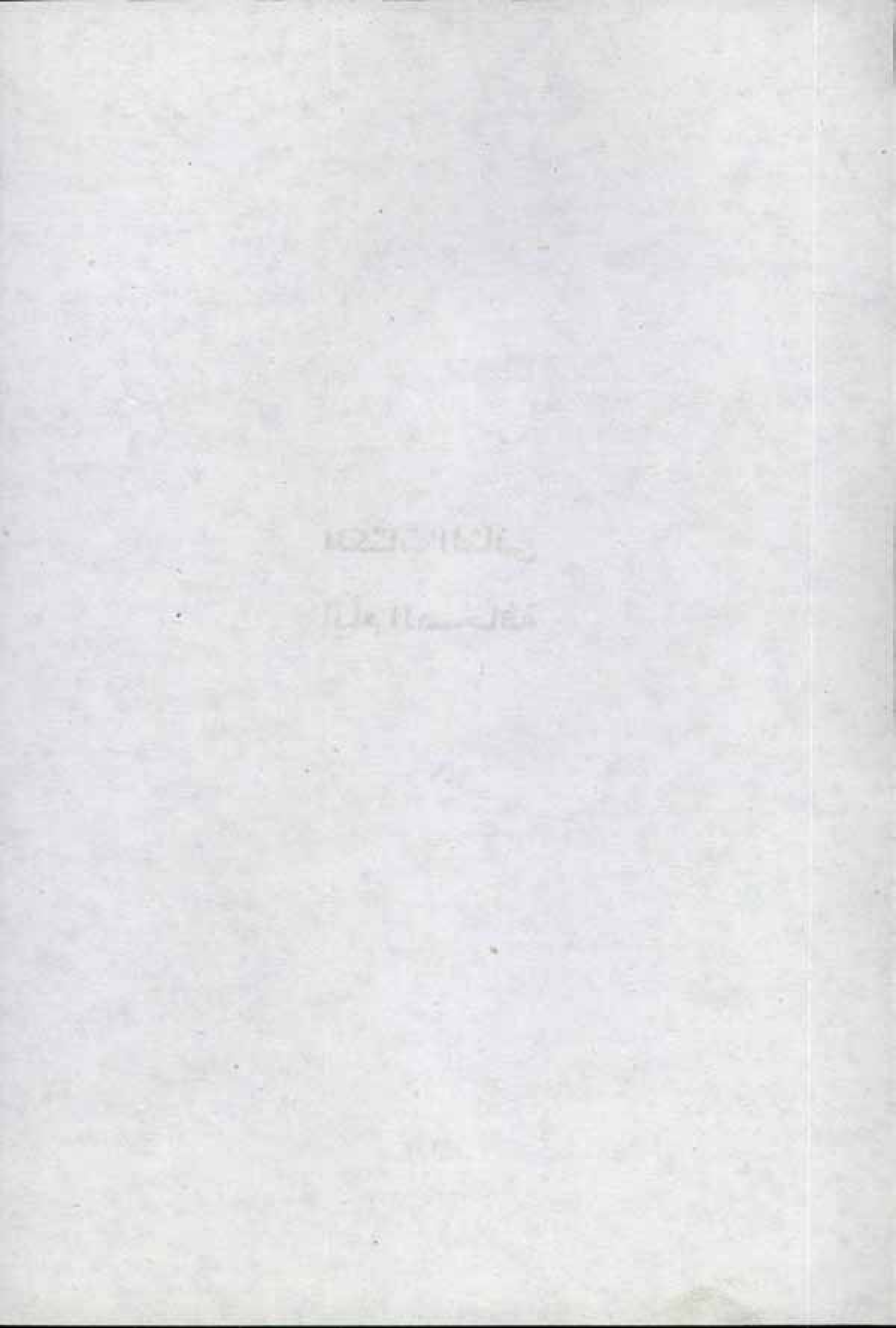
وبغير ذلك فسوف تظل الفرق الرسمية عالة على الحكومة عاجزة عن أداء مهمتها، تضم ما يقرب من ٣٥ ممثلاً وممثلة لا يقدمون إلى الفن المسرحى شيئًا ملموسًا.

ولابد أيضًا أن تعود الأقلام البارزة إلى اهتمامها القديم بالفن: فهى الكفيلة أن تقف فى وجه الموجة الطاغية من كتابات الدعاية والإعلانات. وهى الكفيلة أن تحذر الجماهير من البضاعة الرديئة

وترشده إلى البضاعة الجيدة... وأن تكشف له التهريج الزائف فلا يسيء إلى الفن الصحيح.

الكتاب الثانى

أيَام الصحافة



الفصل الأول

- **كيف نبتت فكرة إصدار «روزاليوسف»؟...**

- **على من يشترك فى التحرير أن يصعد ٩٥ درجة!**

- **الدكتور صلاح الدين ينظم الشعر الغزلى الرقيق!**

لم تكد ذكرياتى عن أيام الفن تقترب من نهايتها، حتى بدأ أبناء «روزاليوسف» يطالبوننى بنشر ذكرياتى عن أيام الصحافة. وأبناء «روزاليوسف» كلهم من الشبان الثائرين تلمع الثورة فى عيونهم وعلى أسنة أقلامهم.. ليس بينهم من زملائى أبناء الجيل القديم إلا اثنان: إبراهيم خليل حارس الخزانة وعدو المحررين اللدود، والحاج حسن رئيس عمال الجمع والخطيب المفوه الذى مرت عليه ٢٨عاماً دون أن يتغير لا أراه إلا وأذكر يوم جرب موهبته الخطابية لأول مرة حين زار مصطفى النحاس المجلة سنة ١٩٢٨.. فجمع الحاج حسن أولاده ومساعديه ووقف يخطب فيهم خطبة حماسية رائعة..

ومع أنى من هذا الجيل القديم، إلا إننى لا أحب الاعتراف بذلك أبداً، فأنا اليوم ما أزال ثائرة كأول أيام الشباب حين كنت أتحمس لسعد زغلول وأنشر المقالات النارية ضد الإنجليز. وكل من حولى

من الشباب الثائرين الذين لا يكفون عن التطلع إلى الأمام، والمطالبة بالمزيد. وثورة «روزاليوسف» الدائمة وشبابها المتجدد هما أبرز مزاياها.. على أن ثورة أبنائها هذه المرة كانت ضدى. تطالبنى بألا أتوقف عند آخر أيام الفن، وأن أمضى بلا توقف إلى أيام السياسة.

وذهبت أستنجد من هؤلاء الأبناء الثائرين برئيسهم إحسان وقلت له: هذه قصة أريد أن أتركها لك ترويها يومًا بقلمك وأنت تستطيع بعدى أن تروى بحرية الحوادث السياسية الحساسة التى لا أحب أن أعرض لها الآن. ولكن إحسان وقف على رأس الفرقة الثائرة ضدى. وقال لى: إذا كنت مصممة على ألا تقولى كل شىء، فليس معنى ذلك أن تسكتى عن كل شىء.

ولم أجد بدا من أن أطيع رغبة هؤلاء الأبناء.. كما تفعل آخر الأمر كل أم.

ومضيت أستعرض فى مخيلتى ثمانية وعشرين عامًا من الأحداث السياسية.. من السير والوصول.. من الهزيمة والنصر. وكان غريبًا ـ فيما يتعلق بالسياسة ـ أن أجد الروايات التى مثلت على مسرحها طيلة ٢٨ عامًا تكاد فى الواقع أن تكون رواية واحدة.. قد يتغير الأبطال والمخرجون، ولكن الرواية هى هى، والخاتمة التى تنزل عندها الستار لا تتغير..

أما قصة إصدار «روزاليوسف» فقد رويتها مرة من قبل منذ سنوات بعيدة. ولكنى أرى من واجبى أن أرويها لشباب الجيل مرة أخرى.. فهى ـ قبل كل شىء ـ قصة تصميم وإصرار وصبر. ما أحرى أبناء هذا الجيل أن يتعلموه.

نبتت فكرة المجلة فى محل حلوانى اسمه «كساب» كان يوجد فى المكان الذى تشغله الآن سينما ديانا، وكنت جالسة ساعة العصر مع الأصدقاء محمود عزى وأحمد حسن وإبراهيم خليل، نتحدث عن الفن.. وتطرق الحديث إلى حاجتنا الشديدة إلى صحافة فنية محترمة ونقد فنى سليم يساهم فى النهوض بالحياة الفنية ويقف فى وجه موجة المجلات التى تعيش على حساب الفن كالنباتات الطفيلية.. ولمع فى رأسى خاطر وقفت عنده برهة قصيرة، ثم قلت للزملاء بعد هذه البرهة من الصمت: لماذا لا أصدر مجلة فنية؟

ألقيت الفكرة على الزملاء فأخذوا يحملقون فيها مدهوشين وكانت اللهجة التى تكلمت بها كافية لإقناعهم بأننى جادة ولم يكن بيننا من له اتصال بالصحافة إلا إبراهيم خليل الذى كان يعمل فى جريدة "البلاغ" ويصاهر صاحبها المرحوم عبد القادر حمزة.. فسألته: كم يتكلف إصدار ثلاثة آلاف نسخة من مجلة "ملزمتين" على ورق أنيق؟.

وأخرج إبراهيم خليل ورقة وقلمًا وأجرى حسبة بسيطة، قال لى بعدها: ١٢ جنيهًا !! .. ثم أعمل قلمه فى الورقة مرة أخرى وقال: فإذا بيعت النسخ كلها كان صافى الربح فى العدد الواحد.. خمسة جنيهات.

وبدا لى الأمر قريبًا ممكنًا. فالمبلغ ليس باهظًا كما كنت أتوهم، والثرى الوحيد فينا هو أحمد حسن الذى كان يملك بضعة قراريط، يبيع منها كل حين قيراطا ينفق منه بسخاء، ويبدو فى مظهر الوجهاء. فهو يستطيع أن يمول العدد الأول إن صحت حسبة إبراهيم خليل.

وطرحت على الزملاء سؤالا ثانيًا: ماذا نسمى المجلة؟

وتوالت المقترحات بالأسماء الأدبية والعلمية والفكاهية. وللمرة الثانية فاجأتهم باقتراح غريب: لماذا لا نسميها: «روزاليوسف»؟.

وكنت جادة فى هذا الاقتراح أيضًا، فهذا هو الاسم الذى اشتهرت به وعرفه الناس، وهو اسم عزيز على أحب أن أضعه على عمل كبير أقدمه إلى هؤلاء الناس الذين تعلقوا به.. ومع أننى أرجح أن الزملاء جميعا لم يكونوا مقرين لهذا الاقتراح، الا أنهم لم يجدوا بدًا من الموافقة.

وانفض المجلس وانصرفنا متفرقين.. وأغلب الظن أن كل واحد من الزملاء ترك هذه الفكرة عند باب المحل، معتقدا أنها لا تعدو بعض أحاديث المجالس، أما أنا فقد قضيت ليلتى ساهرة، منتبهة الأعصاب، تعصف بى المشاعر المتفاوتة وتخطف الآمال فى صدرى كالبروق..

ومع الصباح الباكر كنت فى مكتب إبراهيم خليل بجريدة «البلاغ» أملأ استمارة رسمية بطلب رخصة. ثم فى وزارة الداخلية لأقدم الاستمارة بنفسى.. بين الدهشة البالغة للموظفين..

وفى نفس اليوم بدأت أتصل بأول المحررين الذين سيشتركون معى فى إصدار المجلة. الصديق محمد التابعى.

وكان التابعى ـ فى ذلك الوقت ـ موظفًا فى مجلس النواب. ويكتب النقد الفنى لجريدة "الأهرام" وعلمت أنه فى الإسكندرية ـ وكان الوقت صيفًا ـ فاتصلت به تليفونيًا أدعوه للحضور للاشتراك فى تحرير مجلة «روزاليوسف» ... ولم يصدق التابعى، وأخذ

يحاورنى ويظننى أسخر منه أو أدبر له مقلبًا، ولكنه لم يجد آخر الأمر بدًا من أن يحضر إلى القاهرة.. ويشهد بعينيه!

ولم أنتظر حتى أتلقى الترخيص من وزارة الداخلية.. فأسرعت أذيع فى الصحف نبأ صدور المجلة.. واستدعانى محمد بك مسعود مدير المطبوعات فى ذلك الوقت ليحاسبنى على هذا التصرف.. فقلت له: إننى غير مسئولة عن تلكؤ الوزارة فى منح التراخيص.

وتلقيت الترخيص فى خلال أسبوع..

وكنت فى ذلك الوقت أسكن فى شارع جلال بيتا يملكه المرحوم الشاعر أحمد شوقى.. فى شقة مرتفعة فقررت اتخاذها مقرًا مؤقتًا للمجلة.. وكان معنى ذلك أن كل من يشترك فى تحرير المجلة عليه أن يصعد ٩٥درجة من درجات السلم الطويل، قبل أن يصل إلى الإدارة.

وبدأنا نعمل لإصدار العدد الأول بكل ما فى أجسادنا.. وأعصابنا من قوة.. حتى انطلق الباعة ذات صباح يصيحون «روزاليوسف».. «روزاليوسف»!

وبصدور العدد الأول أصبحت المجلة حقيقة واقعة.. أصبحت كائنًا حيًا أحرص عليه. وأقسم على أن يعيش وينمو بأى ثمن، وكانت المشاكل التى قفزت أمامى بعد صدور العدد الأول أكبر جدا مما توقعت.. فقد تبين أن الحسبة التى رسمها لنا إبراهيم خليل كانت كالبلاغات الرسمية لا أساس لها من الصحة.. والتكاليف الحقيقية قد تعدت الاثنى عشر جنيها بكثير.

ثم تبين أن المتعهد لا يرد ثمن بيع المجلة إلا بعد أن يتسلم العدد التالى. وكنا فى نفس الوقت محتاجين إلى هذا الثمن لكى نصدر العدد الثانى.. بعد أن أنفقنا على العدد الأول كل ما نملك.

وبدا الموقف أول الأمر مشكلة لا تقبل الحل.. حتى نبتت فكرة توزيع اشتراكات.

وطبعنا الدفاتر بسرعة وبدأنا التوزيع وكنا نصطدم فى توزيع الاشتراكات بمصاعب لا تقدر. فمن الناس من كان يرفض الاشتراك فى مجلة فنية، ومنهم من كان لا يصدق أنها ستوالى الصدور ولن تغلق أبوابها بعد عددين أو ثلاثة.. وأذكر الآن بين من عاوننى فى توزيع الاشتراكات الدكتور محمد صلاح الدين والممثل الكبير الأستاذ زكى رستم ـ ولم يكن قد اشتغل بالتمثيل بعد.. وأذكر أيضًا أن الآنسة أم كلثوم دفعت اشتراكًا وأخذت بقية الدفتر لتقوم بتوزيعه على أصدقائها..

وتوالت الأعداد فى الصدور..

واستطعنا أن نجمع فى الأعداد الأولى مقالات لعدد لا بأس به من كبار الكتاب فى ذلك الوقت مثل إبراهيم عبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد وإبراهيم رمزى ومحمد لطفى جمعة وزكى طليمات وحبيب جاماتى وأحمد رامى.

وقد لا يعرف الكثيرون أن الدكتور صلاح الدين أيضًا كان شاعراً.. وكان ينشر أبياتًا من الشعر الغزلى الرقيق تحت عنوان: «العواطف المنظومة».. أنقل منها:

أخاف عينيك أن تستهدفا كبدى

فانثنى عنك هجرا ولا مللا

وأستشير فؤادى فى هواك فلا

يحيد عنه ولا يرضى به بدلا

دافعته عن عذاب الحب مجتهدا

فصد عن كلمات النصح واحتملا

وشاء أن يتمادى فى ضلالته

وأن يبيع عليك الصبر والأملا!

وكان هؤلاء الكتاب والشعراء جميعا يكتبون بغير أجر.. ألا أن يساهموا فى إقامة بناء مجلة للأدب والفن، أما نحن أسرة التحرير الأصلية، فقد كنا نعمل أيضًا بلا مكسب ولا أجر.. وبلا راحة أيضًا.. وكنت أقتر على نفسى وأستغنى فى حياتى عن الضروريات لكى أوفر للمجلة قروشًا تعينها على الصدور..

كان التابعى لا يسير إلا وقد انتفخت جيوبه بالكليشهات بين الورشة والمطبعة وإبراهيم خليل يقطع عشرات الكيلو مترات على قدميه وراء الاشتراكات والإعلانات. وكان إعلان الصفحة الكاملة لا تزيد قيمته على خمسين قرشًا! وكان الصباح يشرق على أنا والتابعى فى مطبعة «البلاغ» نسلم المقالات ونأخذ البروفات، ثم نأخذها إلى مقهى قريب ـ مكان بار الأنجلو حاليا ـ حيث نجلس.. يطلب التابعى كأس زبيب بخمسة عشر مليمًا.. وأشاركه أنا فى التهام «المَزة» فإذا لم تكف المَزة لطعامنا ـ بعد الاشتباك مع

الجرسون لإقناعه بزيادة كميتها ـ أرسلنا نشترى ساندويتشات الفول.. الواحد بقرش تعريفة.. وفى أثناء ذلك يتم تصحيح البروفات ثم نعود بها إلى المطبعة.

كنا فى تلك الأيام شبابا، صحتنا جيدة وقدرتنا على المقاومة كبيرة. كنت أتغدى بساندويتش فول وأقطع على قدمى المسافات الطويلة.. ثم لا أشعر فى غمرة حماستى بتعب أو إرهاق. بل أجد الحياة المليئة بهذا النوع من الجهاد خصبة جميلة ! لم نكن مثل هذا الجيل الجديد الذى يخرج إلى الدنيا ضعيفًا مدللاً، خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه!

كان يطوف بى الخاطر أحيانا فى الصباح الباكر. الساعة الخامسة أحيانًا. فلا أطيق الانتظار، وأدق التليفون للتابعى فى الفندق الذى يقيم فيه. ولم يكن التابعى فى ذلك الوقت مترفًا يسكن حجرة فيها تليفون، فكان خدم الفندق يوقظونه من نومه ويخرج بالبيجاما إلى حيث يوجد التليفون ليسمع ما أقوله له: وكان فى هذه الساعة عادة يسرع بالموافقة على أى شىء أقترحه، لكى يعود ويحاول استئناف النوم قبل أن يطير..

وأذكر أننا جلسنا يوما نتبادل الشكوى وقد كلت أقدامنا من السير الطويل.. بين الإدارة فى بيتى ومكتب التابعى فى مبنى البرلمان والمطبعة بالقرب من شارع شريف. وكان ركوب السيارات وعربات الحنطور يكلف ميزانية المجلة ما لا تطيق. فقررنا ألا يدخن جميع أفراد أسرة التحرير إلا سجاير «صوصه» التى كانت توزع مع كل علبة «كوبون» وكل من يدخر عددًا معينًا من الكوبونات يستبدلها بهدية يختارها.. ومضت أسرة التحرير تدخن سجاير «صوصه»

وتحتفظ بالكوبونات.. واحتجت إلى مجهود كبير لأقنع التابعى بأن يترك السجاير الفاخرة التى يدخنها ويدخن سجاير «صوصه» كالآخرين.. حتى اجتمع لنا عدد نستطيع أن نأخذ به دراجة. وكانت الدراجة هى أول وسيلة للمواصلات اقتنتها المجلة.. وكان يوم حصولنا عليها يومًا عظيمًا.. وأصبح يتبادلها التابعى وإبراهيم خليل.. التابعى يذهب بها إلى المطبعة وورشة الكليشيهات وإبراهيم خليل يبحث بها عن الاشتراكات والإعلانات.

وأسأل نفسى الآن قبل أن أمضى فى سرد هذه الذكريات المتفرقة: ما الصعوبة الكبرى التى واجهتنى فى إصدار المجلة، وكان على أن أجتازها؟

لم تكن هذه الصعوبة الكبرى فى المال القليل. ولا الجهد المضنى، ولا سوق الصحافة الضيق. بل كانت تتلخص فى أننى.. سيدة!

فمنذ ثمانية وعشرين عامًا لم يكن من حق المرأة أن تدخل ميدان الحياة العامة، لم يكن المجتمع يعترف بها إلا جارية تضع على وجهها الحجاب، وكان اقتحام ميدان الصحافة بالذات أمرًا صعبًا جديداً على الرجال. فما بالك بالنساء؟ وفى هذا الجو كان على أن أمضى.. أن أتحمل مسئولية عمل يحمل اسمى.. أن أشن الحملات وأتعرض للهجوم المضاد أن أرأس مؤسسة كل من يعمل فيها رجال.. أن أذهب لمقابلة رجال هم أمام الناس وزراء وكبراء ولكنهم ـ فى حقيقتهم ـ ليسوا إلا رجالا لا يعرفون عن النساء إلا أنهن لهو ومتاع.

كانت هذه فى واقع الأمر مشكلة المشاكل. وكان على أن أجتاز

الفصل الثانى

- الداخلية ترفض تحويل «روزاليوسف» إلى مجلة سياسية!
- بشارة واكيم والقاضى الإنجليزى فى محاكمة ماهر والنقراشى.

قلت إن «روزاليوسف» صدرت أول أمرها مجلة فنية، ولكنها كانت مجلة للفن الرفيع والأدب العالى الذى لا تعرفه سوق الصحافة اليوم.. كان ورقها من الورق الأبيض الفاخر موادها مقالات للكتاب والفنانين الكبار فى أدق موضوعات الأدب العالمى. صورها لوحات فنية خالدة لرافاييللو ودافنشى.. وكان طبيعياً أن تعانى مجلة من هذا النوع هبوطاً مضطرداً فى التوزيع. وبين أفراد أسرة التحرير تنشب الخلافات زكى طليمات يتمسك بالأدب العالى ويطالب بالاحتفاظ بشكل المجلة.. والتابعى لا يكف عن السخرية بهذا الأدب العالى والتذكير بأرقام التوزيع الهابطة.. ومع كل صباح يحمل إلى البريد خطابات من القراء تفيض بالاحتجاج على مقالات الفن المجرد.. مطالبة بأن تصنيع «روزاليوسف» كغيرها من المجلات فتدخل الكواليس وتنقب عن الأسرار الشخصية، وتذيع الفضائح الفنية.

وكان لابد إزاء ذلك من تغيير. تغيير ينشط التوزيع وينزل إلى مطالب الناس قليلا دون إسفاف أو ابتذال. وغيرنا ورق المجلة فأصبحت تصدر على ورق الصحف المعروف. وخفضنا السعر إلى خمسة مليمات، وهو السعر الشائع فى ذلك الوقت ونشرنا إلى جانب اللوحات الفنية صوراً للممثلين والممثلات وبدأت الأبواب الخفيفة تظهر هنا وهناك، وفى مقدمتها باب كان يكتبه الأستاذ التابعى بعنوان «طورلى»..

وكنت بعد هذا التخفيف مازلت مصرة على أن تحتفظ المجلة بكبريائها.. فلا تعرض بالتجريح لأحد، ولا تنال بالشتائم من مخلوق.. وفى ذلك أيضًا كان يخالفنى الأستاذ التابعى الذى كان يريد أن يطلق لقلمه الساخر العنان فيدمى ويصيب حتى أنه كتب كلمة فى باب «طورلى» عن هذا الخلاف بعنوان «صاحبة المجلة وصاحب الطورلى» قال فيها:

خصصنا هذه الصفحة كما أعلنا فى رأسها للحديث عن العظماء والصعاليك.. وسوف أتكلم اليوم عن صاحبة المجلة وعن نفسى، وللقارئ أن يسمينا عظماء أو صعاليك كما يشاء!

تأمرنى بأن أكتب وأن أملأ صفحة بشرط ألا أعرض بأحد أو أسب أو أمدح أو أقدح أو أتملق أو أنتقد أو. أو. ثم تقول لى: وفيما عدا ذلك فأمامك الميدان فسيح فاكتب ما تشاء!

أكتب ما أشاء! وماذا أبقت لى لأكتب عنه؟ تقوم بيننا المناقشة ـ وهى دائمًا حادة تبدأ من «القرار» وترتفع إلى «جواب السيكا» ـ فإذا طالت المناقشة ورأت هى إقفالها عمدت إلى طريقتها الخاصة

فى الإقناع وهى أن تنظر بعين إلى أكبر وأضخم قاموس على المكتب ثم تنظر إلى وهى تحرك يدها بحركة عصبية! فإذا لم تفلح هذه الطريقة فى الإقناع عملت إلى النشافة أو الدواية أو أى شىء آخر مما يكون قريبا إليها.

«خبرونى من ذا الذى لا يقتنع أمام هذه الأدلة الثقيلة.. وهكذا تنتهى المناقشة دائما بانتصارها وانهزامى ! ثم أكتب!».

ومع أن هذا التغيير فى خطة المجلة رفع توزيعها إلى تسعة آلاف نسخة - وهو رقم لا بأس به فى تلك الأيام - إلا أن المجلة ظلت من ناحية لا تكاد تأتى بنفقاتها، وظلت من ناحية أخرى دون ما أريده لها من القوة والمستوى.

كانت تحمل على غلافها كل مرة صورة إحدى الفنانات وتحتها سطور من الزجل للأستاذ محمود رمزى نظيم. وأكثر موادها مترجمة، عن قصص تاريخية أوروبية أو مقتطفات من الصحف.. فيما عدا مقالات النقد الفنى المصرية ومرة أخرى اجتمعت أسرة المجلة: التابعى وإبراهيم خليل وأحمد حسن ومحمد عزى وأنا نبحث عن طريقة للخروج بالمجلة من هذا الركود.

ولم تكن الآمال المحلقة فى جو الاجتماع كبيرة. حتى أن محمود عزمى طرح علينا اقتراحًا هو أن نكتفى بما أصدرناه وأن نعلن توقف المجلة عن الصدور.

ولكنى رفضت مناقشة هذا الاقتراح ولم يكن ممكنًا أن أسلم بتوقف المجلة مهما كانت الظروف والصعاب، وقد ثرت عليه ثورة عنيفة رغم ما بدا من لهجة الهزل فى اقتراحه.. ومرة أخرى فاجأتهم بفكرة غريبة: لماذا لا نجعلها مجلة سياسية.

نعم.. فكرت فى أن تصبح «روزاليوسف» مجلة سياسية فالمجلات الفنية سوقها محدود بالضرورة وقد بدأت منذ سنوات أهتم بالسياسة وأسعى إلى حيث يخطب سعد زغلول لأسمعه؛ وأقرأ تطورات الحركة الوطنية وأنفعل، وأتحمس لكل مظاهرة تنطق فى الشوارع هاتفة بالاستقلال التام، وخروج الإنجليز.

وفى الصباح التالى، كنت فى وزارة الداخلية مرة أخرى أطلب إضافة السياسة إلى الترخيص الصادر للمجلة.

وكانت الفترة التى قررت فيها تحول «روزاليوسف» إلى مجلة سياسية من أيام مصر العصيبة.

كانت الحياة البرلمانية فى مصر تتعرض لأول نكسة عنيفة تصيبها. فقد انتهز الإنجليز فرصة مصرع السردار وأخرجوا سعد زغلول من الوزارة ووضعوا فى مقعد الرئاسة بدلا منه زيور باشا. وأعلن زيور باشا حل مجلس النواب الأول الذى لم يتم من العمر إلا دورة واحدة. وجاء بإسماعيل صدقى وزيرًا للداخلية ليجرى له انتخابات جديدة. ولما اجتمع البرلمان الجديد تبين أن الأغلبية فيه لا تزال وفدية تؤيد سعد زغلول، فأعلن حل البرلمان الجديد بعد انعقاده بساعات.. وعاشت مصر بلا دستور ولا برلمان ولا حريات.

واشتد الصراع بين سعد زغلول وجماهير الشعب من جهة وبين الحكومة المسلحة بالحديد والنار من جهة أخرى. وكان الوفديون يتحايلون بشتى الطرق للحصول على رخص جديدة يصدرون بها صحفًا جديدة تستأنف المعركة..

ومن الحيل التى لجأ إليها الوفديون أن جعلوا السيدة منيرة ثابت تتقدم طالبة الترخيص لها بجريدة عربية باسم "الأمل" وأخرى فرنسية باسم «لاسبوار».. ولم يدر بخلد الوزارة أن السيدة منيرة ثابت ستعطى الرخصتين للوفد.. فتصدر الجريدة الفرنسية بإشراف جورج دومانى سكرتير سعد، والجريدة العربية بإشراف عبد القادر حمزة.

وأذكر أن مجلة «المصور» نشرت فى ذلك الوقت صورة السيدة منيرة ثابت على الصفحة الأولى قائلة إنها أول مصرية تدخل ميدان الصحافة. وذهبت أنا إلى الزميل الأستاذ إميل زيدان أطلب منه نشر صورتى باعتبارى سابقة لها فى دخول ميدان الصحافة ولكنه رفض، بل ورفض نشر صورتى كإعلان للمجلة نظير أجر. ولست أدرى إلى اليوم سر هذا الموقف.. إلا إذا كان الأستاذ إميل زيدان قد أراد ألا يعتبرنى مصرية.

فلما طلبت السماح لى بتحويل "روزاليوسف" إلى مجلة سياسية، ظنت الوزارة الداخلية أن الوفد يستتر ورائى أيضًا فرفضت الطلب. وذهبت إلى وكيل وزارة الداخلية ـ حسن رفعت ـ فرفض أيضًا، بعد أن عجزت عن إقناعه بأنه لا صلة لى بالوفد على الإطلاق..

ولم أكن مستعدة للتخلى عن حلمى بسهولة.. فذهبت لمقابلة أحمد زيور رئيس الوزراء: وكان رحمه الله رجلاً طيباً جدًا، من طراز لم تشهد المناصب مثله. كانت الدنيا تثور من حوله وهو لا يهتم. قد تهتف المظاهرات باسمه، وتطالب الجماهير بدمه، وتنسب إليه الصحف أعنف الاتهامات. ولكنه يظل فى عالمه الخاص لا يشهد المظاهرات، ولا يهتم بالجماهير. ولا يقرأ الصحف قط! وكان إذا قيل له إن جريدة تهاجمه قال: خليها تاكل عيش..

ذهبت إليه محتجة، مطالبة بإعطائى الترخيص الذى أريد ودهش جداً حين علم أن الوزارة تمنع الترخيص بإصدار الصحف السياسية!.. واستدعى حسن رفعت ليقول له كلمته الخالدة: أعطوها الترخيص.. خلوها تاكل عيش.

وانصرفت والترخيص فى جيبى شاكرة الله على طيبة قلب رئيس الوزراء!

وقد رأيت زيور باشا مرة واحدة بعد ذلك بسنوات وكنت قد ذهبت إلى ميدان سباق الخيل لعمل صحفى فوجدته جالسًا على أريكة كبيرة مسترخيا بجسده الضخم. لا تعرف أهو نائم أم يقظان. واقتربت منه فسمعته يدندن بلحن غير مفهوم وجلست بجواره وحييته فرد تحيتى، دون أن يظهر عليه هل يعرفنى أم لا. وأردت أن أحدثه فلم أجد فى ذاكرتى شيئًا يمكن أن يهتم به. ولم يكن قد سبق لى أن راهنت على الجياد ولكننى سألته آخر الأمر. على أى جواد أراهن!.

وقال لى أيضًا وهو بين اليقظة والمنام: «ورد الشام».

وفعلا ذهبت وراهنت على «ورد الشام» هذا.. وكسب «ورد الشام» هذا الشوط أصبحت «روزاليوسف» إذًا مجلة سياسية.. دخلت ميدان السياسة وحيدة لا يسندها حرب ولا يمولها حاكم ولا يدبج لها المقالات كاتب سياسى قديم.

وفى أول الأمر احتفظت المجلة بطابعها وشكل غلافها ونوع المواد فيها. عدا الأبواب السياسية التى أضيفت إليها والتى كان يحرر معظمها الأستاذ حبيب جاماتى بإمضاء «رقيب».

أما الصديق الأستاذ التابعى، فقد تعبت معه حتى أقنعته بأن يجرب قلمه فى الكتابة السياسية. كان يحدث أن يجىء مقال الأستاذ حبيب جاماتى أقصر من الحيز المخصص له، فأطلب من التابعى أن يتمم الفراغ بتعليق سياسى.. وهنا يصرخ ويحتج ويرفض الاقتراب من بحر السياسة بإباء وشمم.

ولكن مناقشاتنا كانت تنتهى كما قال «بانهزامه وانتصارى» فيكتب كلمة قصيرة فى السياسة تدل - رغما عنه - على استعداد سياسى ممتاز!

وهكذا بدأ التابعى يكتب فى السياسة من يونيو سنة ١٩٢٦ أما أنا.. فمازلت أذكر أول عمل قمت به فى الصحافة السياسية. وكان ذلك بمناسبة حادث من أبرز حوادث التاريخ المصرى الحديث.

ففى مبنى المحكمة القائم فى ميدان باب الخلق، كانت تجرى محاكمة المرحومين أحمد ماهر والنقراشى بتهمة تكوين عصابة قامت باغتيال السردار وغيره من الإنجليز. وكان هناك منهم ثالث يقف معهما فى قفص الاتهام اسمه جاد الله.. وكانت النيابة تطلب الحكم عليهم بالإعدام. أما الدفاع فكان ينهض به عدد كبير من المحامين الوفديين على رأسهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد. وكان معروفًا أن سعد زغلول يشترك فى تحضير الدفاع، فى سهرات طويلة تعقدها هيئة الدفاع فى بيت الأمة.

ولم يكن الإنجليز يريدون من هذه المحاكمة رقبتى ماهر والنقراشى فحسب بل ودمغ الوفد كله بالتآمر والجريمة. بإدانة عضوين بارزين فيه.. لذلك كانت هذه المحاكمة تسير فى خط واحد مع الجهود التى تبذلها السراى ووزارة زيور لإبعاد الوفد عن الحكم.

وقررت أن أحضر جلسات المحاكمة وأكتب عنها فى «روزاليوسف». وفعلا حضرت سبع جلسات متواليات منها.. وكتبت مقالاً طويلاً عنها قارنت فيه بين القاضى «كرشو» ـ وكان القضاة إنجليزا ـ وبشارة واكيم فى إحدى الروايات التى مثل فيها دور القاضى، وأبديت عدة ملاحظات على الدفاع وهاجمت شاهد الإثبات الأول فيها ـ وكان إنجليزيا اسمه «إنجرام» ويشغل وظيفة حكمدار بوليس الإسكندرية.. وتساءلت عن السبب الذى يصر من أجله على الإجابة فى المحكمة باللغة الإنجليزية رغم ما هو معروف من إتقانه التام للغة العربية..

هذه الجلسات مازالت ماثلة فى ذاكرتى إلى الآن.. مازلت أذكر المتهم جاد الله وهو جالس يداعب المسبحة ويصيح: صلوا على النبى ويبصق على الأرض. والنقراشى صامت جامد كان هذا الذى يدور فى الجلسة لا يعنيهُ وأحمد ماهر، ثائر، ملتهب، لا يكف عن الاعتراض والاشتباك مع الاتهام والشهود فى مناقشات عنيفة.

وحين صدر الحكم بالبراءة اقتربت من قفص الاتهام وصافحت ماهر والنقراشى مهنئة.. فكانت أول معرفتى بهما وحملتهما الجماهير على الأعناق كما حملت مصطفى النحاس ومكرم عبيد وسائر أعضاء هيئة الدفاع إلى بيت الأمة.. وكنت معهم أضطرم حماسة.. وفى بيت الأمة وقف سعد يخطب!..

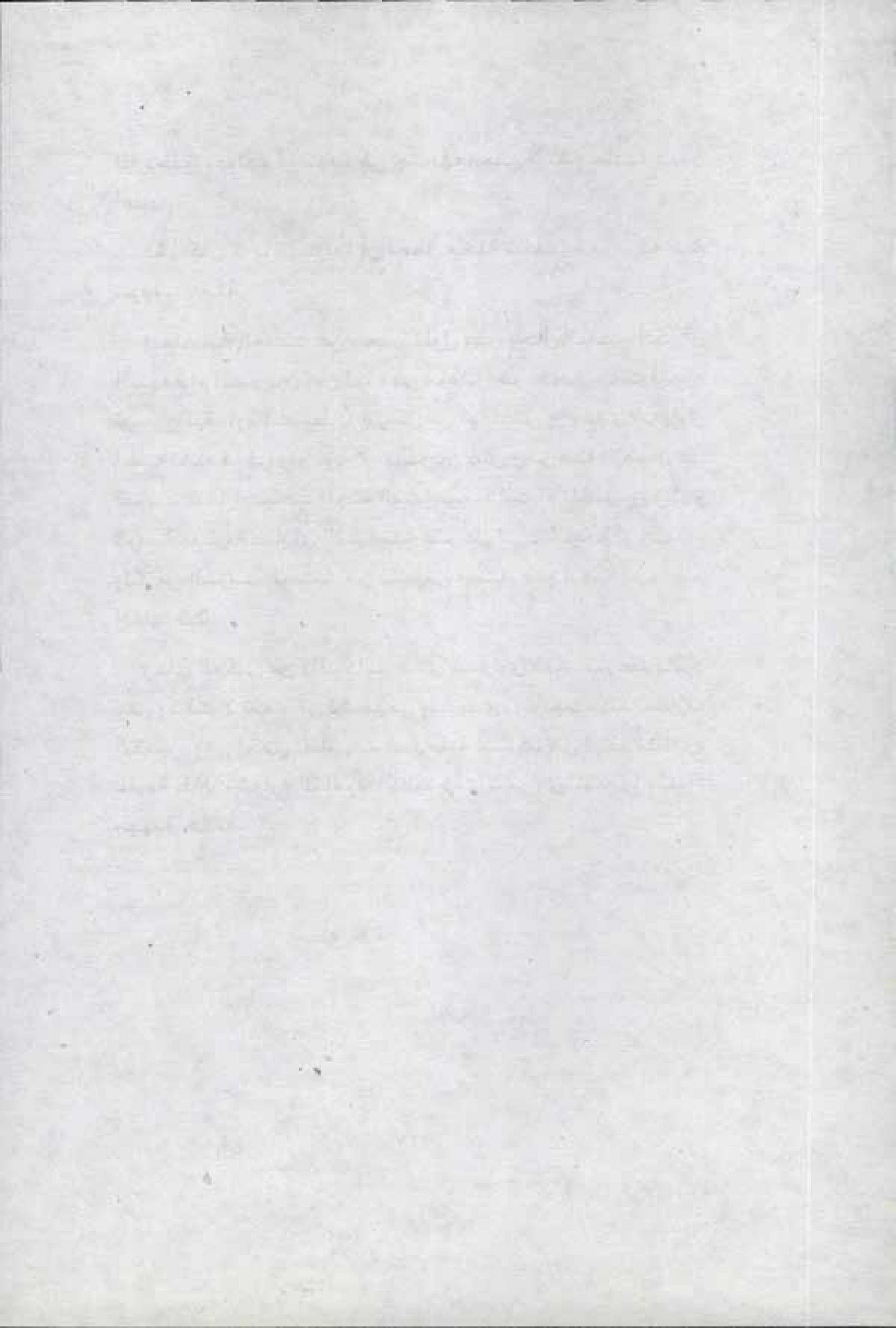
وشيئًا فشيئًا أخذ ميل المجلة إلى سعد زغلول يظهر.. وهجماتها على الإنجليز وأصدقائهم من المصريين تشتد. وبدأ سعد زغلول يسأل عن المجلة ويهتم بها، ولكننى لم أقابله قط. وبدأ سائر أعضاء الوفد الكبار يقبلون على قراءتها.. ويترقبون صدورها، ولكنهم كانوا

إذا دخلوا بيوتهم أخفوها فى جيوبهم، حتى لا تقع عليها عيون أهليهم.

فقد كان لا يزال غريبًا أن تحمل مجلة سياسية مرموقة اسم سيدة.. وفنانة..

وبمناسبة الحديث عن سعد زغلول وعن رجال الوفد.. أذكر أن السيدة أم المصريين كان لها منى موقف آخر. فحين كانت المجلة تصدر فنية. أرسلت خطابًا إلى كل من أم المصريين وهدى شعراوى أطلب تأييدها لى ولم ترد أم المصريين على وحز هذا الإهمال فى نفسى. فلما أصبحت المجلة السياسية، كانت أم المصريين تنتهز فرصة بعض قضاياى السياسية فترسل إلى مشجعة أو مهنئة، ولكننى التزمت الصمت من ناحيتى أيضا. فلم أذهب إليها ولم أقابلها قط.

وعلى العكس من ذلك كانت هدى شعراوى فقد أسرعت بالرد على وكانت لا تكف عن تشجيعى وتأييدى. وتوثقت بيننا صلات التقدير. وفى إحدى المناسبات السياسية اشتركنا فى قيادة مظاهرة عنيفة طافت شوارع القاهرة.. كانت هدى شعراوى تتقدمها متعبة، مجهدة، هاتفة..



الفصل الثالث

- الوحى يهبط على شوقى فى إدارة المجلة!
- النحاس.. أول كاريكاتير نشرته روزاليوسف!
- القبض على التابعى ووضع الحديد فى يده!

ظلت إدارة المجلة فترة من الوقت تشغل حجرة من شقتى الخاصة التى كنت أسكنها فى شارع جلال، والتى كانت ترتفع عن خمسة وتسعين درجة.. وكان المرحوم الشاعر أحمد شوقى - صاحب العمارة - يعدنى من حين لآخر بتركيب مصعد .. دون جدوى..

وفى هذه الشقة كنا نقيم من حين إلى آخر سهرات يجتمع فيها الأدباء والنقاد.

أقمنا ذات ليلة حفلة كبيرة كلفتنا ثمنًا ناءت به ميزانية المجلة فى ذلك الوقت.. وهو خمسة جنيهات! فقد أردنا أن نحتفل بإحدى المناسبات. وقررنا أن ندعو إلى السهرة شوقى والعقاد والمازنى وتوفيق دياب وبعض الكتاب الآخرين وكان العقاد والمازنى وتوفيق دياب وبعض الكتاب الآخرين وكان العقاد والمازنى فى ذلك الوقت

يتزعمان حملة شديدة على شوقى، ويضعان إنتاجه الفنى على مشرحة النقد العنيف.. وكان اجتماعهم يبدو أمرًا مستحيلاً. ولكنهم اجتمعوا.

ودعوت أيضًا الأستاذ محمد عبد الوهاب، وكان لا يزال ناشئًا.. وغنى عبد الوهاب فى تلك الليلة الدور القديم «قده المياس زود وجدى!».. وفى جو السهرة الجميل، وتحت تأثير إنشاد عبد الوهاب الساحر.. تصافى الأدباء الكبار.. وخرج العقاد وقد استبد به الطرب، لينشر فى «البلاغ» فى اليوم التالى أبياتًا من الشعر يحيى بها عبد الوهاب، أذكر منها:

أيه عبد الوهاب أنك شاد يطرب السمع والحجا والفؤادا

قد سمعناك ليلة فعلمنا كيف يهوى المعذبون السهاد!

وفى تلك الليلة أيضا أعدنا الحديث عن متاعب الإدارة فى هذه الشقة المرتفعة.. وقال لى شوقى: ان العمارة المقابلة ـ وكانت مملوكة له أيضًا ـ قد خلا فيها «بدروم» يهبط عن الأرض بحوالى عشر درجات.. عبارة عن حجرتين متداخلتين وعرض على شوقى أن استأجرها بجنيهين فى الشهر..

وقبلت هذا العرض على الفور.

وكانت انتقال الإدارة إلى مقر مستقل حدثًا تاريخيًا فى حياة المجلة.. فقام شوقى بطلاء المكان وتنظيفه على حسابه.. ورحت أنا ـ كربة البيت المدبرة ـ أشترى له بعض الستائر البسيطة النفقات أحلى بها النوافذ، والصور أضعها على الجدران.. ونقلت بعض المقاعد الخفيفة وأريكة مريحة من شقتى إلى الإدارة الجديدة.. وأخذنا نبحث عن مكاتب رخيصة الثمن لنشتريها.. حتى أرشدنا إبراهيم خليل إلى مكتبتين تريد جريدة «البلاغ» أن تبيعهما بمبلغ

مائة وعشرين قرشًا فاشتريتهما. وكان هناك مائدة تشبه المكتب فى الإدارة القديمة فأصبح لدينا ثلاثة مكاتب: مكتب لى ومكتب للتابعى ومكتب لإبراهيم خليل يباشر فيه أعمال الميزانية والإدارة.

وميزت الأستاذ التابعى بأن اشتريت لمكتبة قطعة من الجوخ الأخضر وضعتها عليه.. لكى يتهيأ ما يمكن من جو الفخفخة الذى يحب التابعى أن يكتب فيه.. وكنت أذهب لزيارته أحيانا فى مقر وظيفته بمجلس النواب فأراه جالسًا فى حجرة هائلة واسعة جدًا، ويجلس فيها على مكتب ضخم جدًا لا يقل طوله عن ثلاثة أمتار، وأذكر أن البرلمان فى ذلك الوقت كان معطلاً وكان جنود الجيش والبوليس يحاصرونه من كل جانب، وقد وضعوا عند مداخله أكياس الرمل والأسلحة المصوبة.

وانتقلت المجلة إلى الإدارة الجديدة، وكان باب الدخول ضيقًا خفيضًا فيضطر كل من يدخله إلى الانحناء.

وكان المرحوم أحمد شوقى قد اتخذ جلسته المختارة ساعة العصر من كل يوم فى المجلة. وكان يحلو له حين يرى العقاد ينحنى بقامته الطويلة لكى يدخل الباب المنخفض أن يقول لى: الإدارة الجديدة علمتنا التواضع.

وكان شوقى إنسانًا حساسًا، هائمًا، لا يعيش مع الناس من حوله.. كأنه مشدود دائمًا إلى شياطين محلقة فوق رأسه كان إذا أقبل المساء يدخل إلى المجلة ليشارك فى ندوتها... وهناك على الكنبة الوحيدة المريحة يجلس فى استرخاء.. وحوله العقاد والمازنى ودياب وآخرون من الكتاب الناشئين يتجادلون فى كل مسائل الفن

والأدب والسياسة.. أما شوقى فلا يشترك فى الحديث إلا نادرًا.. تراه وقد شرد ذهنه وزاغت عيناه كأنه ينظر إلى شىء غير منظور.. ويتمتم محركا شفتيه فى همهمة لا تبين، وأنامله تعبث فى فم السيجار الأنيق الذى يحمله.. ويستمر على هذه الحال فترة تقصر أو تطول، ثم إذا به قد نهض وإذا به قد خرج، دون أن يلقى بالتحية أو يقول كلمة واحدة.. سائرًا فى خطواته الوئيدة كأنه يسير وهو نائم، وهنا نعرف أن الوحى قد هبط عليه. وإن قصيدة جديدة فى طريقها إلى الميلاد.

واستقرت المجلة بعض الشىء، أصبحت لها إدارة لا بأس بها.. وثبتت فى سوق السياسة قدماها.. وقررت أن أعطى نفسى إجازة وأسافر إلى باريس.. وكتبت قبل سفرى إلى وزارة الداخلية أقول لها إن إبراهيم خليل هو الذى سيقوم برئاسة التحرير نيابة عنى.. ذلك أن التابعى كان لا يزال موظفًا..

وعشت فى باريس فترة، أبعث إلى المجلة برسالة أسبوعية طويلة عن خواطرى ومشاهداتى فيها.

وفى صباح حزين من أيام أغسطس ١٩٢٧ قرأت نبأ صغيرًا فى جريدة «بارى سوار» يقول إن سعد زغلول قد مات وكان لهذا النبأ وقع أليم فى نفسى.. وعادت إلى فى باريس ذكريات أيامه الحافلة.. المظاهرات التى سرت فيها من أجله والساعات التى وقفتها أستمع له.. والجهاد الكبير الذى كان يتزعمه، وكان يضمنا جميعا.

وصدرت المجلة مجللة بالسواد، تحمل على صدرها صورة مهيبة لسعد. فكانت أول مرة تظهر فيها صورة رجل سياسى على غلاف

المجلة..

وقد أعقبت وفاة سعد فترة من الاضطراب والحيرة، فالفراغ الذى تركه سعد كبير.. والموقف السياسى دقيق جدا.. كان هناك برلمان يرأس سعد مجلس النواب فيه. وكانت الوزارة ائتلافية يرأسها ثروت. وكان ثروت منهمكًا فى مفاوضة الإنجليز بشأن القضية الوطنية وبات متوقعًا أن ينتهز الإنجليز والسراى فرصة وفاة سعد لمحاولة العصف بالوفد مرة أخرى وبدت طلائع هذه المحاولة على صفحات الجرائد المعادية للوفد، التى أخذت تخوض فى الحديث عمن سيخلف سعدًا فى رئاسة الوفد، محاولة أن توقع الشقاق بين أعضاء الوفد الكبار..

وحين أعود إلى إعداد «روزاليوسف» الصادرة فى ذلك الوقت، أجدها قد لعبت دورًا فى هذه المعركة الدقيقة.. لحساب الشعب الذى كان مجتمعًا كله وراء الوفد.

ففى العدد الصادر يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٢٧ هاجمت «روزاليوسف» الصحف المعادية للوفد التى بدأت ترشح المرحوم فتح الله بركات لرئاسة الوفد وتفضله على مصطفى النحاس.. وكانت صحف حزب الاتحاد تقصد بهذه الترشيحات إيقاع الفرقة بين أعضاء الوفد.. وكان الخلاف على اختيار الرئيس موجودًا فعلاً ولكنه مستور، ولم يكن من المصلحة أن يتسع، وكان أغلب الأعضاء يميلون إلى اختيار النحاس؛ لأنه أقرب إليهم من فتح الله بركات الذى كانوا يخافون من شخصيته القوية الطاغية.

واجتمع الوفد، وقرر اختيار النحاس رئيساً له؟

ومع أن «روزاليوسف» اشتركت فى تزكية النحاس والدفاع عنه.. إلا أنها كتبت فى العدد الصادر يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٢٧ كلمة لبقة عن مصطفى النحاس فيها تنبؤ غريب بمستقبله السياسى.. جاء فيه:

ليس هناك بين الذين رشحوا أنفسهم أو رشحهم غيرهم من هو أنقى صفحة وأطهر ذيلاً من مصطفى النحاس. فتاريخه معروف ومواقفه المشرفة مع مصطفى كامل أولاً ومع سعد زغلول ثانياً معروفة للجميع. ومصطفى ـ فوق هذا ـ رجل نزيه جداً، صعب جداً فيما يراه حق، صريح جداً.. أو كما يقولون إن كلمته على طرف لسانه!

«ولكنهم يقولون أيضا إن مصطفى النحاس «متسرع» جداً والكلمة التى تستعملها الدوائر السياسية للتعبير عن صفة التسرع هى كلمة «مدب!». وهم من أجل ذلك يقولون إنه ليس من المستحيل أن يكثر وقوع التصادم بين النحاس باشا والحكومة وبينه وبين أعضاء الوفد نفسه! ولكننا نعتقد أن مصطفى النحاس غدا سيكون غيره بالأمس، وأن ثقل واجبات الرئاسة التى ألقيت على عاتقه سوف يهدئ من حدة «تسرعه» وأن شعوره بضخامة المسئولية كفيل بحمله على التفكير مرتين قبل أن يتكلم!».

وهذا انغمست «روزاليوسف» فى السياسة إلى قمة رأسها وأصبح لها دور إيجابى فى كل مشكلة من مشاكل الساعة.

وبدأ طابع المجلة كله يتطور.. ونشرت على غلافها أول رسم كاريكاتيرى وكان رسمًا لمصطفى النحاس، رسمه الرسام حسين فوزى.. المخرج السينمائى حالياً.

ثم جاءتنى فى باريس أنباء خطيرة عن المجلة.

فقد كتب الأستاذ التابعى سلسلة مقالات بلا توقيع عن الحياة الخاصة لملوك وملكات أوروبا بعنوان «ملوك وملكات أوروبا تحت جنح الظلام» وثارت الصحف المعادية لـ «روزاليوسف» وثارت الدوائر الأوروبية وألقت النيابة القبض على الرجل الذى أنبته فى رئاسة التحرير أثناء سفرى: إبراهيم خليل معناه توقف المجلة عن الصدور.. وفعلا توقفت.

ولم يكن لإبراهيم خليل فى الواقع شأن بالتحرير. وكأنما عز عليه أن يروح ضحية ما كتبه التابعى فاعترف فى التحقيق بأن كاتب هذه المقالات هو الأستاذ محمد التابعى الموظف فى الحكومة.

ولم تطلق النيابة سراح إبراهيم خليل، بل قبضت على التابعى، وأنزلتهما معًا فى زنزانة السجن.

وكان رئيس الوزارة فى ذلك الوقت هو عبد الخالق ثروت وكان ـ رحمه الله ـ عنيفًا فى طريقة حكمه.. فلما قبض على التابعى وإبراهيم خليل وضع البوليس فى أيديهما القيود الحديدية المعروفة. وكانت هذه أول مرة توضع فيها قيود هذه القيود فى يد كاتب صحفى.

وكان وكيل النيابة الذى حقق القضية هو الأستاذ زكى سعد نائب رئيس صندوق النقد الدولى حالياً.. وهو رجل متحرر، أبدى فى تحقيقه إيمانًا بحرية الرأى.. لولا وضعه الرسمى.. وجامل المتهمين إلى حد بعيد.

وشن المرحوم عبد القادر حمزة فى جريدة «البلاغ» حملة عنيفة على تصرف الحكومة مع التابعى وإبراهيم خليل ووضعها الحديد فى يد تحمل القلم.. كان لها صداها البعيد الذى أرغم الحكومة على أن تفك هذه القيود.

وقد أحيلت القضية بعد ذلك إلى المحكمة، ونظرت فى جلسات سرية. وتولى الدفاع فيها عن المتهمين الأستاذ وهيب دوس.. وصدر الحكم عليهما بالحبس ستة شهور مع إيقاف التنفيذ..

وقد كان لهذه القضية فضل الكشف عن الأستاذ التابعى ككاتب سياسى.. إذ كان حتى ساعة القبض عليه يكتب فى المسائل السياسية مستترًا بلا توقيع.

وكان وجودى فى باريس والقبض على التابعى وإبراهيم خليل معناه توقف المجلة عن الصدور.. وفعلا توقفت أسبوعين ريثما أفرج عن الاثنين بالضمان المالى.

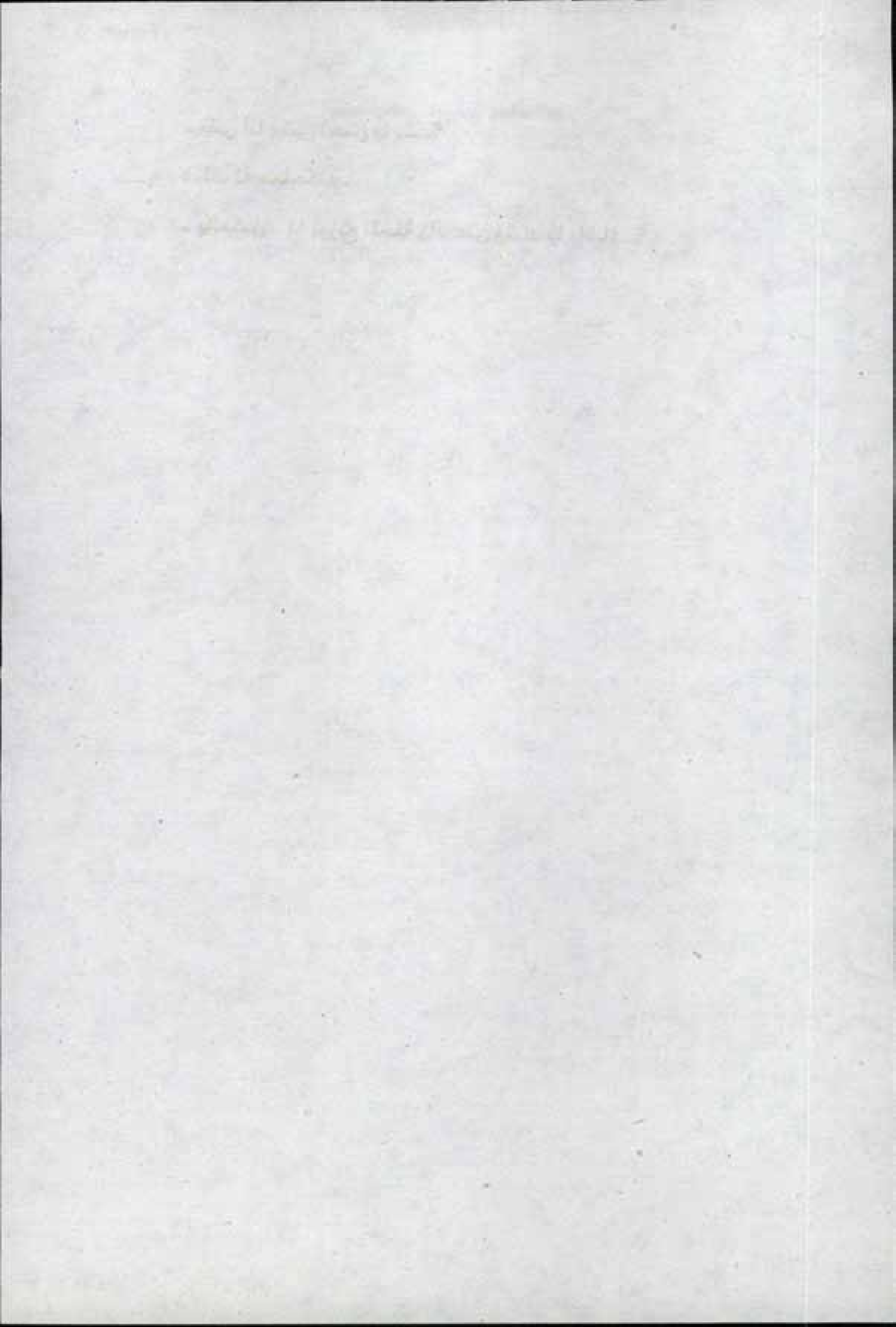
وعدت مسرعة إلى مصر لأواجه الموقف أما محنة القبض والاعتقال الأولى فلم تزد المجلة إلا جرأة. وكانت جرأتها فى ميدان السياسة تتزايد. واستغلمت الكاريكاتير. فى الهجوم السياسى لأول مرة على حسن نشأت.. وكان نشأت قد كتب لنفسه تاريخًا سابقًا فى مقاومة سعد والوقوف فى وجه الرأى العام. فانتهزت المجلة فرصة عودته إلى مصر ورسمت له صورة كاريكاتيرية على غلافها وتحتها زجل معناه أن عودته نحس وشؤم.

وقد حدث بعد ذلك بقليل أن قابلت الأستاذ حسن نشأت مصادفة فى مكان عام.. فابتسم ابتسامته الهادئة وقال لى:

- بقى أنا وشى نحس يا ست؟

فقلت له ضاحكة:

- بالعكس.. دا توزيع المجلة زاد على وشك يا باشا!



الفصل الرابع

- أصدرت أربع مجلات فى عام واحد !
- النحاس يسأل: «هو أنا زى أمينة البارودى»؟!
- على ماهر يوصينى بأن أصبر كالملك فؤاد!

رويت فى الفصل السابق كيف تطورت «روزاليوسف» إلى مجلة سياسية.. سلاحها المقال اللاذع والكاريكاتير.

ولم تأخذ «روزاليوسف» من السياسة جانبها الهادئ، أو تقف على الحياد. بل اقتحمت أخطر مناطق السياسة وذهبت فى الهجوم والتأييد إلى أبعد الحدود. وكانت الفترة التى اختارتها "روزاليوسف" ـ أو اختارتها لها الأقدار ـ لتدخل هذا الصراع فترة عصيبة فى حياة مصر.

وكان الملك فؤاد ـ بدافع من الإنجليز ـ قد أقال وزارة الوفد وتولى المرحوم محمد محمود رئاسة الوزارة. ثم لم يلبث أن أعلن تعطيل الدستور والحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد.

واتخذت المجلة خطة الدفاع عن الدستور والهجوم العنيف على الوزارة. وصدر العدد ١٣٤ من «روزاليوسف» وفيه حملة على حق

الملك فى إقالة الوزارات.. وفيه صورة كاريكاتيرية تمثل محمد محمود يدوس على الدستور وهو صاعد إلى مقعد الوزارة.

وبعد أن تم طبع نسخ المجلة كلها.. دق التليفون ينبئنى بأن المطبعة محاصرة، وأن البوليس قد جاء لمصادرة العدد.

وأسرعت إلى المطبعة لأرى بعينى مأمور قسم عابدين وضباط البوليس السياسى واثنين من الكونستبلات الإنجليز يحيطون بأعداد المجلة المتراصة فى أعمدة طويلة.. يمنعونها من الخروج.

وبدا لى هذا الموقف غريبًا، وغير معقول. كيف يمكن أن تصادر الحكومة جهد إحدى المواطنات؟ كيف يمكن أن تمنع الحكومة مجلة أن تبدى رأيها؟

كانت هذه التجربة الأولى من تجارب المصادرة تبدو لى غريبة، مثيرة للأعصاب إلى أقصى حد.

وكانت مصادرة هذا العدد هى المناسبة التى عرفت فيها مصطفى النحاس لأول مرة. فقد اقترح على بعض الأصدقاء أن أذهب وأشكو إليه هذه المصادرة لعله يساعدنى، وتصورت أن هذا ممكن. أليس مصطفى النحاس هو زعيم الأمة بلا منازع، والرجل الذى يحمل راية المقاومة ضد الإنجليز وأعداء الدستور؟..

وأسرعت إلى بيت الأمة بغير سابق موعد ولا استعداد وهناك كان يجلس مصطفى النحاس ومكرم عبيد وحولهما بقية أعضاء الوفد الكبار. والتف الجميع حولى يتأملوننى لأول مرة والدهشة ملء عيونهم.. فهذه إذًا هى السيدة التى تصدر مجلة سياسية، والتى تدافع عن الوفد وتهاجم خصومه وتتفوق فى ذلك على غيرها من صحف الوفد دون أن تعرف واحدًا من الوفديين.!

ولم أنتظر حتى تنتهى دهشتهم، فقلت لمصطفى النحاس ـ يا باشا صادروا المجلة.. وأنا عاوزة الإفراج عنها.

وقال لى النحاس:

ـ أقعدى يا بنتى.. إيه اللى حصل؟

ورويت القصة كلها. وقدمت له نسخة كنت أحملها من العدد المصادر.

وقال مكرم عبيد فى لهجة خطابية:

ـ لك الفخار يا سيدتى!

وقد سارت هذه الكلمة بعد ذلك مثلا!

ولم يأمر النحاس طبعًا بالإفراج عن العدد كما كنت أتوهم، ولكنه استدعى عددًا من المحامين الشبان فى ذلك الوقت منهم محمد صلاح الدين وصبرى أبو علم وسليمان غنام، وكلفهم برفع دعوى مستعجلة بطلب الإفراج.. ولكن الدعوى رفضت.

وعدت فرفعت دعوى مدنية طالبة التعويض.. وحكمت لى المحكمة على الحكومة بمائتى جنيه تعويض.

وتبين بعد ذلك أن القاضى حسب ثمن بيع العدد ٢٠ ألف نسخة بسعر النسخة قرش صاغ فيكون المجموع ٢٠٠ جنيه ولم يحسب إيراد الإعلانات أو الضرر الأدبى أو أى شىء آخر.

• قلت إن حادث المصادرة هذا كان هو المناسبة التى عرفت فيها مصطفى النحاس أول مرة. وقد أتيحت لى بعد ذلك الفرصة الواسعة لكى أعرفه عن كثب وكان أول ما يسترعى النظر فيه

بساطته الشديدة وطيبته البادية على تقاسيم وجهه. لم تكن تجد فى مجلسه شيئًا من المراسيم التى تميزت بها مجالس الكبراء فى ذلك الوقت. بل كان فى كل سلوكه صورة للرجل المصرى العادى البسيط. وكان لا يقطع المسافة بين النادى السعدى وبيت الأمة إلا سيرًا على قدميه.. وكان يحلو له أحيانا أن يسير على قدميه من النادى السعدى إلى محطة المترو فى شارع عماد الدين ليركبه إلى حيث يسكن فى مصر الجديدة. وكنت أقطع هذه المسافة معه فى كثير من الأحيان، نتحدث فى شتى الأمور.

وقد عرفت أغلب الزعماء والكبراء.. وكان أغلبهم لا يتحدثون فى مجلسهم إلا بالطعن فى الآخرين.. وكانت أغلب المطاعن التى يوجهونها إلى غيرهم مطاعن شخصية. وبين هؤلاء كان مصطفى النحاس هو الوحيد تقريبا الذى لا يتحدث فى مجالسه عن الآخرين، بما فيهم أعنف خصومه.. فإذا تعرض لواحد من خصومه لم يزد على أن يقول:

- دا راجل .. غير وطنى.

وكان النحاس يكره أن يتعرض الناس لحياته الشخصية.

حدث بعد أن أعلنت خطوبته إلى السيدة زينب الوكيل أن نشرت «روزاليوسف» بعض تفاصيل شخصية طريفة عن حياة النحاس.. وأنواع الأطعمة التى يفضلها، وحبه الخاص للبن الزبادى وما إلى ذلك. وإذا بالنحاس يحدثنى فى التليفون غاضبًا فى الصباح ويقول لى:

- ياست هو أنا زى أمينة البارودى وسهير رياض علشان تنشروا عنى الأخبار دى؟

يريد بذلك أنه ليس من زهرات المجتمع البارزات حتى تروى عنه هذه القصص.

وفى ذلك الوقت كان مكرم عبيد أقرب الناس إلى مصطفى النحاس، والمسيطر عليه إلى حد بعيد.. لا يتصل به أحد إلا من خلاله، ولا تتم مقابلة مهمة مع النحاس إلا فى حضوره.. وكانت خطة مكرم تنطوى على الإسراف فى التمجيد الشخصى لمصطفى النحاس، حتى وصفه فى إحدى خطبه بالزعيم المقدس.. ولا شك أن مكرم مسئول إلى حد بعيد عن تطور الأمور على نحو زاد من استبداد رئيس الوفد وانفراده باتخاذ القرارات دون سائر الأعضاء، مما كان مبعث شكوى الكثيرين من أقطاب الوفد البارزين وأنصاره العديدين.

وحول النحاس أيضًا كانت تلتف حاشية من تلك التى تجدها حول كل زعيم. فكل زعيم له أوقات فراغه.. وله ساعات يبعد فيها عن مسئولياته.. وفيها يحتاج إلى جلساء يحدثونه فى المسائل البسيطة البعيدة عن المسائل السياسية.

وقد رأيت كيف أن أفراد كل حاشية يتطورون بحيث تصبح لهم مهمة واحدة: هى أن يسمعوا الزعيم الحديث الذى يسره فهم يمجدون له كل أفعاله ولو كانت خاطئة ويجسمون له نقائص خصومه ولو كانت تافهة.. وهم لا يصنعون ذلك كله بالطبع إلا لمنفعة.. وهكذا تمضى موجات النفاق حاملة على سطحها المصالح المتزايدة.. ولا نكون لذلك كله من نتيجة إلا وضع ستار كثيف بين الزعيم وجماهيره ونشر رذاذ الشبهات والاتهامات من حوله.

ومن الحوادث التى لا أنساها، والتى تدل دلالة بعيدة على طبيعة النحاس البسيطة.. ما حدث يوم عودة مكرم من لندن، وكان محمد محمود رئيس الوزارة قد سافر إلى لندن ليتفاوض، فأرسل الوفد مكرم إلى لندن لكى يهاجم المفاوضات ويندد بها.. وفعلا نجح مكرم فى إفساد هذه المفاوضات ولما عاد مكرم قرر الوفد أن يستقبله استقبالاً شعبيًا واسع النطاق.. وذهب النحاس إلى المحطة على رأس رجال الوفد.. وكان الاستقبال فعلا شعبيا منقطع النظير أعاد إلى الأذهان يوم عودة سعد من منفاه..

وركب النحاس ومكرم سيارة مكشوفة وركبت مع الدكتور محمد صلاح الدين والأستاذ حسن النحاس والأستاذ زهير صبرى عربة حنطور خلف سيارة النحاس. وقطع الموكب المسافة من محطة مصر إلى ميدان الأوبرا فى ثلاث ساعات تقريبا.. ولما وصل الموكب إلى ميدان الأوبرا، قذف بعض الأفراد متجرًا إنجليزيًا فى هذه المنطقة بالحجارة ورأى النحاس الاعتداء ولمح بين الجماهير المحتشدة الشاب الذى قذف الحجارة.. وإذا به يأمر فتقف السيارة وينزل من سيارته ليشق طريقه بين الجماهير، شاهرًا عصاه فى يده، حتى يصل إلى الشاب المعتدى وينهال عليه ضربًا وقد تجمد الناس فى أماكنهم ثم عاد إلى سيارته واستأنف الموكب سيره.. وحماسته.

وظل النحاس بعد ذلك ساعات طويلة فى بيت الأمة يروى هذا الحادث.. ويندد بهذه الاعتداءات التى تشوه الحركة الشعبية.. حتى خلت حجرة المكتب تمامًا.. ولم يبق فيها إلا المرحوم حسنى حسب، وأنا..

ولم تثن هذه المصادرة «روزاليوسف» عن خطتها.. فقد تابعت حملتها العنيفة فى الدفاع عن الدستور والهجوم على الوزارة، ولقيت رواجًا كبيرًا حتى أصبح الناس يتلهفون على يوم صدورها.. وقابلت الحكومة هذا الإصرار بالعنف البالغ.. فصادرت المجلة مرات وعطلتها مرة أخرى.. وكانت الوزارة لا تصادر المجلة إلا بعد أن يتم طبع جميع النسخ، حتى تكون خسارتها المالية كبيرة.

وكنت أواجه هذا التحدى بإصرار. كلما عطلت الوزارة المجلة أصدرت مجلة أخرى باسم جديد..

أصدرت مجلة «الرقيب» التى كان يملكها المرحوم جورج طنوس. وشم الناس بين صفحاتها رائحة «روزاليوسف» فأقبلوا عليها. وعطلت المجلة بعد أربعة شهور.. وبعد الأربعة شهور أصدرنا من «روزاليوسف» عددين ثم صدر قرار بتعطيل المجلة نهائيًا. وأصدرت مجلة «صدى الحق» فصودر عددها الأول.. ثم جاء دور مجلة «الشرق الأدنى» فلم تصدر أكثر من ثلاثة شهور.. ثم مجلة «مصر الحرة» التى لحقت بسابقاتها.. وكانت كل مجلة تصدر يكتب على صدرها: تشترك فى التحرير السيدة روزاليوسف.. وهكذا اضطررنا إلى الصدور بأربعة أسماء مختلفة فى أقل من عام..

وفى غمرة هذا الصراع العنيف أرادت الوزارة أن تجرب مع «روزاليوسف» سلاحًا آخر، فزارنى يوما موظف كبير فى الداخلية يعرض على أموال الحكومة فى نظير تخفيف الحملة على محمد محمود وحكمه المطلق.. ولكننى رفضت، ثم تبين أن الموظف الكبير ظل يقبض مبلغًا شهريًا كبيرًا بدعوى أنه يوصله إلينا.. وكان محمد محمود يعجب حين يعرف أن النقود تدفع فى حين أن المجلة ماضية

فى عنفها. حتى اكتشف أخيرًا أن النقود تذهب إلى جيب الموظف الكبير.. فطرده شر طردة..

وقد التقيت يومًا بالمرحوم محمد محمود وهو رئيس للوزارة سنة ١٩٢٩ قبل وفاته بعام واحد.. فذكرنى بهذه القصة ضاحكا..

وقد حاولت من ناحيتى أن أخفف من ضغط هذا الاضطهاد الشديد.. فذهبت إلى على ماهر الذى كان وزيرًا فى هذه الوزارة وكانت أيضًا أول مرة أقابله فيها وأعرفه عن قرب.. وقلت له رأيى بصراحة فى تصرفات الوزارة التى يشترك فيها وسرت له آيات عدوانها على الحريات العامة جميعًا.. ووافقنى على ماهر على كل كلمة قلتها ولكنه لم يصنع لى شيئًا.. بل نصحنى بالصبر وقال لى:

ـ إن الملك فؤاد يضع على مكتبه إطارًا فيه كلمة "الصبر" وتحت وطأة الاضطهاد العنيف.. والمصادرات المتوالية، حملت "روزاليوسف" وسام الاعتراف الشعبى بجهادها. إذا وقف مصطفى النحاس يخطب ذات يوم فى حفل كبير.. فهاجم الحكم الاستبدادى، واستشهد على ذلك بالاضطهاد الذى يصب على مجلتنا «روزاليوسف».. ونقلت جريدة «التيمس» فى لندن هذه الكلمة..

وأصبحت المجلة موضع فخر الجميع.. وبات الرجال البارزون الذين كانوا يخفونها منذ سنة فى جيوبهم يحملونها علنا.. ويقرءونها على زوجاتهم وأولادهم..

الفصل الخامس

- كان الوفد يسمى «حزب روز اليوسف»
- تلامذة «روز اليوسف» .. فى طريق المجد!
- مرتب كريم ثابت كان ثمانية جنيهات فى الشهر!

رويت فى الحلقة السابقة كيف أصبحت «روز اليوسف» ـ المجلة الفقيرة التى لا تملك شيئا من مقومات الصحف الكبيرة ـ المجلة الأولى فى ميدان السياسة، وكيف أصبح رجال الوفد يفخرون بها ويعتمدون على تأييدها..

وقد بلغ من نجاح «روز اليوسف» فى ذلك الوقت أن جريدة السياسة التى كانت تنطق بلسان الأحرار الدستوريين وتناصب الوفد العداء.. أطلقت على الوفد اسم «حزب روز اليوسف!» . ولم يجد مصطفى النحاس فى هذه التسمية غضاضة.. بل وقف مرة يخطب فى حشد من أنصاره فقال إنه يفخر بأن يكون الوفد حزب «روز اليوسف» المجلة المجاهدة الشجاعة، التى لا تبالى بالاضطهاد .

وأذكر أننى التقيت بعد ذلك بالأستاذ أحمد عبد الغفار من أقطاب الأحرار الدستوريين فقال لى: أنت مش حتتركى الوفد

وتنضمى لنا؟.. فقلت له: ويبقى اسم الحزب حزب «روز اليوسف»؟ فضحك بصوته العريض وقال: قابلين يا ست نبقى حزب روز اليوسف..

وتمشيًا مع هذا النجاح، تركت المجلة مقرها فى البدروم الأرضى الصغير إلى مقر آخر فى شارع الأمير قدادار ـ عند ميدان الحرية ـ عبارة عن شقة واسعة إيجارها تسعة جنيهات ولما كانت الشقة واسعة فقد أقنعت الأستاذ التابعى بأن يتخذ من إحدى حجراتها مسكنًا له تمشيًا مع سياسة التوفير والتقشف. تاركًا ـ لأول مرة ـ حياة طويلة من التنقل بين فنادق القاهرة !.

وككل مجلة ناجحة أيضًا.. بدأت «روز اليوسف» تجتذب عددًا كبيرًا من الشبان الناشئين الذين يحلمون بمستقبل لامع فى عالم الصحافة ويريدون أن يبدأ حلمهم فى «روز اليوسف» ... والصحف عادة تستقبل سيلاً لا ينقطع من هؤلاء الشباب .. ولكن النجاح لا ينتظر كل واحد منهم بسهولة.. فالقليل منهم هو الذى يجىء وفى قلبه وعقله بذرة النجاح.. والقليل من الذين يحملون بذرة النجاح يعرفون طريق هذا النجاح، فيثابرون عليه ويتعبون له ولا ييأسون حين تحوطهم المصاعب أو يطول بهم الطريق .

وكنت أفرح حين أرى هؤلاء الشباب يأتون إلى المجلة.. وأرى هذه الآمال تبرق فى عيونهم ولى فى هؤلاء الشباب نظرة لا تخطئ، أتبين منها على الفور من لديه الاستعداد للنجاح ومن هو غير أهل له وقد لفت نظرى من المترددين شاب طويل ضخم بشكل ملفت، عيناه صغيرتان لامعتان تتحركان بسرعة عجيبة.. كأنهما تبحثان دائما عن شىء صالح للالتقاط وكان هذا الشاب يدخل المجلة

متلفتًا هنا وهناك وهو يسرع الخطى إلى حجرة الأستاذ التابعى، يدفع إليه بعض الأخبار ثم يمضى.. وكان يرانى فى بعض الأحيان وهو خارج فينكس رأسه ولا يحيينى. ولمحت فيه بوادر هذا الاستعداد.. فسألته وهو خارج فى إحدى المرات: ما اسمه؟

فقال: مصطفى أمين ..

ثم عرفت أنه تلميذ فى المدارس يهرب من مدرسته ليتصيد الأخبار ويحملها إلى المجلة .. ويملك سيارة صغيرة جداً.. عتيقة جداً، يستعملها فى الجرى وراء الأخبار. مصطفى مخبر بالسليقة. له العين اللماحة والأنف الحساسة والإصرار على الوصول. وهو منذ اللحظة الأولى يحلم بامتلاك دار صحفية كبيرة ويعمل لذلك. وكان مألوفًا منه أن يسافر بسيارته سفرًا بعيدًا لكى يحصل على خبر ويعود فى نفس اليوم . أذكر أننى سألته يومًا إلى أين هو ذاهب فقال: إنه ذاهب إلى الإسكندرية لأن سيدة تنتظره فى ميدان المنشية لتعطيه خبرا.

وكان أول باب ثابت حرره مصطفى باب عن الطلبة بعنوان «لا يا شيخ!» وقد عارض الأستاذ التابعى فيه أول الأمر معارضة شديدة حتى أقنعته به. وكان سرور مصطفى بهذا الباب عظيمًا.

وعلى أمين هو النصف الثانى لمصطفى الذى لا ينفصل عنه فلم يكد مصطفى يشق طريقه قليلا، ويصبح له مكان فى المجلة حتى أشرك معه عليًا.

ومن الشباب الذين عرفوا طريقهم إلى المجلة فى ذلك الوقت أيضًا الأستاذ جلال الدين الحمامصى، وكان بدوره صديقًا لمصطفى

وطالبًا فى الجامعة.. وكان يحرر باب الرياضة .. واشتهر فى المجلة بتأنقه البالغ فى ثيابه ومظهره وعبوسه المستمر. وبتحمسه الشديد للوفد.. أكثر من حماسة الآخرين.. وأذكر أنه حين نجح فى أحد الامتحانات أرسل برقية بذلك إلى مصطفى النحاس.. وأشاع أصدقاؤه أنه أرسل إليه يقول إنه نجح فى الامتحان على مبادئ الوفد! وظلت هذه النكتة تلازم جلال زمنًا طويلاً ..

وظهر فى أفق المجلة فى هذا الوقت نفسه شابان صديقان.. أحدهما بدين مرح، والثانى نحيل جاد.. هما: كامل الشناوى ويوسف حلمى.. وقد اشتهر عن كامل أنه أكول من الدرجة الأولى.. فكنت إذا دعوته إلى الغداء فى منزلى غيرت كل المقادير المعتادة من الطعام خصوصًا صنف الأرز لكى تسد حاجته.. ثم هو لا يعفينى من اللوم على قلة الطعام.. مؤكدًا أنهم فى بيتهم إذا أرادوا أن يأكلوا دجاجًا أو أوزًا أو حمامًا قدموا لكل فرد من أفراد العائلة دجاجة أو أوزة أو زوجى حمام.. وعدد أفراد العائلة ١٢ فردًا..

وكامل الشناوى ذكى، ولكنه كان معروفًا بالكسل، وكان مدللاً فى أسرته لا تدفعه إلى العمل حاجة.. واذكر أنى ضقت يوما بكسله فجعلته يعطى ابنتى الصغيرة دروسًا فى اللغة العربية.. ولعل هذا أن يكون أول عمل لكامل الشناوى فى الصحافة!

وكان هناك أيضاً طالب الطب الذى يكتب المواويل.. وهو الدكتور سعيد عبده.. ثم كريم ثابت بعد أن أغلقت مجلته التى كان يصدرها باسم «العالم» أبوابها. ولم يكن التفاهم سائدًا بينى وبين كريم بالذات، لسبب لا أعرفه، ولم تتوثق لذلك بينى وبينه صداقة .. كان يأتى ليعطى أخباره للتابعى ثم يمضى بالرغم من أن «روز اليوسف»

أطلقت عليه اسم «ابن المقطم البكر» .. فإذا تبادلنا الحديث فلكلمات بسيطة أو «قفشات» عابرة أوجهها إليه. وقد سألته مرة ـ وكان محمد محمود رئيسًا للوزارة ـ أنت مع مين بالضبط؟ فضحك وقال: مع الكل!

وقد مرت بعد ذلك سنوات طويلة ثم اتصلت بكريم ثابت لآخر مرة. وكان قد أصبح مستشارًا صحفيًا للملك السابق وقد أمر فاروق فصودرت «روز اليوسف» صبيحة يوم العيد واتصلت به تليفونيًا لأ قول له: بدلا من أن تقولوا لنا كل عام وأنتم بخير تصادرون المجلة.. ثم ثرت عليه وعلى فاروق ثورة عنيفة. . قابلها كريم بإنكار معرفته أى شىء عن المصادرة وبتأكيده أن رأيه لم يؤخذ فيها.

وكان مجلة «الكشكول» التى تناصبنا العداء فى ذلك الوقت تتميز علينا بشىء واحد هو الرسم الكاريكاتيرى الذى كان يرسمه لها الرسام الكبير سانتيز، وكان سانتيز يرسم لنا بعض الصور أيضًا، ولكن ارتباطه بالكشكول كان يحول دون أن يتفرغ لإجابة مطالبنا. وأخذت أفكر فى رسام يمكن أن يملأ هذا الفراغ.. وذكرت أخيرا ذلك الرجل الأرمنى الأصلع القصير الذى كان يصعد خمسه وتسعين درجة ليصل إلى مقر المجلة القديم، وقد حمل فى يده نكتة قام برسمها وكنا ننظر إلى النكتة.. فنجدها قديمة، أو لا تعجبنا، فيعود هابطًا السلم الطويل، بنكتته تهتز فى يده..

وأرسلت فى استدعاء صاروخان..

وكان صاروخان وافداً على مصر فهو لا يعرف شيئًا عن شخصيات السياسية المصرية .. ولا يعرف العربية إلا لمامًا فأحضرنا له نماذج من رسم سانتيز للشخصيات المصرية.. وكان التابعى يفقد أعصابه عشر مرات قبل أن يفهمه فكرة صورة واحدة.. ثم هو يرسمها على عكس ما نريد فيعيد المحاولة.. حتى أصبح صاروخان ـ بعد مجهودات جبارة ـ رسامًا كاريكاتيريًا كبيرًا..

وما زلت أذكر لصاروخان كلمة سخيفة فقد حدث بعد عدة سنوات أن خرج الأستاذ التابعى آخذًا معه معظم محررى المجلة ووقع صاروخان فى حيرة، هل يبقى أم يخرج؟ وكان يوقع معى فى الصباح عقدًا ويوقع مع التابعى فى المساء عقدًا آخر.. ثم استقر على البقاء مع التابعى.. وحدثه فى ذلك بعض أصدقائى كيف يترك المجلة التى لمع فيها؟ فقال: يا خبيبى كل اللى فيها طلعوا وأنا خايف «روز اليوسف» تموت!

ولم تمت «روز اليوسف» طبعًا. ولكن هذه الكلمة حين وصلت إلى آلمتنى ولم أستطع نسيانها طويلاً. وقد مضت ٢٠ سنة على خروج صاروخان قبل أن يعود إلى ويرانى ثانية.. ليطلب منى شهادة بأنه كان يعمل عندى كى يحصل على الجنسية المصرية.. وأعطيته الشهادة المطلوبة بقلب لا حزازه فيه.

هؤلاء الشباب الذين تخرجوا جميعًا من «روز اليوسف» كانوا يحلمون بالنجاح ويعملون له. كان مصطفى أمين بالذات أكثر هم نشاطًا وأكثرهم إصرارًا على النجاح. وكان تفوقه عليهم ظاهرًا. وقد قضوا سنوات طويلة يعملون بغير أجر. فمصطفى مثلا ظل

يعمل فى «روز اليوسف» ثلاث سنوات قبل أن يصبح له مرتب.. لم يأخذ خلالها إلا عشرة جنيهات كانت لها قصة طريفة.. إذ اشتركت معه فى شراء ورقات يانصيب المواساة ولم يحدث فى حياتى أن كسبت شيئًا من يانصيب أو مراهنة.. ولكن إحدى هذه الورقات كسبت عشرة جنيهات فقررت أن أتركها كلها له ـ رغم معارضته الشديدة ـ مكافأة على نشاطه .. انفقها فيما أذكر على إصلاح سيارته العتيقة.

وبعد هذه السنوات الثلاثة جعلت له مرتبًا ثمانى جنيهات شهرياً.. على أن يدخل فيه شقيقه على الذى كان يعمل معه «من الباطن!» وكان مرتب جلال الحمامصى أربعة جنيهات. وكان سعيد عبده يكتب فى كل عدد مقالاً وموالاً يأخذ عليهما جنيها واحداً.. كذلك كان كريم ثابت يأخذ حوالى ثمانية جنيهات فى الشهر.

ولم تكن للمجلة فى ذاك الوقت ميزانية منتظمة فيها النفقات والإيرادات والاحتياطى وما إلى ذلك. كانت كل ميزانيتها كراسة صغيرة تسجل فيها النفقات والإيرادات. وكنت قد قدرت مجهود التابعى الكبير. وعمله الطويل معى . فاتفقت معه على أن يقسم صافى إيراد المجلة بيننا مناصفة، وكان هذا النصيب يتراوح بين مائة ومائة وخمسين جنيها كل شهر..

هذا المستوى فى المرتبات حين أراجعه اليوم أراه مستوى عاليًا بغير شك إذا وضعنا فى حسابنا قيمة النقد فى ذلك الوقت.. فالقيمة الشرائية للجنيه الواحد كانت فى ذلك الوقت خمسة أضعاف ما هى عليه الآن تقريبا.. ومعنى ذلك أن الثمانية جنيهات تساوى الآن حوالى ٤٠ جنيها.. وأن المائة والخمسين جنيهًا تساوى خمسمائة من جنيهات اليوم.

ولكن التابعى كان ـ كعادته ـ مشرفًا متلافًا.. فكان آخر مليم من إيراده الكبير يتبدد قبل آخر أيام الشهر.. وكنت على العكس منه، ادخر جانبًا من إيرادى لأضاعف به من قوة المجلة وكان يومًا لا ينسى فى حياتى يوم نجحت فى ادخار ٤٠٠ جنيه دفعتها عربونًا لشراء أول مطبعة خاصة للمجلة.

وقد ظلت «روز اليوسف» بعد ذلك مدرسة تلمع فيها الأقلام الشابة، وتتخرج منها الوجوه الجديدة الناجحة وحين أفكر فى السبب الذى أضفى على «روز اليوسف» هذه الصفة البارزة لا أجد سببًا أقوى من: الحرية.. الحرية التى كانت «روز اليوسف» دائمًا تعالج بها المسائل العامة والحرية التى كانت تعطيها لمحرريها . فهذه الحرية هى التى جعلت أغلب الأقلام الشابة المتحررة تسعى إليها. وتبرز فيها.

وليس غريبًا بعد ذلك أن تدعو «روز اليوسف» إلى الحرية الصحيحة فى كل عهد، وأن تلقى من جراء ذلك الاضطهاد من كل يد.

* * *

الفصل السادس

- رحلة يومية إلى النيابة!..
- موظف خاص لنقل الخطابات من السجن!
- كيف ولدت شخصية «المصرى أفندى»؟

قضى الوفد فى المعارضة ما يزيد على السبع سنوات، لم يجلس خلالها على مقاعد الحكم إلا مرة واحدة فى سنة ١٩٣٠ ولم يطل جلوسه عليها أكثر من ستة شهور تقريباً.. كانت هدنة بين انقلابين شهيرين: انقلاب محمد محمود سنة ١٩٢٨ ثم انقلاب صدقى سنة ١٩٣٠.

وقضت «روز اليوسف» هذه المدة ذاتها فى صفوف المعارضة التى لا تلين.. متحملة كل مشقات الجهاد، والإصرار، خلال هذين الانقلابين، اللذين اختلفت فيها أكثر الضمانات.

ولم يكن الوفد يبخل على بالتشجيع الأدبى، وأنا أرفع صوتى بتأييده.. وأذكر أننى ذهبت مرة إلى سرادق الاحتفال بذكرى ١٣ نوفمبر.. وكان مكتظًا بالجماهير الملتهبة... ومصطفى النحاس واقف يخطب على منصة فى صدر السرادق، وكان فى السرادق

قسم خاص للسيدات، لم أشأ أن أذهب وأجلس فيه.. وسمع النحاس عند مدخل السرادق هتافًا وضجة: وسع ياجدع.. وسع أنت وهو!..: وصاح النحاس فيه إيه هناك؟.. ثم رآنى أدخل.. والواقفون يحاولون أن يفسحوا لى مكانًا أجلس فيه، فصاح فيهم: شيلوها وهاتوها هنا!.

وقبل أن أفكر فى الأمر، كانت الجماهير قد حملتنى وفى لمح البصر وجدتنى أجلس على المنصة بجوار النحاس..

وفى مرة أخرى أراد النحاس أن يكرم المجلة فقرر أن يقوم بزيارتها.. وجاء ومعه مكرم عبيد الذى ألقى خطبة رنانة فى عمال المطابع الذين طاف عليهم «الحاج حسن» رئيس عمال مطبعة «روز اليوسف» وجمعهم من شتى المطابع فى أنحاء القاهرة ليستقبلوا النحاس.

ولما ألقى مكرم خطبته كان المفروض أن يرد عليه ـ مرحبا ـ واحد من أسرة التحرير.. ولم أكن أنا ولا الأستاذ التابعى متعودين على الخطابة. وإن كانت ألسنتنا على الورق تبدو طويلة!.. فلم نجد إلا أن يقف «الحاج حسن» ـ وكان وفديًا متطرفًا ـ ليلقى خطبة الترحيب نيابة عن المجلة.

وكان لهذا الكفاح ثمنه الباهظ الذى دفعته المجلة من المصادرات والقضايا. يكفى أن أذكر أن «روز اليوسف» فى السنتين الثالثة والرابعة من عمرها ـ من أكتوبر ١٩٢٧ إلى أكتوبر ١٩٢٩ـ كان المفروض أن يصدر منها ١٠٤ أعداد باعتبار أن السنة ٥٢ أسبوعًا.. ولكن «روز اليوسف» لم يصدر منها فى هذه المدة إلا ٤٢ عددًا وصودر٦٢.. أى أن ما صودر منها كان أكثر مما صدر.

ولم يكن الأمر أمر مصادرات فقط. بل تحقيقات وقضايا ووقوف فى ساحات المحاكم، ورحلات يومية إلى مبنى النيابة وكلما فكرت فى هذه القضايا وجدت ذاكرتى تنوء بها، وتعجز عن حصرها فإذا رويت طرفًا منها فليس ذلك إلا من قبيل المثال لا الحصر..

ومن القضايا التى لا تبرح خاطرى قضية رفعها ضدى المرحوم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى.. وكان المازنى يكتب فى السياسة" لسان الأحرار الدستوريين، والجريدة التى كنا مشتبكين معها فى صراع عنيف. وهاجم المازنى الوفد مهاجمة شديدة قابلناها بأحسن منها، وحملنا عليه حملة عنيفة لم يحتملها.. فأسرع يقدم بلاغًا ضدى إلى النيابة .

ورأت النيابة أن البلاغ ليس فيه شىء يعاقب عليه القانون فحفظته.. ورفع المازنى دعوى جنحة مباشرة أمام محكمة عابدين. وتصادف أن القاضى الذى عرضت عليه القضية سبق أن نشرت «روز اليوسف» عنه بعض أنباء خاصة بنشاطه فى ميدان سباق الخيل.. ولم يتنح القاضى إزاء ذلك بل أصدر حكمه على بالحبس خمسة شهور وغرامة ٥٠٠ جنيه مع النفاذ.

وكان يترافع عنى الأستاذ محمود كامل المحامى.. وحدث فى أثناء الجلسة أن أشار إلى محامى الأستاذ المازنى قائلا: ما لها ومال السياسة هذه الدخيلة .

فصحت فيه: دخيلة فى عينك!..

ونشبت بيننا معركة توقفت لها الجلسة.. وقلت له فيها لو كل البلد دخلاء مثلى لاستقلت البلد من زمان.

وقبل أن يقبض البوليس على ليودعنى السجن تنفيذاً للحكم، دفعت الرسوم للاستئناف.. وصدر حكم الاستئناف بالبراءة..

وفى أثناء وزارة صدقى.. وقع حادث اشتهر باسم حادث «الحصاينة» يتلخص فى أن رجال الإدارة فى ذلك الوقت ذهبوا إلى قرية الحصانية مركز السنبلاوين وعطلوا وابور طحن الغلال ومضرب الأرز المملوكين للشيخ طلبة صقر الذى كان من الوفديين المعروفين.. ورفع الشيخ دعوى أمام المحكمة ضد الحكومة.. فأرسلت الإدارة بوليسها لكى يمحو معالم ما أفسده فى الوابور قبل أن تثبت المحكمة حالته وتصدى الشيخ صقر وأنصاره للبوليس.. فأطلق البوليس النار وسقط ثلاثة من القتلى وكثيرون من الجرحى.. وحوصرت القرية أياماً طويلة وألقى أهلها فى السجون.

وترتب على هذا الحادث أزمة فى وزارة العدل.. إذ قامت النيابة بتحقيق الموضوع وكتب النائب العام ـ مصطفى بك محمد ـ تقريراً يطلب فيه الإفراج عن الأهالى ورفع الدعوى على مأمور المركز بتهمة التزوير فى أوراق رسمية .

وكتب التابعى فى «روز اليوسف» تعليقاً ساخراً على هذا الحادث قال فيه: إن وزير الحقانية ـ أحمد باشا على ـ قرأ تقرير النائب العام ثم... هز رأسه وقال: تفرج عن الأهالى معلهش! أما أن نحاكم المأمور بتهمة التزوير . فلا!.. وهز الوزير رأسه هزة اهتز معها قانون العقوبات!.. وأسبل القانون رمشه وصرف نظراً عن الموضوع!

وأرسلت النيابة تحقق معى بوصفى رئيسة التحرير المسئولة، ولكن المقال كان يحمل توقيع التابعى فقدم إلى المحاكمة أيضا.

وكان يمثل النيابة فى القضية الأستاذ محمود منصور. وكان من المعجبين بالمجلة . فاستهل مرافعته ناثرًا ورود المدح والثناء عليها، مشيدًا بأسلوب التابعى، ثم انثنى مهاجمًا فى عنف شديد، منددًا بطريقة النقد الجارحة التى تسلكها المجلة.. أما رئيس المحكمة - المرحوم محمد نور - فقد كان «بلديات» التابعى من المنصورة، ولكنه كان رجلاً محافظًا، لا يحب أسلوب التابعى ويعتبره خارجًا عن الحدود الواجبة. لذلك فقد كان همه أن يحصر التهمة فى التابعى، وكان يوجه إلى الأسئلة المتتالية بقصد إخراجى من المسئولية، ولكننى تمسكت بموقفى. فصدر الحكم على التابعى بالحبس أربعة شهور وعلى بغرامة خمسين جنيهًا.

ولم يصدر الحكم فى نفس الجلسة، وحين صدر كان الأستاذ التابعى فى الإسكندرية، فعاد ليسلم نفسه.

والتابعى رجل مرفه، رقيق المزاج. له أسلوبه الذى لا يتخلى عنه فى الطعام والشراب والراحة.. فليس غريبا أن يزعجه السجن ويضايقه ضيقًا شديدًا. وكنا نشعر بضيقه الشديد وراء القضبان من الرسائل والطلبات التى كان يبعث بها كل يوم..

كانت له فى كل يوم طلبات حتى عينا موظفًا خاصًا لكى يحمل إلى خطاباته ويعود إليه بما يطلب.. وما زلت أذكر أنه كان يطلب - يوميًا تقريبًا - كميات جديدة من الحلاوة الطحينية . وفى إحدى المرات أرسل يطلب كافيارا.. وفعلا ذهبت إلى محلات «لاباس» ولم أفكر فى أن أشترى له كافيار «سائب» بل اشتريت له علبة كافيار زجاجية فاخرة أرسلتها إليه ..

وفى اليوم التالى جاءنى منه خطاب يتميز غيظًا يقول فيه إن علبة الكافيار محكمة الإغلاق.. وأن السجن ليس فندقًا فيه شوكة وسكين ليفتح العلبة!.. وقد روى لى بعد خروجه كيف اضطر للاعتصام بدورة المياه يومًا وكسر علبة الكافيار ليستطيع أن يأكلها..

قضية ثالثة..

كان المرحوم زكى الإبراشى باشا ناظرًا للخاصة الملكية أيام الملك فؤاد.. وتزايد نفوذه حتى أصبح هو رجل الملك والمتحكم الأول فى السياسة المصرية.. وكان له فى الانقلابات غير الدستورية دور كبير. من هنا كان لابد أن تشتد حملات «روز اليوسف» عليه.. وأن تناصبه عداء طويلا.

وصدرت «روز اليوسف» مرة تحمل نبأ يقول: إن الإنجليز طلبوا إخراج الإبراشى من القصر أو تعيين مستشار له.. وقد كتب فى أسلوب ساخر يقول:

يبدو لنا أن دار المندوب السامى «حامية» الآن أكثر من اللازم وأكثر مما ترتاح إليه برودة الطقس فى هذه الأيام..

نبشت دار المندوب فى محفوظاتها القديمة فوجدت فيها سابقة سنها اللورد لويد على حساب حسن نشأت باشا.. ومن ثم أعلنت دار المندوب أن سعادة الإبراشى باشا يمكن الانتفاع بمواهبه التى لا شك فيها فى إحدى المفوضيات... ولكن جاءها الرد بأن لاغنى عن الانتفاع بمواهب الإبراشى وكفاءته فى إدارة الخاصة الملكية.

وكان واجب الذوق يقضى على دار المندوب أن تنزل على حكم هذا الرد وتسكت، ولكنها عادت تقول إنه إذا كان ولا بد من بقاء الإبراشى باشا فى منصبه وهو إدارة الخاصة الملكية فإن دار المندوب يسرها أن تقترح تعيين مستر فلان ـ وهو إنجليزى ـ لكى يساعد الإبراشى باشا فى مهمته المذكورة..

وكان للنبأ دوى شديد.. إذ معناه ـ لو صح ـ بداية تحول خطير فى السياسة، ومعناه أيضًا أن الإنجليز هم الذين يسيرون الملك فؤاد ويوجهون سياسته توجيهًا سافرًا خصوصًا وأن المجلة فى ذلك الوقت كانت تعادى الملك فؤاد عداء لم يكن يخفى على أحد..

واهتزت الحكومة للنبأ.. وكان النائب العام فى ذلك الوقت المرحوم لبيب عطية.. وكان رجلاً ممتازًا فى عمله، أديبًا مشهورًا بأسلوبه، ويهوى نظم الشعر.. وكان صديقًا كثيرًا ما يناقشنى فى السياسة.. ولكنه لم يكد يتلقى طلبًا بالتحقيق معى فى هذا النبأ حتى استدعانى.. ووقف وقد وضع إحدى قدميه على المقعد ـ وكان ـ رحمه الله ـ قصير القامة ـ وأخذ يصيح فى وجهى.

ـ أنا حاوديكى السجن ! أنا حاوديكى فى داهية!.. أنا حاخرب بيتك! إزاى تدخلى الإنجليز بين الملك وموظف عنده!..

وحاول لبيب عطية أن يعرف منى صاحب الخبر لكى يحبسه، فرفضت أن أبوح له.. وكان صاحب الخبر هو.. مصطفى أمين.. زوج كريمة المرحوم لبيب عطية حاليًا.

وفى اليوم المحدد للتحقيق كنت مريضة فأرسلت أعتذر، ولكن النائب العام أصر على ضرورة التحقيق معى فأرسل إلى وكيل النيابة فى ذلك الوقت الأستاذ صادق العجيزى.

وحقق وكيل النيابة معى وأنا طريحة الفراش.. وحضر التحقيق معى الأستاذ سابا حبشى المحامى.. وكانت النيابة تريد أن تثبت أن الخبر فيه عيب فى الذات الملكية لكى تتمكن من استصدار حكم بإغلاق المجلة.

وفى الحجرة المجاورة كان يجلس التابعى ومصفى أمين ينتظران نتيجة التحقيق. وقبل التحقيق أعطانى مصطف أمين ورقة سجل فيها أنه هو صاحب الخبر طالب منى أن أقدمها لوكيل النيابة.. ولكنى رفضت، ومزقت الورقة.. وتمسكت بأن أحمل المسئولية كاملة.

وقد ظلت هذه القضية «مركونة» فى النيابة العامة.. كسلاح مدخر ضدى.. حتى سقطت بصدور عفو عام .

وكان «المصرى أفندى» سببًا فى قضية أخرى .

وشخصية «المصرى أفندى» ولدت على صفحات «روز اليوسف».. فقد كان الكشكول يرسم شخصية " جحا" يحررها فى صوره السياسية.. وأردنا أن تكون لنا شخصية أخرى تنطق فى الكاريكاتير برأى المجلة.. وكانت لدينا مجموعة كاريكاتيرية من الصحف الأجنبية وجدنا فيها أنا والأستاذ التابعى شخصية رجل يشبه «المصرى أفندى» يلبس قبعة ويحمل فى يده مظلة.. واقتبسنا شخصيته بعد أن ألبسناه الطربوش ووضعنا فى يده المسبحة.. وبدأ صاروخان يرسم «المصرى أفندى».

ونشرت «روز اليوسف» مرة رسمًا يمثل «المصرى أفندى» وقد وضعته وزارة محمد محمود فى إناء كبير كالذى يستعمله الهنود الحمر وهم يشعلون النار فيه.

واستدعت النيابة صاروخان لتستجوبه فى شأن هذه الصورة، بعد أن حققت معى بشأنها.. وذهبت أحضر التحقيق مع صاروخان.. وسأله وكيل النيابة.

ـ من صاحب فكرة الصورة؟

فقال: السيدة روز اليوسف..

ـ ومن الذى أعطاك شخصية «المصرى أفندى»؟

فقال: السيدة روز اليوسف .

ـ الا ترى هؤلاء ينفخون النار فى «المصرى أفندى»؟

فقال: لا.. أنا افتكرتهم بيطفوها .

وأكد صاروخان للمحقق أنه لا يفهم الصورة.. وأنه أنما يرسم ما أقوله له فحسب!

ولست أدرى ما الذى جعلنى أهتم بنقل صورة هذا المحضر فى ذلك الحين..

ولكن حدث بعد ذلك بسنوات أن خرج صاروخان من «روز اليوسف».. وأراد أن يرفع دعوى يطلب منى عدم استعمال شخصية «المصرى أفندى» لأنها من ابتكاره..

وجاءنى محاميه.. وكان إنجليزيا فيما أذكر .. فأظهرته على أقوال صاروخان فى هذا التحقيق.. فأيقن أن القضية خاسرة.. ولم يرفعها..

وبقى «المصرى أفندى» رمزًا خالدًا على الرجل المصرى العادى المخلص، الطيب القلب.. بقى يعيش ـ حتى الآن ـ على صفحات «روزاليوسف».

الفصل السابع

• الدستور.. صخرة النجاة!!.

• العناصر الرشيدة التى حكم بها صدقى

• أول مجلة فى حجم الجرائد اليومية

عاشت وزارة النحاس الثانية ستة شهور فقط ـ من يناير إلى يوليو ١٩٣٠ ـ ذهب خلالها إلى لندن لمفاوضة الإنجليز.. ثم لم يلبث أن قطع المفاوضات بسبب مسألة السودان، قائلا كلمته المشهورة: تقطع يدى ولا تقطع السودان!..

وكان لهذا الموقف صدى كبير فى الرأى العام، تجلى فى الاستقبالات الحافلة التى قوبل بها عند عودته، غير أنه لم يلبث أن أدلى بتصريح آخر قال فيه: لقد خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز!.

ولم أفهم كيف يمكن أن نخسر الاستقلال ونكسب صداقة الإنجليز فى نفس الوقت وقابل كثير من الناس ـ ومن أنصار النحاس ـ هذا التصريح بالوجوم.. ولما استغلت صحف المعارضة هذا التصريح لمهاجمته.. لم تكتب "روز اليوسف" حرفًا واحدًا فى تبرير هذا التصريح..

وكان مفهوما أن الإنجليز والقصر قد اتفقا على إخراج حكومة الوفد.. ولجأت السراى إلى طريقتها المعروفة فى إحراج الوزارات وهى عدم التصديق على مشروعات القوانين التى ترسلها الوزارة إليها، وكانت القوانين التى رفض الملك فؤاد أن يوافق عليها هى: قانون محاكمة الوزراء، وقانون إنشاء بنك التسليف، وقانون إنشاء ديوان المراقبة (أى ديوان المحاسبة).

وتبلورت الأزمة حول قانون محاكمة الوزراء بالذات. وكان يقضى بعقاب كل وزير يعتدى على الدستور أو يعطل أحكامه أو يستغل نفوذه وقاوم الإنجليز والملك فؤاد صدور هذا القانون، لأنهم يحتاجون دائما إلى وزراء يعتدون على الدستور.. ولو قد أتيح لهذا القانون أن يصدر منذ ثلاث وعشرين سنة، لتغير تاريخ مصر السياسى إلى حد بعيد.. ولما شهدنا ـ على الأقل ـ محاكمات الغدر التى تدور هذه الأيام.

ووضع النحاس حداً لهذه الأزمة باستقالته وقبلت الاستقالة فوراً. ونشرت «روز اليوسف» ما تردد فى ذلك الوقت من أن خطاب قبول الاستقالة كان معداً قبل أن تكتب الاستقالة ذاتها وهذه هى المرة الوحيدة التى خرج فيها النحاس من الحكم مستقيلا، فقد أخرج فى المرات الأربع الأخرى بإقالة من الملك وحق الملك فى إقالة الوزارة لم يستعمل قط إلا مع النحاس فى هذه المرات الأربع..

وشكل الوزارة الجديدة إسماعيل صدقى، وهى الوزارة التى قدر لها أن تلغى دستور ١٩٢٣ وأن تقيد الحريات، ولا يوجد على قيد الحياة من أعضاء هذه الوزارة إلا على ماهر (رئيس لجنة الدستور حاليًا) وحافظ عفيفى.

ولم يمهل الناس الوزارة الجديدة. فقد أدرك الشعب بحساسيته أن النية مبينة ضد الدستور. فانفجرت المظاهرات فى كل مكان. وخرج الطلبة والعمالة يهتفون ضد الحكم الجديد.. وقابل صدقى هذه المقاومة بالعنف العنيف..

ولو كان فى مصر ذرة من احترام مشيئة الرأى العام لاستقالت الوزارة قبل أن تبيت ليلتها.. ولو لم تكن القوات المسلحة خاضعة للقصر وللإنجليز لقذف هذا السخط بالوزراء عن مقاعدهم.. ولكن القصر والإنجليز كانا مصممين على إنفاذ سياستهما، وكانت القوة اللازمة لذلك فى أيديهما.. وكان صدقى يقول إنه سيحكم البلاد «بالعناصر الرشيدة».. معللاً بذلك إبعاد مجموع الشعب عن سلطة الحكم.

ونهضت «روز اليوسف» إزاء هذا الموقف بمسئوليتها كاملة.. وشنت على الوزارة منذ مولدها أعنف الحملات.. ولما تفاقم السخط وارتفعت أرقام القتل صدر العدد رقم ١٨٤وقد رسمت على غلافه صورة كبيرة بعنوان «حكم الإرهاب» تمثل مصر بلداً محترقاً يشيع فيها الخراب وعليها يدوس إسماعيل صدقى وقد حمل يده مسدساً يتصاعد من فوهته الدخان.. وكتب تحتها: «إسماعيل صدقى يحكم البلاد بالعناصر الرشيدة: الحديد والنار!»..

هذا العدد كان يجب أن يصدر يوم ٥ أغسطس ١٩٣٠. وقد فرغنا من إنجازه وسافرت أنا إلى الإسكندرية وسافر التابعى إلى رأس البر لقضاء عطلة الأسبوع، وفى الإسكندرية جاءتنى الأنباء قائلة إن إسماعيل صدقى صادر العدد وأن مجلس الوزراء قرر إلغاء رخصة المجلة.. إلى أجل غير مسمى!

كان هذا النبأ صدمة لى. وكنت أعرف مقدمًا أن موقف «روز اليوسف» سيجر عليها المتاعب، ولكننى لم أتوقع أن تجىء هذه المتاعب بهذه السرعة، وبهذا العنف..

وكنت قبل ذلك بقليل قد اشتريت ـ لأول مرة ـ سيارة خاصة.. وكانت سيارة كبيرة «ناش» ثمنها ستمائة جنيه. دفعت منها مائة مقدمًا على أن أقسط الباقى، ٢٥ جنيهًا كل شهر، وكان أول ما اتجه إليه خاطرى حين علمت بقرار إغلاق المجلة إلى أجل غير مسمى، أن أتخلص من هذه السيارة.. فمن أين سأدفع قسطها الشهرى والمجلة معطلة ؟..

وعدت إلى القاهرة وقصدت فورًا إلى المحل الذى اشتريت منه السيارة، وعرضت عليه أن أترك له المائة جنيه التى دفعتها مقدما ويسترد منى السيارة.. وسألنى صاحب المحل عن السبب فشرحته له بصراحة. ورفض الرجل أن يأخذ السيارة وأصر على أن أحتفظ بها، وأن أدفع له فى أى وقت أستطيع. وانصرفت بعد ذلك أبحث عن رخصة أخرى أصدر المجلة باسمها.. حتى عثرت على رخصة باسم «الصرخة» اتفقت مع صاحبها على أن يعيرها لى نظير ١٢جنيهًا شهريًا..

وصدرت مجلة «الصرخة» فى حجم جديد على المجلات هو حجم الجرائد اليومية. وكانت هذه أول مرة تعرف فيها الصحافة المصرية مجلة أسبوعية بهذا الحجم. على أن هذا الحجم ـ بعد أن أصدرت منه عددين ـ لم يعجبنى ـ واستبدت بى رغبة العودة إلى حجم «روز اليوسف» الأصلى، فأصدرنا «الصرخة» صورة طبق الأصل من "روزاليوسف" لا تختلف عنها إلا فى اسمها.. وحتى

يعرف الناس أن المجلة الجديدة هى «روز اليوسف» كتبت على غلافها: «روز اليوسف ومحمد التابعى ومحمد على حماد يحررون هذه المجلة» فعرف الناس فيها مجلتهم الأصلية وأقبلوا عليها إقبالاً شديداً.. وقد صدر منها ٤٢ عدداً قبل أن تعود «روز اليوسف» إلى الصدور.

ثم حدث أن أجرى صدقى تعديلاً فى قانون المطبوعات وقد أباح هذا التعديل لمن يملك جريدة سبق إلغاؤها أن يعيد إصدارها، بشرط أن يدفع تأميناً قدره ١٥٠جنيهاً نقداً أو يقدم ضماناً من أحد البنوك.

ولم يكن لدى ١٥٠ جنيه حتى أدفعها تأميناً. إذ كنت فى ذلك الوقت أنفق كل ما يصل إلى يدى من المال فى تدعيم المجلة ولم يكن ممكناً أن يعطينى أى بنك خطاب ضمان وليس لى حساب فى أى واحد منها. وكنت أعرف الدكتور فؤاد رشيد لاهتمامه القديم بفن التمثيل، فعرفنى بشقيقه الأستاذ إبراهيم رشيد، وكان إبراهيم رشيد شاباً، شديد الذكاء، ولم يكن مدير مكتب إسماعيل صدقى فحسب.. بل كان قطعة ناطقة منه ويملك أن يتصرف ويتكلم باسمه..

واتصلت بالأستاذ إبراهيم رشيد تليفونياً وقلت له إننى لا أملك مائة وخمسين جنيها أسترد بها رخصة المجلة فما رأيك؟.

وكان إبراهيم رشيد يحرص على إرضاء من يتصل بهم ويحرص على اجتذاب الصحف إلى جانب صدقى فغاب برهة ـ لعله اتصل فيها بصدقى ـ ثم عاد وقال لى إن الحكومة ستكتفى منى بتقديم ضمان شخصى..

وفعلا، تقدم المرحوم عبد الحميد البنان ضامنًا لى، وكان من أعضاء الوفد البارزين، ومن «شلة» ماهر والنقراشى بالذات.

وقد عجبت لتصرف إسماعيل صدقى هذا وكنت أسائل نفسى كيف يتبرع لى بهذا التسهيل، وأنا أشن عليه حملات بالغة العنف والقسوة.. ثم مرت سنوات.. وقد علمت بعد ذلك أن صدقى كان يحترم «روز اليوسف» احترامًا شديدًا.. إذ كانت المجلة الوحيدة التى تقتصر فى هجومها على تناول المسائل السياسية العامة فقط دون أن تتعرض للشخصيات كما كانت تفعل سائر الصحف.

ومضى صدقى فى سياسته المضادة للشعب إلى آخر الطريق.. فألغى دستور سنة ١٩٢٣.. وفاجأ البلاد بدستور جديد أسماه دستور سنة ١٩٣٠ كان الجديد فيه أنه زاد من سلطات الملك، وأنه جعل الانتخاب على درجتين. ثم ألف حزبًا أسماه «حزب الشعب» وأصدر له جريدة يومية باسم "الشعب" وأعلن عن موعد الانتخابات..

كان صدقى يستكمل لحكمه كل "أشكال" الشرعية.. حزب وبرلمان وأغلبية وجريدة.. دون أن يكون له "جوهر" الحكومة الشرعية وهو التأييد الحقيقى لأغلبية المواطنين.. أكان يغيب عن ذكاء صدقى أن كل هذا البناء الذى يقيمه لا يجدى فتيلاً ما لم يستند إلى رضا الناس؟.. أكان يجهل أن كل ما يصنعه سوف يتداعى وتذروه الرياح ما دام الناس له كارهين؟..

لقد كان صدقى يقول إن مصر فيها ثلاث قوى هى: الإنجليز والملك، والوفد.. وأن ارتباك أحوالها يعود إلى تصارع هذه القوى

الثلاث.. ولن تستقيم الأحوال حتى يتم الخلاص من إحدى هذه القوى على الأقل.

وكان الملك فؤاد يؤيد هذه السياسة على خط مستقيم.. وقد أشيع مرة أن البوليس قتل خمسمائة عامل، وبلغ النبأ الملك فؤاد فقال بلكنته التركية: بس كده؟!.

وكان الوفد فى عنفوان قوته فقاد الشعب إلى مقاومة عنيفة.. كان النحاس يجوب البلاد فى رحلات تؤكد كراهية الشعب للحكومة ويسقط فيها القتلى عشرات.. وكانت محاولات الاغتيال تجتاح البلاد.. وحين فتح صدقى باب الانتخاب أعلنت الأحزاب مقاطعتها للمعركة.. وكنت أطوف على دوائر الانتخاب فأراها خاوية، والدكاكين القريبة منها مغلقة، ومع ذلك فقد أعلن صدقى أن حزبه فاز، وأن عدد الذين اشتركوا فى المعركة ٨/ ٦٧.٧٪ من الناخبين.. وكان رقمًا مزيفًا طبعًا، فسار هذا الرقم مثلا تتهكم به الصحف على صدقى زمنًا طويلاً..

وكان صدقى يباشر بنفسه كل شىء.. ويقاوم الأعاصير بأعصاب حديدية. وكما كان يستخدم القوة فى قهر الرأى العام، كان كثيراً ما يستخدم الحيلة.

حدث أن قرر الوفد أن يخرج النحاس على رأس أعضاء مجلس النواب المنحل فى مظاهرة كبيرة تقتحم أبواب البرلمان. وعلم صدقى ذلك فأطلق إشاعة قوية تقول إن البوليس سيقاومها بضرب النار وأن النية مبيتة على قتل النحاس شخصيًا وكانت النتيجة أن عدل الوفد عن هذا القرار، واكتفى بإرسال عريضة إلى الملك.. وكان

الناس يترقبون ما سيحدث فى ذلك اليوم وقد توترت أعصابهم إلى أقصى حد.. فلما تمخض الموقف عن عريضة.. كانت خيبة الأمل بالغة.

وحاصر البوليس يومًا عنابر العمال فى السكك الحديدية ليخمد ثورتهم.. وقتل منهم الكثيرين، ولكنه ظل عاجزًا عن اقتحام العنابر، إذ كان العمال يستعملون خراطيم المياه الضخمة فى إبعاد رجال البوليس.. وأرسل البوليس إلى صدقى يخطره بهذا المأزق، فقال ببساطة: اتصلوا بشركة المياه لتقطع عنهم الماء!..

وفى مرة ثالثة خرج النحاس على رأس رجال الأحزاب فى رحلة إلى طنطا.. وكان صدقى قد أمر بمنعهم من السفر، ولكنهم استطاعوا أن يقتحموا المحطة ويركبوا القطار.. ودون أن يشعر أحد، أمر صدقى ففصلت العربة التى يركبها النحاس عن سائر العربات وتحرك بها قطار خاص إلى منطقة نائية فى الصحراء.. وتركتهم هناك!!.

وقد زاد الطين بلة،الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العالم فى ذلك الوقت، وكان نصيب مصر منها أن هبطت أسعار القطن هبوطًا فاحشًا وتراكمت الديون على الفلاحين، وبات الإفلاس يخيم شبحه على الريف كله.. وكان هناك مشروع قانون بإنشاء بنك التسليف فسارع صدقى بإصداره، وأجل دفع الديون، وأوقف إجراءات نزع الملكية.. مما أوقف حدة الأزمة...

ولجأ صدقى أيضا إلى فرض ضرائب جديدة ليدعم بها الميزانية.. دون أن يشعر الناس بوطأتها.. ففرض ضريبة الدمغة

لأول مرة.. وكان للصحفيين حق السفر على السكك الحديدية مجانًا.. فجعلهم يدفعون ربع الأجرة، ولم يبال بغضبهم فى وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى قلم واحد يؤيده.

والغريب أن تكون هذه الوزارة التى ظفرت بأكبر قسط من سخط الناس، أطول الوزارات عمرًا فى تاريخنا البرلمانى كله.. وهذا يدل دلالة قوية على القوى التى كانت تحرك السياسة فى مصر.

وحين سقط صدقى تخلى عنه كل شىء تخلى عنه حزبه. وتخلت عنه جريدته. وتخلت عنه "الأغلبية" التى أوجدها من العدم. وتلك نتيجة طبيعية. فالبناء الذى يقام على السلطان يذهب بذهاب السلطان، وما تأتى به الريح تذهب به الزوابع؟

لقد كانت الدعوى التى استند إليها هذا النوع من الحكم أن الشعب جاهل لا يصح أن يتولى حكم نفسه قبل أن يرتقى ويتعلم.. ولكن.. ألم يكن من الأجدر بالحكام لو أن هذا الجهد الذى بذل فى محاربة المصريين، أنفق فى تركهم يمارسون الحكم، ويتعلمون؟..

لقد ذهبت هذه السنوات من عمر المصريين بددًا. فأن بقى منها شىء يذكر لها ففى أوله طريق الكورنيش. وبالرغم مما آثاره خصوم صدقى حوله من اتهامات بشأن هذا الطريق.. فإنه بغير شك عمل مجيد.. ولا أذهب إلى الإسكندرية مرة وأرى كيف خلقها هذا الكورنيش خلقًا جديدًا، إلا وأذكر فضل صدقى، الذى صنعه فى سنتين اثنتين فقط ...

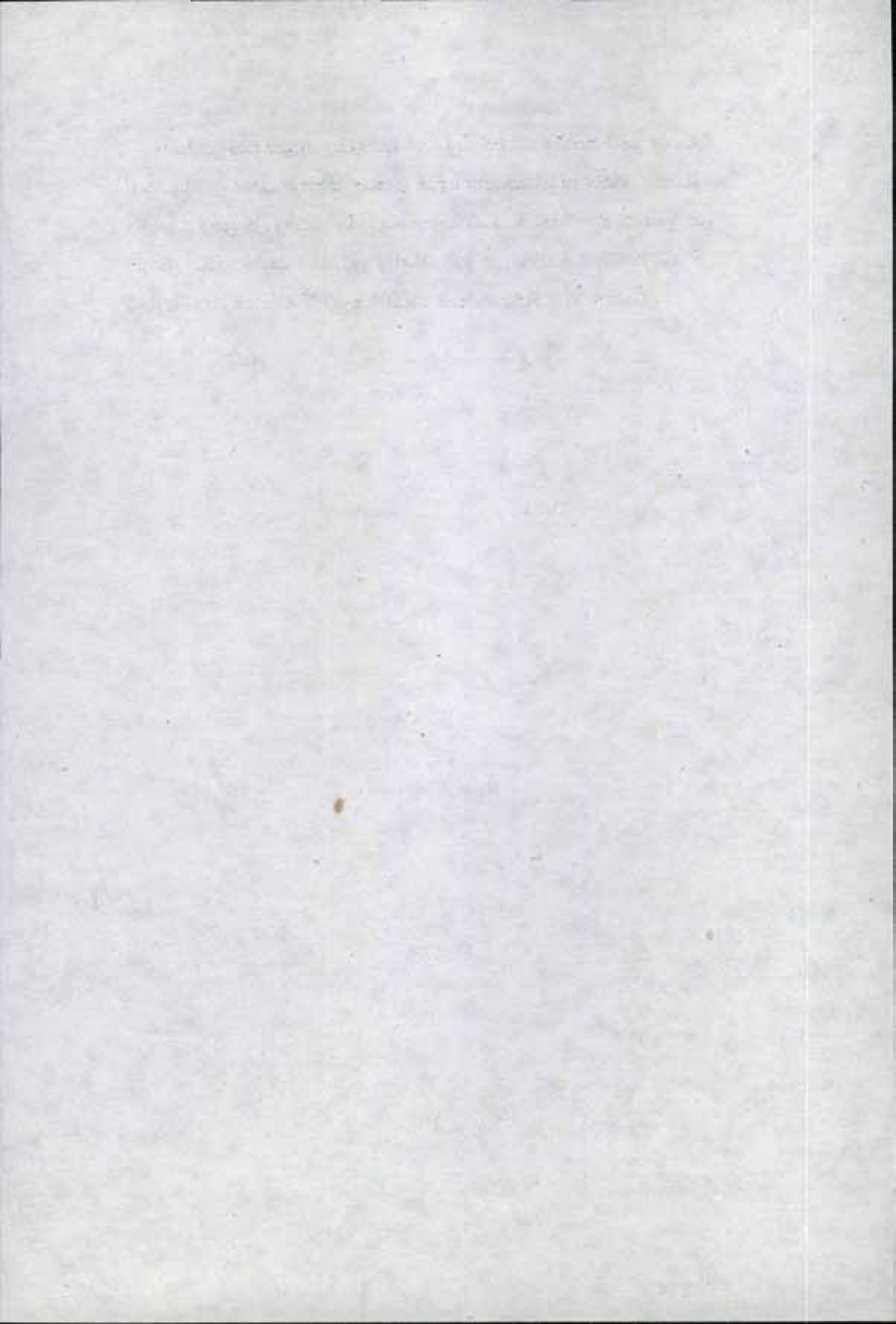
ومن العقبات التى صادفت صدقى فى شق الكورنيش، ثكنات مصطفى باشا التى كان يحتلها الإنجليز، والتى كانت بين الشاطئ

والثكنات.. وقالوا فى تبرير ذلك إنه لا يصح أن تعبر العائلات الإنجليزية الشارع لكى تصل إلى البحر.. وكان مدير البلدية رجلاً من رجال صدقى، الأستاذ أحمد صدقى، فأقام مأدبة دعا إليها الجنرال روبرتسون ـ وكان من الضباط المسئولين فى ثكنات مصطفى باشا ـ وأقنعه بأنه يمكن حفر نفق تحت الكورنيش يستعمله الإنجليز للوصول إلى الشاطئ دون أن يعبروا الشارع، ووافق الإنجليز على الاقتراح..

لم أر صدقى طوال المدة التى قضاها فى الحكم، ولكننى تعرفت عليه بعد ذلك بسنوات، وعرفت فيه حينئذ رجلا نادرا فى صفاته الشخصية بغير شك، ذكيًا، مجاملاً، دائم الابتسامة، تصدر عنه الآراء الصائبة فى سهولة ويسر دون أن يكدح فى سبيل العثور عليها..

وكانت آخر مرة رأيته فيها حين ألف وزارته الأخيرة سنة ١٩٤٦.. وطفت معه بعض شوارع القاهرة والمظاهرات الصاخبة تحيط بثكنات الإنجليز.. وتريد الهجوم عليها والاشتباك بين الإنجليز والمصريين ينذر بالخطر.. وكان صدقى قد تغير.. لم يعد الجبار القديم الذى يلقى أقسى التعليمات بلا مبالاة، بل أصبح رجلا شيبته التجارب وروضت الحوادث صلابته.. فهو يلجأ إلى الحيلة دون سواها.. ويحاول أن يكسب باللين قبل أن يكسب بالشدة.. ولكنه ظل فى آخر لحظة فى حياته دائب النشاط، دائم التفكير، لا يترك مناسبة إلا ويتحدث فيها ويعلن رأيه صريحًا بلا مواربة.. لم يكن كغيره من الزعماء الذين إذا خلعوا ثياب السلطان انزووا فى بيوتهم ومثلوا أدوار الصمت الحكيم وهو فى الواقع صمت الفراغ والاستخذاء...

وسافر صدقى إلى فرنسا ليموت هناك وكانت آخر صيغة أرسلها إلى مصر رسالة ينصح فيها بالتمسك بأحكام الدستور دائما.. وفى كل وقت.. وهى نصيحة ثمينة جداً.. إذ تصدر عن الرجل الذى حارب الدستور وألغاه، فهو فى خاتمة حياته، وبعد كل تجاربه، يعترف بأنه لا يعرف للبلاد صخرة نجاة.. إلا الدستور!.



الفصل الثامن

- حذاء المندوب السامى فى عهد الملك فؤاد
- أول خلاف بينى وبين الوفد
- تشرشل لا يسمح للصحفيين المصريين بالجلوس

كان المفروض أن تعيش وزارة صدقى عشر سنوات على الأقل.. أو هكذا رسم الإنجليز والملك فؤاد خطتهم، وكان أصدقاء صدقى لا يكفون عن ترديد هذا الذى استقر عليه العزم.. وما الذى ينقصهم لإنفاذ هذه الخطة؟.. أن القوة فى يدهم، والقصر يسندهم، والشعب مهما سخط أو غضب فهو عاجز عن اقتلاع الوزارة من الحكم. ودستور ١٩٢٣ سوف ينساه الناس بعد قليل!

على أنه لم تمض ثلاث سنوات على ميلاد دستور سنة ١٩٣٠ حتى أخذ ينتشر إحساس عام بأن هذه الحالة الشاذة لا يمكن أن تدوم.. وأن هذا النظام الذى أقيم على أسنة الرماح لا يستطيع أحد أن يجلس عليه طويلاً..

وبدأت الخلافات والعقبات تتراكم فى الأفق..

بدأ الملك فؤاد يتخلى عن صدقى بعد أن أدى مهمته، وظهر ذلك فى صورة خلافات حادة نشبت بين صدقى وبين زكى الإبرا شى وكيل الديوان الملكى ورجل الملك الأول فى ذلك الوقت..

وقرر الإنجليز أن يغيروا سياستهم ـ كما تعودوا أن يصنعوا من حين لآخر ـ فنقل سير برسى لورين الذى كان يسند صدقى من مصر وعين بدلا منه سير مايلز لامبسون.. وكان سير مايلز لامبسون قبل ذلك سفيراً لإنجلترا فى الصين ونجح فى عقد معاهدة هناك، فرأى الإنجليز أن يستفيدوا من مواهبه فى مصر.

وشعرت الوزارة أن الأرض تميد تحت الأقدام، وبدأ الأنصار يرسمون خطط الفرار من السفينة الغارقة. واشتد الخلاف بين حزب الاتحاد ـ الذى أسسه على ماهر ويحيى إبراهيم ـ وحزب الشعب، وهما الحزبان اللذان كانا يشتركان فى الحكم..

وفعلا.. لم يمض على وصول سير مايلز لامبسون إلى القاهرة شهران حتى قدم صدقى فى منزله وقال له إن الملك قبل استقالته، وكان ذلك قبل أن يقدم صدقى استقاله! وقيل إن مراد محسن ناظر الخاصة الملكية زار صديقى فى منزله وقال له: إن الملك قبل استقالته وكان ذلك قبل أن يقدم صديقى استقاله! وقيل إن مراد محسن ناظر الخاصة الملكية زار صدقى فى منزله وقال له: إن الملك قبل استقالته وكان ذلك قبل أن يقدم صدقى أى استقاله، فأسرع صدقى يقدمها..

ولكن الملك فؤاد كان يأمل ـ بعد إخراج صدقى ـ فى أن يبقى النظام نفسه كما هو.. نفس البرلمان... ونفس الدستور.. وأن تظل الوزارة الجديدة مستندة إلى حزبى الشعب والاتحاد..

وعهد الملك فؤاد إلى عبد الفتاح يحيى بتشكيل الوزارة وكان مسافرًا فى أوروبا.. وشكلت الوزارة واختير الوزراء فى مصر قبل أن يصل الرئيس الجديد.. فكان ذلك صورة لمدى تدخل القصر فى الحكم..

وكان عبد الفتاح يحيى قبل ذلك وزيرًا فى وزارة صدقى.. ووكيلا لحزب الشعب، ثم وقعت حوادث مشهورة باسم حوادث البدارى، كانت صورة من صور استبداد الإدارة فى ذلك العهد بالأهالى وبالفلاحين بالذات. ووصلت قضية البدارى إلى محكمة النقض والإبرام وكان يرأسها عبد العزيز فهمى.. وأصدرت محكمة النقض حكمًا أثبتت فيه اعتداء البوليس على الأهالى ووصفت تصرف الحكومة بأنه «إجرام فى إجرام» وأراد عبد الفتاح يحيى أن يحقق فى حوادث التعذيب على ضوء هذا الحكم.. ورفض صدقى خشية أن يكشف التحقيق عن سائر تصرفات الحكومة نحو الأهالى.. فاستقال عبد الفتاح يحيى احتجاجا.. وأعلن أنه مستقيل أيضا من منصب وكيل حزب الشعب!..

فلما أصبح عبد الفتاح يحيى رئيسًا للوزارة، كانت الخطة الموضوعة له أن يستند إلى أغلبية حزب الشعب فى البرلمان. فأعلن عبد الفتاح يحيى أنه ما زال وكيلا لحزب الشعب!.. وأدخل فى وزارته وزيرين من حزب الشعب هما على المنزلاوى وإبراهيم فهمى كريم. واغتاظ صدقى من ذلك فجمع حزبه وأصدر قرارًا بفصل الوزيرين على المنزلاوى وإبراهيم فهمى كريم! وكان معنى ذلك أن حزب الشعب سيعارض الحكومة.. وهنا لوحت السلطة لنواب

الحزب بحل المجلس، وهم يعرفون أنهم لا سند لهم فى المجلس غير رضا السلطات، فأسرعوا يصدرون قرارًا آخر بالترحيب بالوزيرين.. وصدر القرار رغم أنف صدقى.. الذى لم يلبث أن استقال من رئاسة الحزب..

ومرت بمصر فترة مائعة، غريبة.. القصر لا يهمه إلا أن يحتفظ بسلطته كاملة.. ومعنى ذلك الا يعود دستور١٩٢٣ بأى شكل.. والشعب قد قاوم مقاومة عنيفة، وبذل أقصى ما يستطيع من جهد.. فهو لا يرضى بدستور١٩٢٣ بديلا. والإنجليز يقفون فى الوسط محاولين أن يستفيدوا من هذا الخلاف إلى أقصى حد طبقًا لخطتهم التقليدية.. فهم حينا يؤيدون القصر فى استبداده حتى يضعفوا من قوة الشعب، ويمزقوا صفوفه.. وحينا يمثلون دور الملائكة فيرضون الملك على الرضوخ ـ بعض الشىء ـ لمطالب الوفد ليكسروا حدة السخط من جهة، وليشعروا الملك بأنه ـ لا يزال ـ من صنع أيديهم، وأنه مدين لهم وحدهم بالعرش الذى يجلس عليه.

أما الوزارة الجالسة فى الحكم.. سواء كانت وزارة صدقى أو وزارة عبد الفتاح يحيى، فهى الريشة فى مهب الرياح.. هى الدمية التى تتحرك بأوامر القصر وفى حدود سياسة الإنجليز.. فهى تستمد وجودها من رضاهم، وبقدر ما تنجح فى إرضائهم بقدر ما تمد لها أسباب الحياة.

وكان الناس يرون من آيات تدخل الإنجليز والقصر عجبًا. كان زكى الأبراشى ناظرًا للخاصة الملكية فهو إذًا غير مسئول فى المسائل السياسية، ولكن إلغاء الدستور أو تعطيله معناه ـ دائما ـ أن

تنتقل خيوط السياسة إلى أيدى غير المسئولين. وذلك وضع قديم وجد منذ بدأت الاعتداءات على الدستور، لا فى أيام فاروق وحده كما يتوهم الناس.. وقد بلغ من تدخل الإبراشى فى شئون الحكم أنه كان يحضر اجتماعات مجلس الوزراء ليملى رغباته، أقصد ليملى رغبات مولاه!!

وكانت «روز اليوسف» لا تكف عن مهاجمة هذا الوضع الشاذ.. وقد كتبت مرة تقول:... فى أوائل حكم صدقى باشا خطف سعادة زكى الإبراشى باشا رجله وذهب يحضر اجتماع مجلس الوزراء.. ونشرت إحدى الصحف الخبر، وزفت البشرى لقرائها بأن زكى باشا وصدقى باشا يحبان بعضهما موت، ولذا لا يطيقان الفراق لبضع الساعات التى يجتمعها مجلس الوزراء! ولكن الحكومة أصدرت فى اليوم التالى بلاغًا رسميًا تقول فيه إن الإبراشى لم يحضر جلسة مجلس الوزراء.. وبقى زكى باشا يحضر جلسات مجلس الوزراء على عينك يا تاجر.

«وولت وزارة صدقى باشا وحلت مكانها وزارة عمى توحه باشا (أى عبد الفتاح يحيى باشا) وأحس زكى الإبراشى باشا بأن الوزارة الجديدة أضعف من أن يرهقها بزغراته الدائمة فقلل من حضور اجتماعات وجلسات مجلس الوزراء.. ثم ذكرت إحدى الصحف منذ يومين أن سعادته حضر اجتماعًا ـ لا مجلسًا ـ للوزراء، فراحت صحف الوزارة تكذب الخبر وتقول: والنبى أبدًا!»

هذا عن القصر.. أما عن الإنجليز.. فقد كان اليوم لا يمر دون حادث صغير أو كبير ـ يؤكد فى الأذهان أنهم محتلون وأنهم غاصبون.

فى وزارة صدق ذهب الملك فؤاد إلى الاحتفال الذى أقيم لاستقبال أول طيارين مصريين يعودون من إنجلترا ... وكان يجلس بجوار الملك السير برسى لورين المندوب السامى الإنجليزى.. وجلس السير برسى لورين فى مكانه، ثم وضع ساقًا على ساق، بحيث أصبح نعل حذائه يواجه وجه الملك تقريبًا..

والتقطت الصحف الصورة ونشرتها.. وشنت «روز اليوسف» حملة عنيفة على هذا التصرف العجيب، الذى يكشف عن نوع العلاقة بين الملك والإنجليز.

وكان سير برسى لورين متزوجًا من سيدة بارعة الجمال لعلها من أجمل سيدات السلك السياسى اللائى عرفتهن مصر وكانت فى الحفلات قبلة الأنظار، وكعبة القصاد من الوزراء المصريين والطامعين فى الوزارات.

وفى وزارة عبد الفتاح يحيى، كان السير ما يلز لامبسون فى إجازة وناب عنه مستر بيترسون.. وفوجئت الوزارة يوما ببيترسون يزور مصالح الحكومة، ومرافق الدولة.. ويفتش عليها، كأنه هو الرئيس المسئول عنها.

واهتزت الحكومة اهتزازًا عنيفًا.. ثم لم تحرك ساكنًا!

هكذا مضت تلك الأيام الغريبة بين إلغاء دستور ١٩٢٣ وبين إعادته.. لم تنفع كل مظاهر السلطة والسلطان فى أن تغير من الأمر الواقع شيئًا وهو أن الناس ساخطون على النظام، كارهون له.. وأن كل سلطة تذهب وكل سلطان يزول.. ويبقى الناس. ما يحبون.

واتفق الجميع على أنه لابد من التغيير.. وبدأ المرشحون لرئاسة وزارة الانتقال يلمعون.. وكان المرشحون ثلاثة: على ماهر وحافظ عفيفى وتوفيق نسيم. الأول ترشحه السراى، والثانى يرشحه الإنجليز، والثالث أقرب من زميليه - قليلا - إلى إرضاء الرأى العام أو كان حلاً وسطًا بين القصر والوفد والإنجليز.. خصوصًا وقد عرف أنه اشترط لقبوله الرياسة أن يعاد دستور ١٩٢٣.

وشكل توفيق نسيم الوزارة..

وفى هذه الأيام، وقع أول خلاف بينى وبين الوفد، وكان خلافًا بسيطًا..

فقد كانت سياسة الوفد تقوم - بعد سقوط صدقى - على مهادنة المندوب السامى الإنجليزى الجديد استنادا إلى البوادر التى توحى بأنه سيتخلى عن هذا العهد ويؤيد إعادة دستور ١٩٢٣ وعلى العكس من ذلك ظل الوفد على معاداته الشديدة للقصر ومقاطعته للملك فؤاد.. وحدث يومًا أن نشرت خطابًا مفتوحًا إلى الملك فؤاد بالمطالبة بإعادة الدستور وإنهاء الحالة الشاذة القائمة.

واستدعانى مكرم عبيد وقال لى: كيف تكتبين خطابًا مفتوحًا للملك؟ لقد ظن الناس أننا نريد بذلك مصالحة الملك وهذا غير صحيح، فمن قال لك بكتابة هذا الخطاب..

ودارت بيننا مناقشة طويلة أوضحت له فيها أنى لا أعبر عن رأى أحد.. إلا عن رأيى الخاص.. وحاولت بعد ذلك أن أقابل النحاس لأشرح له وجهة نظرى فى الموقف السياسى، ولكننى لم أستطع إذ كان الأستاذ مكرم عبيد هو الذى يتحكم فى مقابلات النحاس.

وفى هذه الأثناء كان الأستاذ التابعى قد خرج من السجن وأخذ يستعد للسفر إلى أوروبا.. وكنت أعرف هناك خطراً يهدد التابعى من جراء معاداة الحكومة له وبعض القضايا الأخرى فشجعته على السفر بشدة ليبعد بنفسه عن الخطر فى هذه الظروف.

ولما سافر التابعى، التقيت بصديقى الأستاذ الكبير خليل ثابت وقال لى إنه ينصح بأن يبقى التابعى فى الخارج... ثم طلب منى ألا أذكر لأحد أنه أسدى إلى هذه النصيحة.

وأرسلت إلى التابعى مرة أخرى أطلب منه ألا يعود الآن والأستاذ خليل ثابت رجل أحترمه وأصدق ما يقول. ولست أنسى له قصة طريفة وقعت أثناء زيادة تشرشل لمصر خلال الحرب العالمية الأخيرة، إذ دعى الصحفيون المصريون إلى السفارة البريطانية ليقابلوا تشرشل... ودخل خليل ثابت قاعة الاجتماع فوجد الصحفيين واقفين، ووجد القاعة خالية إلا من مقعد واحد كبير أعد ليجلس عليه تشرشل... وأسرع خليل ثابت إلى كبار موظفى السفارة يحتج على ذلك وطلب إما أن يدفع مقعد تشرشل أيضا وأما أن توضع مقاعد لكل الصحفيين الحاضرين.. وإلا فإنه سوف ينسحب.. وفعلا انسحب خليل ثابت، ولم يقابل تشرشل.

وعاد التابعى من أوروبا.. لتقع بيننا الخلافات التى انتهت بخروجه..

فقد أخذ المحيطون بالأستاذ التابعى يدفعونه إلى الخروج والانفراد بعمل مستقل.. وكان من جراء ذلك أن تعكر الجو وتوالت الخلافات على التافه والجليل. ولما اشتد الخلاف استدعانى الأستاذ مكرم عبيد ـ وكان يحب التابعى على العكس من مصطفى النحاس الذى كان اطمئنانه إلى أكثر ـ استدعانى ليتوسط فى

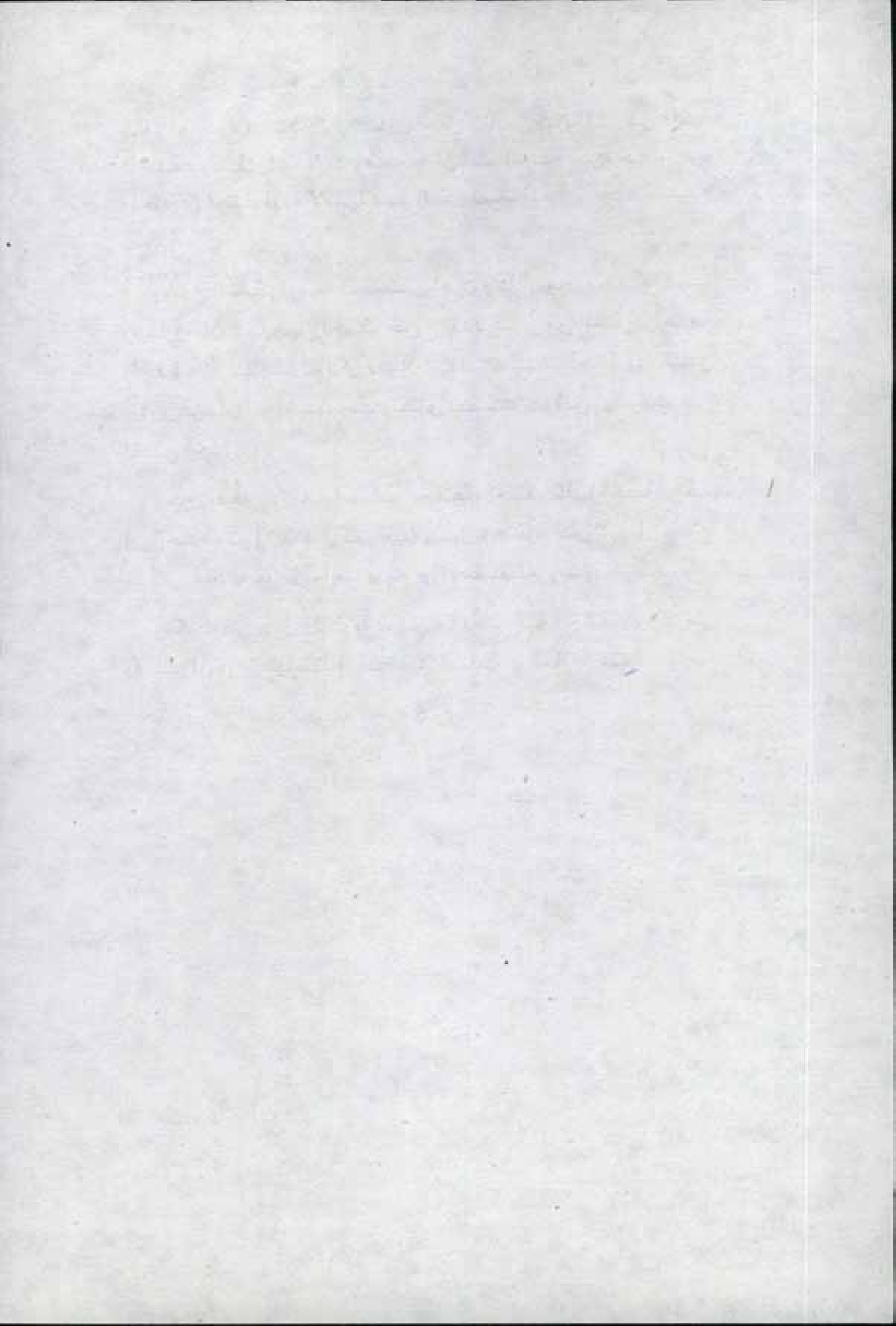
الأمر، واقترح لتسوية الخلاف أن أجعل التابعى شريكا لى فى ملكية المجلة.. ولكنى اعتذرت وقلت له إن اسم المجلة شىء خاص بى، وأحب أن احتفظ به لابنى! فهو الذى يستطيع أن يحافظ عليه بعدى..

وخرج التابعى ومعه مصطفى أمين وعلى أمين وسعيد عبده وصاروخان غيرهم، وأحدث خروج عدد كبير من المحررين دفعة واحدة هزة للمجلة لم يكن سهلاً التغلب عليها. وأحاط بى الناس ينذروننى بأن المجلة ستموت. ولكننى تمسكت بموقفى. وعزمت على المضى وحدى..

وحين أفكر الآن فى أسباب الخلاف، أجدها كلها تافهة، وأجد أن الخلاف ثم الانشقاق كان طبيعيًا، بل وحتميًا، كان لابد أن يخرج هؤلاء.. وأن يسير كل واحد منهم وراء مستقبله، ويشق طريقه..

وفكرت فى عمل أثبت به عكس ما ذهب إليه الخائفون. وأبرهن به على أن «روز اليوسف» راسخة لا تضعف... فماذا أصنع؟..

قررت أن أصدر جريدة يومية كبرى.



الفصل التاسع

- العقاد لا يكتب فى جريدة تحمل اسم «واحدة ست»!
- آخر مرة قابلت فيها مصطفى النحاس
- الطريق نحو الصحافة اليومية الحديثة

نويت أن أصدر جريدة يومية كبرى..

وذهبت أستخرج رخصة الجريدة باسم «روز اليوسف اليومية» ومرة أخرى اعترض الكثيرون من أصدقائى على اختيار هذا الاسم، ولكنى وجدت أن «روز اليوسف» قد أصبح اسما معروفًا، وأن وضعه على الجريدة اليومية سوف يغنينى عن حملة الإعلانات الضخمة التى سيكون على القيام بها لو اخترت للجريدة اليومية اسمًا جديدًا..

وبدأت أفكر فى رئيس التحرير الذى يمكن أن أستعين به.. واتجه ذهنى أول الأمر إلى الأستاذ فكرى أباظة.. وفعلا اتصلت به وعرضت عليه العمل.. ونظر إلى فكرى مندهشًا لا يكاد يصدق أننى أقدم على هذا العمل.. ولما أزلت دهشته قال إن الجريدة ستكون وفدية طبعًا، وإنه كعضو فى الحزب الوطنى لا يستطيع أن يكون

رئيس تحرير جريدة يومية تنطق بلسان الوفد.. وقلت إن الجريدة وإن كانت ميولها وفدية، إلا أنها مستقلة إلى حد كبير. والوفد كالحزب الوطنى يتزعم مقاومة إنجلترا التى نتفق جميعًا على معاداتها.. ولكنه تمسك بموقفه واعتذر مرة أخرى..

ورشح لى بعض الأصدقاء الدكتور محمود عزمى.. وكان الدكتور عزمى يكتب هو والأستاذ العقاد فى «الجهاد» جريدة الوفد الصباحية الأولى.. ولكنهما كانا مختلفين مع الأستاذ توفيق دياب صاحب «الجهاد» والتقيت بالدكتور عزمى وشرحت له الفكرة فرحب بها.. وتحمست السيدة زوجته لفكرة خروجه من «الجهاد». واتفقنا على أن نلتقى فى مكتب الأستاذ إبراهيم عبد الهادى ـ المحامى ـ لنكتب العقد..

وقد أبدى لى الأستاذ إبراهيم عبد الهادى تخوفه من الدكتور عزمى وقال لى إننى لن ارتاح فى العمل معه.. ولكنى طمأنته.. وجاء الدكتور عزمى وكتبنا.. العقد، وكان يقضى بأن يكون مرتبه الشهرى ستين جنيهًا فضلا عن خمسين قرشًا عن كل ألف نسخة توزع بعد العشرة آلاف نسخة الأولى.. على أن يبدأ العقد من أول مارس ١٩٣٥وعلى أن يكون الأستاذ إبراهيم عبد الهادى هو الحكم بيننا إذا اختلفنا فى تفسير العقد.. وطلب الدكتور عزمى مرتب شهرين مقدمًا دفعتهما له فوراً.. وبدأ يتردد على الإدارة ويشاركنى فى الاستعداد لإصدار الجريدة..

وفكرت فى أن أضم الأستاذ العقاد أيضا إلى أسرة الجريدة، وذهب إليه رسول يجس نبضه.. وسأل العقاد:

الجرنال حيكون اسمه إيه؟

«روز اليوسف اليومية»..

لا.. أنا لا أعمل فى جرنال يحمل اسم واحدة ست!! ولكن الرسول لم ييأس من هذا الموقف فمضى يفاوضه.. وعدل الأستاذ العقاد عن موقفه نظير بعض الشروط المالية: أن يكون مرتبه ٨٠ جنيهًا فى الشهر - وكان مرتبه فى الجهاد ٧٠ - وأن يأخذ مرتب أربعة شهور مقدمًا تخصم من مرتبه بالتقسيط - ٢٠ جنيهًا كل شهر - وأن تكون سياسة الجريدة وفدية!..

ووافقت على هذه الشروط كلها، كانت شروطى أن يكتب مقالاً افتتاحيًا كل يوم، وصفحة أدبية كل أسبوع..

وكتبنا العقد فى مكتب الأستاذ إبراهيم عبد الهادى أيضًا. ونص فيه على أن سياسة الجريدة وفدية.

وقد عاتبت الأستاذ العقاد بعد ذلك على كلمته عن العمل فى جريدة تحمل اسم سيدة، فقال إنه لم يقصد إلى كونها تحمل اسم سيدة، بل كان اعتراضه على تسمية الجريدة باسم شخص أيا كان.. ولو كانت الجريدة تحمل إسم سعد زغلول نفسه لأبدى نفس الملاحظة..

خروج محمود عزمى والعقاد إذًا من الجهاد لينضما إلى تحرير الجريدة الجديدة وخرج بعدهما توفيق صليب سكرتير التحرير ليكون سكرتير لتحرير «روز اليوسف».. فأدى ذلك إلى أزمة عتيقة كانت لها آثار بعيدة.. فقد كان عزمى والعقاد هما أكبر كاتبين فى «الجهاد» وخروجهما إلى جريدة منافسة توشك على الصدور إضعاف له بغير شك، وكان «الجهاد» هو الجريدة المقربة إلى

الأستاذ مكرم عبيد سكرتير الوفد وصاحب الكلمة العليا فيه.. وكان ثمة فتور بين مكرم من ناحية وماهر والنقراشى من ناحية أخرى.. فظن مكرم أن ماهر والنقراشى يدفعانى إلى إصدار الجريدة إضعافًا لتوفيق دياب ولـ «الجهاد» التى يوجهها مكرم، فى حين كان ماهر يكتب فى «كوكب الشرق» التى تصدر مساء. ولم يكن هذا الظن على شىء من الصحة، فقد أصدرت الجريدة اليومية كما أصدرت المجلة الأسبوعية بغير دافع إلا من نفسى.. واستطاع مكرم أن يقنع مصطفى النحاس بذلك فتكونت لديه فكرة ضد الجريدة قبل صدورها.. خفف منها بعض الشىء زيارة قام بها العقاد للنحاس.. أوضح له فيها أن الجريدة الجديدة وفديه كـ "الجهاد".. وإنه يخدم بقلمه نفس المبدأ الوفدى فى المكان الذى يريحه.. وكان ثمة سبب زاد تشكك النحاس فى الجريدة.. هو ما أشرت إليه من قبل من مهاجمتى لوزارة توفيق نسيم بعنف فى الوقت الذى كان الوفد فيه يهادن وزارة توفيق نسيم ويسندها..

واستدعانى مصطفى النحاس لمقابلته.. وذهبت إليه فى بيت الأمة.. وكان يجلس على مكتب سعد زغلول، وقد وضع فى عروة جاكتته وردة حمراء يانعة ـ وكان قد تزوج حديثًا ـ فلم يكد يرانى حتى لوح بالمجلة فى يده وصاح فى وجهى:

إيه القرف اللى انتو كتبينه؟..

ودهشت لهذه المفاجأة، فوقفت ذاهلة لحظة ثم قلت

فيه إيه يا باشا؟

فصاح:

أنتى بتعارضى وزارة توفيق نسيم ليه؟

وزارة توفيق نسيم جابها الإنجليز والسراى.. وهى التى تؤجل عودة الدستور.. إزاى ماهاجمهاش؟..

فقاطعنى قائلا:

لا يا ستى!. أنا ما أحبش تناقشينى فى السياسة.. أنتى يعنى عايزة محمد محمود وصدقى يرجعوا؟ احنا تعبنا وخرجت قبل أن يتم حديثه.. وكلمة" احنا تعبنا " التى أسمعها منه لأول مرة ترن فى أذنى، ولا تزال إلى الآن!! وقد شعرت أن هناك شيئًا يباعد بينى وبين الوفد.. وإن بقيت المجلة وفدية، وبقيت الخطة المقبلة للجريدة اليومية مبنية على تأييد الوفد..

وهدأت أزمة خروج العقاد وعزمى من «الجهاد» لتنشب أزمة أخرى..

فقد كنت عازمة على أن تصدر الجريدة صباحية، وكان هذا أيضا مما يسىء إلى " الجهاد" التى كانت تصدر صباحية.. وطلب مكرم عبيد أن تصدر الجريدة مسائية ولكنى رفضت.

وكانت العادة قد جرت على أن يذهب كل من يريد أن يصدر جريدة أو مجلة وفدية إلى مصطفى النحاس بوصفه زعيمًا للوفد.. يستأذنه فى الصدور، ويستمع إلى نصائحه وتوجيهاته، ويتلقى تأييده الأدبى.. وعقدت العزم فى أول الأمر على ألا أذهب إليه.. متأثرة بمقابلته السابقة لى.. ولكن الأستاذ العقاد أقنعنى بأن أنسى هذه المقابلة، وأن أذهب لزيارته كالعادة..

وفعلاً.. ذهبت مع الدكتور عزمى بوصفه رئيسًا للتحرير لمقابلته.. وما أن دخلنا عليه حتى قلت له:

إن شاء الله تكون راضى يا باشا

فأسرع يقول:

لا يا ستى أنا مش راضى..

قالها بطريقته البسيطة - بين المداعبة والجد - التى تنم عن قلب أبيض ونية خالصة.. وهى طريقة يمكن أن يتقبلها أى إنسان بلا غضب.. فضحكت. واستطرد قائلا:

انتو حتمشوا فيها زى المجلة ؟

فقلت:

زى ما أنت عايز يا باشا..

فرضى قليلا ثم قال:

وحتطلعوا الصبح ليه؟..

فشرحت له الموقف. وكيف أننا سنطبع الجريدة فى مطابع "البلاغ" ولما كانت " البلاغ" تصدر مسائية فلابد أن تصدر "روز اليوسف" صباحية.. فبان عليه الاقتناع.. وأن بدا أنه اقتناع غير كامل..

وتحدثنا بعد ذلك عن السياسة العامة طويلا ثم صافحته وانصرفت، ولم أكن أعلم أن هذه هى آخر مرة أقابل فيها مصطفى النحاس..حتى كتابة هذه السطور على الأقل! ومضت بنا دوامة الاستعداد لإصدار الجريدة.. وكنت مصممة على أن تولد من يومها الأول جريدة كبرى لا ينقصها شىء وجمعت لها أسرة تحرير ضخمة ضمت أبرز المحررين فى ذلك الوقت.. كان الدكتور محمد أبو طايلة

رئيسًا لقسم الأخبار والدكتور رياض شمس رئيسًا لقسم الأحاديث والدكتور محمد على صالح يحرر صفحة التجارة والصناعة.. وكان سكرتير التحرير توفيق صليب، وكان بين المحررين المخبرين كامل الشناوى (وكان له دور كبير سيجىء حديثه فيما بعد) ولطفى عثمان وعبد الصبور قابيل وراغب عبد الملك ومحمد حسنين مخلوف وحبيب جاماتى وعلى بليغ.. صفحة السينما يحررها أحمد كامل مرسى.. وصفحة الشباب يحررها يوسف حلمى.. وصفحات التسلية والصور والمجتمع يشرف عليها زكى طليمات.. الصفحة الشرقية يحررها جميل الرافعى وصفحة الأطفال تحررها «أبلة زوزو» - السيدة زكية عبد الحميد - وصفحة الأوراق المالية الأستاذ نجيب ولاية.

وكان مصور الجريدة الأستاذ محمد يوسف ورسامها للكاريكاتير رفقى.. وجعلت لها مندوبا فى لندن الأستاذ محمد نجيب.. ولست أذكر عشرات آخرين فى أقسام الترجمة والتحرير والتصحيح وفى الإسكندرية والأقاليم..

ولم تكن الصحافة اليومية قد عرفت قبل ذلك جريدة تحمل هذا السخاء فى الأبواب.. وأبواب جديدة تمامًا على الصحافة اليومية كأبواب الأطفال والتسلية.. ولم تكن الصحف اليومية قد حملت قبل ذلك رسمًا كاريكاتيريا قط.. حتى الأزهر كان له باب.. وعرفت الصحافة فيها أيضا التعقيبات الصغيرة الخاطفة التى شاعت الآن.. كان يكتبها كامل الشناوى ويوسف حلمى..

وانقطعت مع الأستاذ زكى طليمات والمرحوم رفقى نرسم خطوط تبويب الجريدة بصفحاتها الست عشرة.. وكان تبويبها فريدًا لم

يتكرر بعدها.. إذ جعلنا ترتيبها كالمجلات.. الصفحات السياسية فيها هى الصفحات الأولى المتوالية، لا صفحات الوسط كما هو شائع فى الصحف اليومية الآن، وحددنا يوم ٢٥ مارس ١٩٣٥ موعداً لصدورها..

وفى الأيام القليلة السابقة لموعد الصدوز بدأت بوادر المضايقات من جبهات شتى..

رفضت بعض الصحف أن تنشر إعلانات عن صدور الجريدة! وعين مكرم عبيد على بك سالم عضو الوفد المصرى مديراً لسياسة «الجهاد» ليشعر الناس أن «الجهاد» هى جريدة الوفد لا «روز اليوسف»..

ورفض النحاس أن يرسل كلمة يصدر بها العدد الأول، رغم أن كاتب الجريدة الأول هو كاتب الوفد الأول، الأستاذ العقاد..

وأردنا أن نستعيض عن ذلك كله، فأخذنا نبحث عن كلمة مأثورة نجعلها شعاراً للجريدة.. وتعبنا فى البحث حقاً، ولا حظ العقاد أن النحاس ـ على عكس سعد مثلا ـ لم تشتهر عنه كلمات مأثورة.. وأخيراً اخترنا قوله: من كذب بالأمة أو داخله فيها الشك فليس منها". وجاء اليوم الحاسم الذى يجب أن نعد فيه العدد الأول من الجريدة..

ومنذ الصباح الباكر ازدحمت الإدارة التى لم تكن تزيد على سبع غرف بهذا الحشد الهائل من الكتاب والمخبرين والفنانين، وكانت أسرة المجلة الأسبوعية قد انكمشت فى غرفتين فقط تاركة الخمس حجرات الأخرى لأختها اليومية الكبيرة..

كنت أنا أجلس فى غرفة واحدة مع العقاد. والدكتور عزمى يجلس ومعه سكرتير التحرير توفيق صليب، وزكى طليمات مع «الدكاترة» رؤساء الأقسام. والأربعون محررًا يحتشدون فى الصالة وبقية الحجرات.. و «الفراندة» قد جلس فيها الرسام وبعض موظفى الإدارة.. وبالقرب من المطبخ جلس المصور محمد يوسف.. وكل محرر يبحث لنفسه عن مكان فى الصالة، أو فى حجرة التليفون أو فى أى مكان يجد فيه موضعًا لقدم..

ومن حجرة العقاد كان يرتفع صوته الجهورى.. ومن حجرة أخرى تتصاعد فكاهات كامل الشناوى يرددها ضحك كبار الوفديين الحاضرين.. ومحمود عزمى غارق بين الأخبار والمقالات والفاكهة التى ألزمه الطبيب بتناولها اتقاء لمرض السكر.. والزوار والمشجعون من جميع الهيئات لا ينقطع سيل ورودهم ولا يخف..

وكنت أقف فى وسط هذه الدوامة.. مضطربة بعض الشىء لا تستقر عينى على واحد فى هذا العدد الهائل من رجال الصحافة الذين يعملون كخلية النحل.. وكنت ربما أدق الجرس لاستدعى محررًا ثم لا أصبر حتى يجىء، فأذهب إليه قبل أن يبرح مجلسه.. كان شعورى كمن ضغطت على مفتاح آلة هائلة، فلما تحركت الآلة وارتفع صوتها وقفت أتأملها فى مزيج من الفخر والقلق..

* ولما جاء المساء انتقل هذا الجيش من الصحفيين إلى جريدة «البلاغ».. حيث كان المرحوم الأستاذ عبد القادر حمزة (وكان قد خرج من الوفد) قد أعد كل شىء فى المطبعة لكى يستقبل مواد الجريدة.. وسهر الرجل تلك الليلة معنا، يشاركنا فى العمل والقلق، ويقول لى من حين لآخر: إنه من الجنون إخراج جريدة من ست

عشرة صفحة بهذا الشكل!. وعزمى بأعصابه الهادئة، ويؤكد أن كل شىء سيتم فى موعده المرسوم.. وأصدقاء الجريدة الكثيرون واقفون وعلى رأسهم الأستاذ حفنى محمود.

وكان الأستاذ عبد القادر حمزة قد أحاط المطبعة بعدد هائل من العمال لكى يراقبا الداخلين والخارجين الذين جاءوا من الصحف الأخرى يتجسسون على أنباء الجريدة الجديدة..

وطلب منى عبد القادر حمزة أن أدير الماكينة لأول مرة.. فأدرتها، ومضت الآلات تدوى وتخرج من باطنها الأعداد المتتابعة، وسقط أول عدد فى يدى، فتحته والدموع تتساقط من عينى..

واسترحت.. وهدأت أعصابى قليلا.

وتسرب ضوء الفجر من نوافذ مطبعة «البلاغ».. وبدأ بعض الساهرين ينصرفون، وجيش من باعة الصحف يتجمع حول المطبعة شيئًا فشيئًا.. وهمس فى أذنى أحد الحاضرين يقترح على أن أخرج إلى المدينة لأشهد ظهور الجريدة فى السوق، وخرجت من المطبعة وخلفى جيش طويل من المحررين إلى كازينو البسفور فى ميدان باب الحديد.. بوصفه أكبر ميدان فى القاهرة.. ولم نكد نجلس حتى شعرنا بالجوع فجأة ـ أو بالأصح تذكرناه فجأة! ـ فأسرعنا نطلب الطعام.

ولم نكد نضع اللقمة الأولى فى أفواهنا، حتى ترامت إلينا صيحات الباعة وهم يجرون من أطراف الميدان:

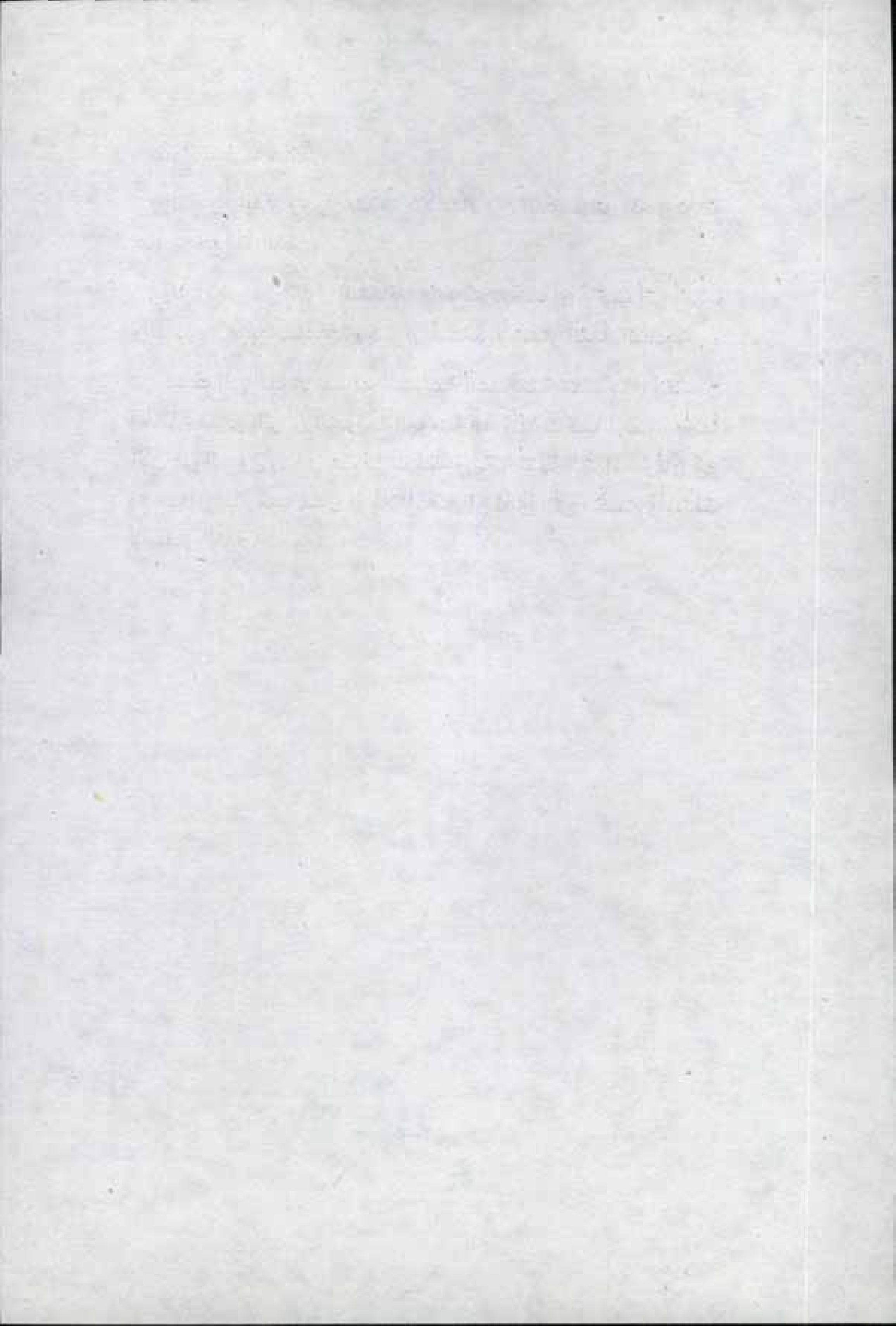
«روز اليوسف اليومية».. «روز اليوسف اليومية».. وهجم علينا بائع، ألقى بين يدى نسخة وهو يقول:

أول عدد يا هانم..

ألقاه بين يدى وجرى يقذف بالأعداد بين أيدى سائر المحررين ثم عاد يجمع منا الثمن..

ولم أمض فى تناول الطعام.. فقد كان يجب أن أذهب إلى البيت وأستريح.. فبعد ساعات، يجب أن أستعد لإصدار العدد الثانى..

عدت إلى البيت حوالى الساعة السادسة صباحًا.. بعد أن أطمأن قلبى إلى أن الجريدة اليومية قد ظهرت كما أحب.. وأنها الآن فى السوق ينادى عليها الباعة ويتخاطفها القراء.. وكان فى وهمى أن أنام مساعتين أو ثلاثا، قبل أن أعود إلى مكتبى وأستعد لإصدار العدد الثانى..



الفصل العاشر

- **اضطرت إلى سرقة خطبة مصطفى النحاس**
- **كيف نشأت شركات توزيع الصحف..**
- **٥٠ فتاة مصرية لبيع «روز اليوسف اليومية»!**

عدت إلى البيت حوالى السادسة صباحًا.. بعد أن اطمأن قلبى إلى أن الجريدة اليومية قد ظهرت كما أحب.. وأنها الآن فى السوق ينادى عليها الباعة ويتخاطفها القراء..

وكان فى وهمى أن أنام ساعتين أو ثلاثًا، قبل أن أعود إلى مكتبى وأستعد لإصدار العدد الثانى..

على أننى كنت فى حالة من التعب والإجهاد أصبح النوم معها مستحيلاً، فقد كانت أعصابى من كثرة ما أجهدها السهر وأرهقها الترقب والتوجس والقلق.. منتبهة لا تريد أن تغفو، مشدودة لا تريد أن تسترخى.. وعبثًا أحاول أن أغلق عينى وفى رأسى دوامة تهدر بحوادث الأمس وما أتوقه من الغد..

وكدت فى إحدى المحاولات أفلح فى الإمساك بأطراف النوم حين دق جرس التليفون الموضوع بجوارى..

مازلت حتى الآن أذكر هذا التليفون اللعين الذى دق فى هذه الساعة ليعيد إلى كل ما كنت أحاول أن أنساه من توتر وإرهاق، بل لعلى لم أكره فى حياتى مكالمة تليفونية كما كرهت هذه المكالمة.. ومضى التليفون يدق وأنا أنظر إليه فى حنق.. هل أحطمه ؟ هل أرفع السماعة وألقيها جانباً وأمضى فى محاولة الإمساك بالنوم؟.. هل أضع السماعة على أذنى وألعن من يريد أن يكلمنى فى هذه الساعة مهما كان شخصه،ثم أغلق التليفون فى وجهه؟.. ولكن من يدرى.. أليس ممكنًا أن يكون هناك شىء ما يتعلق بالجريدة.. أليس ممكنًا أن تكون قد جدت متاعب من أى نوع فى التوزيع أو غيره؟..

واستسلمت للواقع، ورفعت السماعة.. وقبل أن أضعها على أذنى كان قد ارتفع منها صوت الأستاذ العقاد الأجش يهدر فى لهجة غاضبة.. وحسبت أن السماء قد انطبقت على الأرض حتى يحدثنى العقاد فى التليفون ساعة الفجر، وبهذا الضجيج

خير يا أستاذ عقاد!

هل قرأت الجرنال؟..

قرأته..

فأخذ يروى لى فى ثورة غضب هائلة ما يأتى: كانت الافتتاحية التى كتبها العقاد منشورة بالطبع فى الصفحة الأولى من الجريدة.. وفى أسفل الصفحة الأولى وضعنا فى برواز صغير كلمة تقول: «ابدأ بقراءة الصفحة الثانية» وهى الصفحة التى تحتوى على الأخبار السياسية الداخلية المهمة وعلى كلمتى وعلى مقال الدكتور محمود عزمى رئيس التحرير..

انفجر العقاد: يعنى إيه ابدأ بقراءة الصفحة الثانية؟.. معناه إيه الكلام ده.. يعنى عزمى عايز يقول إيه..عايزين تقولوا إن مقال عزمى أهم من مقال العقاد..

وكان لنشر هذه الكلمة سبب آخر.. فقد أخرجنا الجريدة كما سبق أن ذكرت بتبويب جديد على الصحافة اليومية، إذ جعلنا السياسة الداخلية تبدأ بعد الصفحة الأولى مباشرة لا فى صفحات الوسط كما تعودت الصحف أن تفعل.. ولكى ننبه القارئ إلى ذلك كتبنا له أن يبدأ بقراءة الصفحة الثانية، أى أن لا ينتقل مباشرة إلى صفحة الوسط ولم يدر بخلد أحد أن يقدم الصفحة الثانية على الأولى لأن هذا غير منطقى وغير معقول.. وكانت كل هذه الأسباب فى رأسى المتعبة والعقاد يهدر بالاحتجاج. ولكننى أعرف عن العقاد أن إقناعه بعكس رأيه أمر بالغ الصعوبة.. أما محاولة إقناعه وهو فى ثورة غضب فتلك من أبعد المستحيلات..

وعلى ذلك ضغطت على أعصابى التى لم تعد تحتمل الضغط وبقيت أسمع ساكتة لقذائف غضبه.. باذلة أقصى جهدى لكى أتجنب الانفعال وأثور بدورى، ويقع الاصطدام بين ثورتينا ونحن لما نصدر من الجريدة إلا عدداً واحداً.. ولما انتهى من احتجاجه كان همى أن أؤجل المناقشة، فقلت له:

إننى لم أقرأ هذه الكلمة.. وسوف أحاسب المسئول حسابًا شديداً..

والعقاد على ما ترى من ضخامته، وجهامته، وعنف غضبه..

إنسان طيب القلب، ليس هناك أسهل من كسبه.. وإنه ليكفى أن توافقه على رأيه لكى يهدأ ويسكن، ويصبح الموج الهادر بحيرة هادئة..

ووضعت السماعة وقد فقدت الأمل نهائيًا فى النوم، إذ أعاد إلى هذا الحديث الصاخب على هذا الأمر التافه كل التوتر العصبى الذى عشت عليه منذ الأمس.. ومن عادتى أن أشرف قبل خروجى على كل ما يتصل بنظافة البيت، وأن أدخل إلى المطبخ لبعض الوقت فلا أترك الطباخ إلا بعد أن أعطيه التعليمات عن كل شىء.. ومن أصناف الطعام ما أهتم بأن أقوم بطهيه بنفسى.. ولا أذكر أنى خليت عن هذه العادة قط فى أكثر أيام العمل زحمة واضطرابًا.. ولا فى ذلك اليوم المشهود عقب حديث العقاد التليفونى!!.

والتقيت بالعقاد بعد ذلك فى الجريدة ظهرًا، فشرحت له الأسباب.. ولكنه لم يقتنع.

وكان من عادة العقاد أن يكتب مقاله اليومى فى البيت ويتركه فى الجريدة صباحًا، ويترك الأستاذ كامل الشناوى مهمة مراجعته.. ثم يعود ليلاً ليلقى عليه بنفسه نظرة أخيرة.

كذلك كان يهتم بقراءة مقال الدكتور عزمى رئيس التحرير

ولو بغير علمه ـ إذ كان يعتقد أن عزمى غير وفدى، وأنه ربما وضع فى مقاله كلمة تسىء إلى الوفد من قريب أو بعيد

ومع كل هذه المتاعب فقد كان اليوم الثانى من أيام «روز اليوسف اليومية» يومًا جميلاً مشرقًا بالمرح.. فالعمل قد نجح والجريدة قد انتشرت فى السوق كالنار فى الهشيم، تاركة الفرحة فى قلوب الأصدقاء والحسرة فى قلوب الأعداء..

ومع النجاح تأتى المتاعب.. متاعب المنافسة..

فقد كان لصدور «روز اليوسف اليومية» بهذه الصورة القوية هزة عنيفة فى الصحف الأخرى.. وانعكس أثر ذلك فى صورة تكذيبات متوالية متلاحقة أخذت الصحف الأخرى خصوصًا الأهرام - تتعقب بها أنباءنا.. وساعدها على ذلك أننا كنا الجريدة الوحيدة تقريبًا التى تهاجم الوزارة القائمة وزارة توفيق نسيم ـ مما جعل الوزارة تشترك مع الصحف الأخرى فى حملة التكذيبات.. وأذكر أن الدكتور عزمى كتب مقالاً عنيفًا يعلق به على هذه التكذيبات مهاجمًا الأهرام.

ووجدت الصحف أنها لن تستطيع مجاراة «روز اليوسف اليومية» من ناحية السبق بالأخبار أو قوة أسرة التحرير أو جرأة النقد أو جدة التبويب. فبدأت حملة المنافسة فى النواحى التجارية التى تحتاج إلى مال كثير.. وكان صاحب الأهرام فى ذلك الوقت رجلاً ممتازًا هو المرحوم جبرائيل تقلا.. صاحب الفضل الأول على الأهرام.. فهو الذى اشترى له إحدى الآلات ورسم له سياسة الاستقلال وأدخل كل ما كان فيه من تجديدات أو تحسينات..

وكان أول ما فعلته الأهرام فى هذا الباب أن اشترت سيارات لورى خاصة لنقل الجريدة إلى الإسكندرية، فالقطار الذى كان ينقل الصحف كان يصل هناك الساعة الحادية عشرة صباحًا.. ورأى المرحوم جبرائيل تقلا أنه لو أستطاع أن يصل بسياراته إلى هناك فى الساعة السابعة، أو الثامنة، فأنه يستطيع أن يكتسح السوق هناك.. وفعلا أشترى السيارات وأجرى عدة تجارب لنقل الجريدة قبل تنفيذه كلفته أموالاً طائلة.. وكانت هذه أول مرة تستعمل فيها الصحف سيارات نقل خاصة بها.

فماذا نفعل نحن؟

لم يكن هناك بد من مواجهة الموقف، ومع ذلك فالمال اللازم لشراء اللوريات ينقصنا. فاستأجرنا تاكسيات تقوم بنقل الجريدة، نظير ستة جنيهات يوميًا للسيارة. وكنا نحتاج إلى خمس أو ست سيارات.. أى حوالى ٣٠ جنيهًا يوميًا.. أى ما يقرب من الألف جنيه فى الشهر.. وهو ثمن رهيب..

وهاجمنا المنافسون من جبهة أخرى هى جبهة التوزيع.. وللتوزيع قصة يجب أن تروى، لأنها جزء من تاريخ الصحافة المصرية.

لم تكن توجد حتى سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٤شركات لتوزيع الصحف كالموجودة الآن.. كان القطر المصرى كله مقسمًا إلى أربع مناطق هى القاهرة والإسكندرية والوجه البحرى والوجه القبلى.. وكل منطقة لها متعهد خاص هو الحاكم بأمره فيها، المتحكم حتى فى أصحاب صحفها.. فيما عدا الأهرام الذى كان يوزع لحسابه فى منطقة الوجه القبلى فقط، ولا يجوز لواحد من المتعهدين الأربعة أن يتعدى قط على منطقة زميله أو ينازعه اختصاصه.. وكان هؤلاء المتعهدون الأربعة من العصاميين... نشأوا باعة صحف سريحة ثم أصبحوا بعد جهاد عنيف متعهدى توزيع.

وكان يتولى توزيع «روز اليوسف الأسبوعية» فى القاهرة المعلم على الفهلوى.. رجل نحيل قليل الكلام، يلبس الجلباب البلدى والطربوش، ولكنه فى غاية الذكاء.. وكان يتخذ مكتبه فى قهوة بشارع الساحة.. وقد ظل يحمل عبء توزيع «روز اليوسف الأسبوعية» حتى منتصف عام ١٩٣٤ ،وكان موفقًا إلى حد كبير..

على أننى لاحظت فى ذاك الوقت أن التوزيع بدأ يهتز.. وأحسست أن ثمة عوامل مجهولة تلعب فى الخفاء، ثم علمت أن بعض الصحفيين المنافسين يلجئون إلى طرق غير شريفة..

فيتصلون بباعة الصحف، ويخفون بعض أعداد المجلة فلا يعرضونها فى السوق..

ولم أصدق الخبر فى أول الأمر فأردت أن أتحقق بنفسى.. وفجأة وجدنى المعلم الفهلوى فى المقهى الذى يتخذه مكتبًا له وتظاهرت بأننى مررت مصادفة لأحدثه فى بعض شئون التوزيع، ثم تعمدت وأنا منصرفة أن أخطئ الطريق إلى باب المقهى، وأن أدخل إلى حيث يوجد المخزن الخاص به.. فإذا بى أجد نسخ العدد الصادر من "روز اليوسف الأسبوعية" موضوعة فى المخزن.. أى لم تنزل إلى السوق، وتأكدت مما كنت أشك فيه من أن بعض زملاء المهنة يلجئون إلى هذه الوسائل.

وقررت أن أقدم على خطوة اعتبرها الصحفيون فى ذلك الوقت جريئة جدًا هى أن أعهد إلى متعهد آخر - غير الفهلوى - بتوزيع المجلة فى القاهرة، وكانت الخطوة جريئة، لأن المتعهدين فى ذلك الوقت كانت لهم سطوة هائلة على الباعة وعلى أصحاب الصحف.. وفعلا عهدت إلى المرحوم سيد خضير متعهد الصحف الإفرنجية بتوزيع «روز اليوسف الأسبوعية» ثم عهدت بتوزيع «روز اليوسف اليومية» إلى ماهر فراج الذى كان يوزع فى الإسكندرية فقط.. ولأول مرة أصبح فى القاهرة أكثر من متعهد يتنافسون.. والتهبت الحرب بين هؤلاء المتعهدين، وبات كل واحد منهم يحاول أن يوقع بالآخر وبما يوزعه من صحف وإزاء هذا الاضطراب العنيف، قررت

الصحف أن تؤسس شركات توزيع خاصة بها.. بدأ بذلك المرحوم جبرائيل تقلا أيضًا فى الأهرام بادئًا بالإسكندرية ثم بسائر القطر.. ثم تبعته دار الهلال فالمصرى فسائر الصحف..

وفى خلال معركة التوزيع هذه، رأيت أن أقدم على تجربة أخرى ما زلت آسف على فشلها.. فقد أعلنت عن حاجتى إلى ٥٠ فتاة مصرية ليقمن ببيع روز اليوسف اليومية والأسبوعية، وكنت فى زيارتى لباريس قد لاحظت أن معظم باعة الجرائد هناك من النساء فأردت أن أفتح لبنات جنسى بابًا للعمل الشريف.. بابًا تستطيع أن تعمل فيه الفتاة الفقيرة بدلا من الشحاذة أو جمع أعقاب السجائر أو الخدمة فى البيوت.. ولكن التجربة لم تنجح من الأسف.. رغم أنى قد وضعت للعمل نظامًا يعفى البائعات من المعاكسات المتوقعة من الشباب فى الشوارع.. وقد تحقق الآن جانب من هذا الحلم.. إذ أصبحت الأكشاك التى تبيع اليانصيب فى قلب القاهرة تشغلها الفتيات..

على أن المتاعب الكبرى جاءت من علاقتى بالوفد.. الحزب الذى أؤيده وفى الأيام الأولى لصدور الجريدة اليومية.. كان النحاس يقوم برحلة طويلة إلى الصعيد.. يزور فيها المدن ويتقبل الدعوات ويلقى الخطب السياسية.. وأرسلت كل جريدة محررًا مهمًا من محرريها ليوافيها بأنباء الرحلة.. وناب عن «روز اليوسف اليومية» الأستاذ كامل الشناوى.

ولم يلبث كامل الشناوى أن شعر بالمعاكسات تحيط به وتعرقل أداءه لمهمته نتيجة لجو الفتور الذى كان سائدًا بين الجريدة وبين النحاس.. كان النحاس يلقى الخطبة.. فإذا أراد كامل أن يرسلها

إلينا حجزوها عنه بحجج مختلفة: مكرم يراجع الخطبة.. مكرم لم ينته من تصحيحها. وكان لا يمكن إرسال أية خطبة إلا بعد موافقة مكرم، وهكذا حتى تصدر الصحف الأخرى حاملة الخطبة ماعدا «روز اليوسف اليومية» وهنا تتحرك الدسائس لتقول للنحاس: انظر.. أن «روز اليوسف» تتجاهل خطبك ولا تنشرها.. حتى لقد اضطررنا مرة إلى أن نكلف أحد العمال بسرقة الخطبة من إحدى الصحف لكى ننشرها كاملة!.

وكانت الصحف المصرية ـ ولا تزال ـ تجرى على عادة سيئة إزاء هذه الرحلات. فهى تنشر لها وصفًا طويلاً إنشائيًا مملاً ومبالغًا فيه.. بل إن الصحف اليومية تتبارى فى التهويل. هذه تقول إن المستقبلين نصف مليون فتقول الثانية إنهم مليون ومعظم هذه الأوصاف يكتب فى القاهرة لا فى مكان الرحلة. وكلمات الوصف معروفة: هتاف الجماهير وزغاريد النساء وما إلى ذلك.. والقارئ عادة لا يقرأ هذه الأوصاف خصوصًا إذا تكررت وأصبحت تظهر كل يوم أو كل يومين.. كذلك جرت الصحف فى ذلك الوقت على أن تنشر الخطب التى تلقى فى الجماهير بحذافيرها، مهما كانت أهميتها وبصرف النظر عما فيها من كلام معاد. أو حماسة جوفاء.. والقارئ أيضا ينصرف عن قراءة هذه الخطب حين تكثر وتطول.

وأردنا أن نجدد.. وأن نتبع قواعد الفن الصحفى.. فكنا نصف أبناء الرحلة وصفًا موجزًا ولكنه دقيق، وكنا لا ننشر من الخطب إلا الأجزاء المهمة أو الجديدة. وهنا أيضا تتحرك الدسائس ويقول ذوو الأغراض للنحاس: انظر أن «روز اليوسف» تختصر وصف الحفاوة

التى تحاط بها!.. أنها تختصر خطاباتك البليغة.. مع أن هذا هو النظام الذى يجرى عليه الصحف فى العالم أجمع. ولست أعرف صحفًا تنفق ثلاثة أعمدة فى وصف حفاوة الجماهير إلا الصحافة المصرية.

وإزاء هذه المعاكسات عاد كامل الشناوى.. عاد ليرسم لنا بروحه الفنانة الريبورتاج الحقيقى للرحلة بكل ما فيها من لمحات وقضينا أيامًا ساهرة فى الجريدة نلتف حوله كل ليلة لنضحك من الأعماق، وهو يشرح لنا طقوس النفاق، ويقلد لنا النحاس وهو يخطب أو يتكلم، ومكرم وهو يجيب والمحيطون وكيف يعاملونهما.

وعاد النحاس من الرحلة.. ولم يزر الجريدة كالعادة مشجعًا.. وإزاء هذه المقاطعة منه بات أغلب الوفديين يخافون التردد على الجريدة رغم تأييدهم لخطتها..

على أن الرأى العام ـ كله تقريبًا ـ كان إلى جانب «روز اليوسف اليومية»، فقد كانت الجريدة الوحيدة التى تهاجم توفيق نسيم لتلكؤه فى إعادة الدستور ولتساهله فى تعيين مستشار إنجليزى له سلطة «الاتصال المباشر» بالوزير. حتى صارت كلمة «الاتصال المباشر» محل تندر الناس.. وبعد حملتها هذه بشهر.. سوف ينضم إليها الوفد، الآخرون جميعًا.

الفصل الحادى عشر

- **النبوءة التى حققها الهلالى.. بعد ١٨ عامًا!**
- **٥٠٠٠ جنيه رشوة من دار المندوب السامى**
- **متى قال مصطفى النحاس «نحن مبسوطون»؟**

إذا أردنا أن نصف الفترة التى حكمت فيها وزارة توفيق نسيم البلاد فى عبارة موجزة، فإنه يمكن أن نقول إنها فترة الوعد بالدستور.. بلا دستور!..

فبعد السنوات الثلاث التى عاشها المصريون تحت حكم صدقى، كان الناس يعيشون على أمل واحد هو أن يعود الدستور حتى تعود حياتهم إلى سيرتها العادية! وحتى يستريحوا من هذا الصراع الداخلى ليتفرغوا للخصم الذى يكسب من هذا الصراع: الإنجليز.

وجاء توفيق نسيم، وأعلن فى بيان تشكيل وزارته أن هدفه وغايته هو إعادة الدستور والحياة النيابية.. وعلى أنه لم يلبث، حين جلس على مقعد الحكم وتمكن من أجهزة الدولة أن وقع تحت سطوة القصر والإنجليز مباشرة، ومن ثم أخذ يؤجل إعادة الدستور بشتى الطرق، منتحلا مختلف ألوان المعاذير، محاولا جهد طاقته أن يطيل حياة هذا الحكم الفردى بأية صورة.

وكان من نتيجة ذلك أن بدأت وزارة نسيم تفقد تدريجيًا الآمال التى علقت عليها حين جاءت. وبدأ الرأى العام يغير نظرته إليها كلما رآها تنكص عن وعدها، وتتفنن فى خلق الأعذار لتأجيل عودة الدستور. والحكم إذا لم يستند إلى تأييد من الداخل مكين، اضطر للإنجليز تمامًا.. وأخذت تسرع إلى تلبية كل ما يطلبونه منها.

وشنت «روزاليوسف اليومية» والأسبوعية حملات قاسية على الوزارة.. ولم تكف عن المطالبة بالدستور لحظة.. كانت «روز اليوسف» تكاد تكون الصحيفة الوحيدة التى رفضت مهادنة توفيق نسيم بعد أن ظهرت نواياه.

ثم حدث حادث أثبت لى ما كنت أشك فيه من تأييد الإنجليز المطلق للوزارة، وجعلنى أعنف فى حملاتى عليها أكثر من ذى قبل..

كنت أجلس فى مكتبى بالجريدة حين فوجئت بزيارة من أحد تجار الورق ومعه زميل صحفى كبير. وكان تاجر الورق هذا هو الذى يبيعنى ورق الجريدة والمجلة.. فحسبت أنه جاء يطالبنى بنقود جديدة، فلم يكد يدخل على الحجرة حتى صحت فيه: ألم أدفع لك نقودك منذ أيام؟.

وضحك التاجر والصحفى، وقال التاجر: بالعكس، أننى لم آت لأطلب منك نقودًا. وطلب أن يختل بى هو وصاحبه الصحفى؛ لأن لديه حديثًا سريًا مهمًا.. فلما خلوت بها بدأ التاجر يعاتبنى على الحملات التى تشنها «روز اليوسف» على الوزارة، ويؤكد لى أنه لا يوجد أى مبرر لأن أنفرد أنا بهذه الحملة دون سائر الصحف، ثم قال لى - ببساطة - إن دار المندوب السامى البريطانى تعرض على

أن تدفع لى خمسة آلاف جنية دفعة أولى، ثم ألفى جنيه شهريًا لمدة طويلة.. إذا أوقفت الحملة نهائيًا على الوزارة!!.

واستفزنى هذا العرض، ولكن شعور الدهشة عندى طغى على شعور الاستفزاز.. فحتى ذلك الوقت كنت أعرف أن الحكومات وحدها هى التى تعرض على الصحف مصاريفها السرية.. ولكنى لم أكن أتصور أن السفارات أيضا تطرق هذا السبيل، وتدخل إلى الصحف والرأى العام من هذا الباب.

ورفضت العرض طبعًا. وناقشت الزائرين طويلا فى مغزى تأييد الإنجليز للوزارة إلى هذا الحد. وقلت إن هذا الوزارة صنيعة للإنجليز.

وخرج الزائران. وكنت فى حديثى معهما غير حريصة على أن أتحدث بصوت خفيض، فسمع الأستاذ العقاد أطرافًا من الحديث من حجرته المجاورة. فلما خرجا سألنى: الجماعة دول عايزين إيه؟.. فرويت له القصة ضاحكة.. وقال العقاد: أنا كنت عارف إنك حترفضى.. ثم أبدى رأيه فى الزميل الصحفى بصراحة بالغة!.

ومضت «روز اليوسف» فى حملتها.

على أن الوفد كان لا يقر هذه الحملات كما سبق أن ذكرت. إذ كان الإنجليز، والقصر كلما رأوا المعارضة تشتد والمطالبة بالدستور تقوى يلوحون بعودة إسماعيل صدقى، وكنا نقابل هذا التلويح بالحملات البالغة على صدقى أيضا، أما الوفد فكان يرى من الخير مهادنة الوزارة وأخذ الأمور باللين لعلها أن تعيد الدستور حقًا.

وهكذا أصبح لـ «روز اليوسف اليومية» بعد شهور من ظهورها خصوم أقوياء لم يجتمع مثلهم على جريدة فى وقت واحد الوزارة تحاربها. والقصر يحاربها. والإنجليز يحاربونها وأصحاب الصحف الأخرى يقاومونها.. والوفد الذى كانت تستند إليه يوشك أن يتخلى عنها.. على أنه بقى لها الرأى العام، كله تقريبًا.

وكانت جريدة المقطم تقف للأخبار والتعليقات التى تنشرها «روز اليوسف» بالمرصاد، فيذهب كريم ثابت كل صباح إلى توفيق نسيم وإلى النحاس ويحصل منهما على تكذيب لما ننشره وفى إحدى هذه المرات قال له النحاس: «نحن مبسوطون من هذه الوزارة» ونشر كريم ثابت هذا التصريح كما هو، وكانت المرة الأولى التى ينشر فيها تعبير «نحن مبسوطون» الذى اتخذ بعد ذلك سلاحًا لمهاجمة النحاس.

وما زلت أذكر يوم صادر توفيق نسيم «روز اليوسف الأسبوعية»؛ لأنها رسمته يدوس الدستور، وكنت جالسة فى المطبعة انتظر حضور البوليس بين لحظة وأخرى لتنفيذ قرار المصادرة والاستيلاء على النسخ المطبوعة. وإذا بى أسمع هتافات تملأ الطريق، وأخرج لأرى مظاهرة ضخمة من الطلبة تمر بالشارع هاتفة بالدستور، صارخة بالاحتجاج على تدخل الإنجليز، داعية إلى ائتلاف الأحزاب.. وتوقفت المظاهرة قليلا عند مطبعة «روز اليوسف» تحيى الجريدة التى تدعو إلى نفس المبادئ.. وفجأة خرجت إلى المتظاهرين، وأخذت أقذف إليهم بأعداد المجلة المصادرة.. فتهافتوا عليها، وتجمع حول المتظاهرين جمع آخر كبير من الناس والعابرين، وأنا واقفة أقذف إليهم بالمجلة المصادرة وهم يتخاطفونها، ويحاول

كل واحد منهم أن يظفر بأكبر عدد من نسخها.. أليست النسخ مصادرة؟.. إذًا فلئن أعطيها للناس بلا ثمن، خير من أن يأخذها البوليس ويضعها فى المحافظة حيث تأكلها الفيران.

ولما جاء البوليس لم يكن قد تبقى من المجلة عدد يذكر حتى يصادره.. أما المظاهرات، فقد انصرفت هاتفة، قد التهبت حماستها.

وفى معارضة «روز اليوسف» للوزارة، حدث أن انصبت الحملة لبعض الوقت على عضوين فى الوزارة بالذات هما: المرحوم أحمد عبد الوهاب وزير المالية.. والأستاذ أحمد نجيب الهلالى وزير المعارف.

فقد كتب الدكتور محمود عزمى بعض المقالات يهاجم فيها سياسة أحمد عبد الوهاب وزير المالية، وأذكر للحق هنا أننى لم أكن موافقة تمامًا على هذه الحملة على السياسة المالية، وأذكر أنى تناقشت فى ذلك طويلاً مع الدكتور عزمى ومع زوجته.. وكانت زوجته متحمسة جدًا للحملة على أحمد عبد الوهاب.. وكان تأثيرها على آراء محمود عزمى السياسية كبيرًا.. وقد ناقشتها طويلا فى ذلك وقالت لى مرة: أنت مش عايزه الجريدة تنتشر؟ فقلت لها: أنا لا أريدها أن تنتشر بغير حق.

على أن الازمة الكبرى كانت بسبب الأستاذ أحمد نجيب الهلالى والهلالى لم يكن فى تاريخه القديم وفديًا، بل الأصح أن يقال إنه كان من خصوم الوفد. على أنه لم يكد يدخل وزارة نسيم حتى عرف أنه يتقرب من الوفديين، ثم لم يلبث أن أصبح صديقًا لهم، ولمع

نجمه وتراقصت الترشيحات حول.. بعضها يرشحه لرئاسة الوزارة الوفدية القادمة فيما لو عاد الدستور.

وشن العقاد فى «روز اليوسف اليومية» حملة هائلة على الهلالى.. كان من أبرز مراحلها سلسلة متصلة من المقالات بعنوان: «وزير المعارف يحلم» شغلت افتتاحيات «روز اليوسف اليومية» أياماً كثيرة.

كتب العقاد فى إحدى هذه المقالات يقول:

كان وجود نجيب الهلالى بك فى الوزارة دليلاً عندنا على أن الدستور لن يعود إلى مصر قبل سنتين، إلا إذا حدث ما يبدل النيات غير النيات.

ولسنا نغنى تاريخ صاحبنا فى ماضيه وأعماله المعهودة أيام الوزارات الرجعية، ولكننا نعنى أن مجرد قبوله الوزارة دليل على علمه ببقاء الوزارة أو بقائه هو فى المركز الوزارى سنين على أقل تقدير، لاسيما وهو متصل ببعض الإنجليز فى دار المندوب السامى. فهذا الموظف كان فى منصب دائم مضمون وهو منصب المستشار الملكى، وهذا الموظف شاب لم يبلغ سن المعاش، ولم تمض عليه فى خدمة الحكومة مدة كافية، للوصول إلى معاش يرضيه، فلماذا يجازف بخدمته كلها ليعتزل العمل بضعة أشهر ؟

أهو من رجال المجازفات فى ماضيه؟

«كلا» بل هو على نقيض رجال المجازفات.

أهو ممن يعولون على زعامة فى الحياة القومية أو الحياة الحزبية سواء فى ميدان السياسة أو ميدان المشروعات العامة. كلا.

ولو خرج للزعامة القومية أو الحزبية بمعترك الحياة لما ظفر منها بنصيب..

ثم يقول فى مقال آخر: «.. والآن يحلم صاحب العزة برياسة الوزارة المقبلة أو بوزارة غير بعيدة. وصاحب العزة الوزير الحصيف يعلم أن من يطمع فى رياسة الوزارة لا غنى له عن رضا الإنجليز. فإذا سار الوزير الحصيف ومحاباة الموظفين الإنجليز، وتعميم الصبغة الإنجليزية على الطريقة الدنلوبية فى الجامعة والمدارس العالية والمدارس الثانوية. فلماذا لا يكون رئيسًا للوزارة المقبلة أو لوزارة أخرى تطلع على البلد بتجربة جديدة من التجارب التي لا مكان فيها لدستور ١٩٢٣على أقل تقدير؟».

والغريب أن هذه النبوءة تحققت. وترأس الهلالى وزارة لإجراء تجربة لا مكان فيها للدستور، بعد نشر هذا الكلام بثمانية عشر عامًا.. سنة ١٩٥٢.

المهم.. أن العقاد مضى فى حملته على هذا المستوى من العنف، متعقبًا تصرفات الهلالى فى وزارة المعارف وفى وزارة التجارة وفى السياسة العامة على حد سواء. ولم أكن أتوقع أن تؤدى هذه الحملة على الهلالى ارتطامنا بالوفد وخروجنا عنه، وكان الوقت خلال هذه الحملة صيفًا ـ يوليو ١٩٣٥ ـ والنحاس ومكرم فى الإسكندرية. وفوجئنا ليلة برسالة تليفونية من مراد عبد الرحمن مراسل الجريدة فى الإسكندرية يقول فيها: «اليوم استدعانى الأستاذ مكرم عبيد وقال لى أمام صاحب الدولة الرئيس الجليل إن الوفد غير راضٍ عن خطة الجريدة فإذا كانت الجريدة ستستمر فى هذه الخطة فسيضطر. الوفد إلى إصدار بيان ضد «روز اليوسف» وهو يطلب مقابلة السيدة صاحبة الجريدة».

وأرسلت إلى الأستاذ مكرم عبيد خطابًا طويلاً أرد فيه على هذه الإشارة جاء فيه:

حضرت المجاهد الكبير الأستاذ مكرم عبيد سكرتير الوفد المصرى:

«... أخبرنى حضرة مراد أفندى عبد الرحمن أحد مخبرى جريدة «روز اليوسف» فى الثغر أن دولة الرئيس الجليل غير راضية عن المجلة وعن الجريدة؛ لأن إدارتى تحريرهما قد أمعنتا منذ زمن فى مهاجمة الوزارة القائمة. كما اتخذتا موقفاً يكاد يكون عدائيًا ضد فردين من أفراد الوزارة هما صاحبى السعادة أحمد عبد الوهاب باشا أحمد نجيب الهلالى بك».

أما عن سياسة المجلة فأقول إن مجلة «روز اليوسف الأسبوعية» لم تتخذ ضد الوزارة الحاضرة موقفًا عدائيًا؛ لأنها تعرف أن الوفد يؤيدها. كما أنها لم تحد عن خطتها المألوفة، وهى خطة النقد الفكاهى الصريح لكل ما يصح الإشارة إليه. وذلك بقصد التنبيه وتلافى الخطر قبل استفحاله. وبين انتهاج خطة عدائية للوزارة وبين تناولها بالنقد البرىء فارق لا يخفى عليكم.

أما عن الجريدة فأصرح بأن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد وفدى صميم له من ماضيه المجيد فى الدفاع عن الوفد وعن القضية المصرية ما يجعله فوق الشبهات. وقد فاتحت الأستاذ العقاد فى هذا الأمر فأخبرنى بأنه مستعد لأن يقابل دولة الرئيس الجليل ليطلعه على وجهه نظره فى كتاباته التى ينتهجها.

بقى أن أقول إننى أعتقد أنى قد ضحيت مختارة كل ما أملك من مال ونشاط فى سبيل الوفد. وقد لاقيت فى هذا السبيل كافة أنواع

العسف والجور من مختلف الوزارات التى تقلبت فى الحكم، ولم أكن يومًا فى جهادى عن مصر وفى دفاعى عن الوفد مدفوعة بدافع غير الوطنية الصميمة. ولم اتخذ من هذا الجهاد وسيلة لأكل العيش.

والله والوطن.. لى فيهما العزاء فيما لاقيت وما سألقى؟.

وبعد أيام قليلة، تلقيت آخر خطاب من الأستاذ مكرم عبيد. نصه: سان استيفانو.. فى ٢ أغسطس ١٩٣٥.

حضرة المحترمة الفاضلة السيدة روز اليوسف صاحبة جريدتى «روز اليوسف» اليومية والأسبوعية.

تحية واحترامًا. وبعد. فقد تسلمت خطابك المؤرخ ٣٠ يوليو ١٩٣٥ وبعرضه على دولة الرئيس الجليل طب إلى أن أعرفك أنه قد أبلغ حضرة مندوبك كلمته الأخيرة فى الموضوع.

وإنك لتعلمين أن الوفد لا يحجر على حرية إنسان ما - أو صحيفة ما - ولكن إذا رأت إحدى الصحف المنتمية إلى الوفد أن تنتهج خطة تغاير خطة الوفد، فعليها أن تتحمل نتائج ما تنتهج.

وتفضلى يا سيدتى بقبول تحيتى واحترامى

سكرتير الوفد المصرى

مكرم عبيد

والتهديد فى هذه العبارة واضح. وقد كان الوفد فى ذلك الوقت على درجة من القوة يستطيع بها أن يقتل أية جريدة بمجرد إعلانه خرجت عليه على أن الوفد قد أخطأ بغير شك فى لجوئه إلى

تهديدى بهذه السرعة، فليس فى طبيعتى أن ألجأ للتهديد، بل إنه على العكس يثيرنى ويدعونى إلى العناد. وعصامية مثلى تشعر دائمًا أنها غير مدينة بما وصلت إليه لأحد يصعب عليها جدًا أن تخضع للتهديد مهما كان بسيطًا.

إذًا فهو الخلاف الحاسم. ونحن الآن فى مفترق الطريق. فإن بقيت «روز اليوسف» على خطتها فمعنى ذلك خروجها عن الوفد. وأن أرادت أن تبقى على صلتها بالوفد فليس عليها إلا أن تعدل عن خطتها.

وقررت «روز اليوسف» أن تمضى فى خطتها التى ترى أنها تلتقى مع مصلحة الوطن لأكثر من سبب.. ومضت تهاجم تعطيل الدستور، ونجيب الهلالى وكل المستشارين الإنجليز.

الفصل الثانى عشر

- الوفد يقرر فصل روزاليوسف.
- المصاريف السرية سنة ١٩٣٥.
- المستندات الخطيرة التى أحضرها العقاد.
- هل يستطيع القارئ أن يتصور جو أزمة وزارية عفيفة؟

والأعصاب المتوترة والمشاورات المتواصلة والوساطات النشيطة.. ثم الصحف تنشر أنباء الأزمة وتطوراتها، وتحاول أن تتكهن بنتائجها؟

هكذا كان جو تلك الأزمة العنيفة التى نشبت بيننا وبين الوفد قبل الانفصال الأخير. وكان أغلب الوفديين يحبون «روزاليوسف» اليومية والأسبوعية على السواء.. فهى لسانهم القوى وصوتهم المعبر وهى الندوة التى يترددون عليها... كذلك كان جمهور الوفديين من تجار وأعيان وطلبة ومحامين يؤيدون خطتها فى مهاجمة وزارة توفيق نسيم، وفى المطالبة بالدستور بسرعة وفى الحملة على المستشارين الإنجليز. وكانوا لا يقرون سياسة النحاس ومكرم المبنية على ملاينة نسيم... ومهادنة القصر والإنجليز ريثما يعود الدستور

بسلام، على أن هؤلاء الكثرة من الوفديين لم يلبثوا أن تبينوا أن الأستاذ مكرم عبيد يتزعم الحملة على «روزاليوسف» وإنه يعتزم إخراجها من الوفد. وكان مكرم هو صاحب السطوة الأولى فى الوفد والمنزلة الكبرى عند النحاس. وكان الآخرون يخشون التعرض له أو الوقوف فى وجه آرائه.. فإذا بهم ينقطعون عن زيارة «روزاليوسف»، وإذا بهم يخافون بتأييدهم لها بعد أن كانوا يجاهرون به.. وقد فضلت كثرتهم أن تسكت وتنتظر نهاية المعركة. وعلى رأس هؤلاء كان المرحومان أحمد ماهر والنقراشى، وكان أيضًا إبراهيم عبد الهادى وحامد محمود وحامد جوده وغيرهم كثيرون.

كل هذا والخلاف مستمر. لا يعرف الرأى العام عنه شيئًا.. حتى ألقى مكرم القفاز علنًا لأول مرة، فأوعز إلى «الجهاد» الجريدة التى تنطق بلسانه بمهاجمة «روزاليوسف».

وبدأت «الجهاد» هجومها على «روزاليوسف» فى أول الأمر غمزًا. إذ أخذت تقول: إن الوزارة سوف تنشر كشوف المصاريف السرية التى كانت تعطيها الوزارات السابقة للصحفيين المصاريف السرية!.. الحجة الخالدة التى تتعلل بها كل حكومة لتجريح الصحف المعارضة!.

وعجبت لهذه الإشارة جدًا.. من تقصد «الجهاد» يا ترى؟. فبالنسبة لـ «روزاليوسف» بالذات، كانت «روزاليوسف» هى المجلة الوحيدة التى واظبت على خطة المعارضة العنيفة طوال السنوات السابقة على نسيم، وهى المجلة التى حملت أثقل عبء من الاضطهاد والمصادرة حتى مرت بعض السنين عليها والمصادر من أعدادها أضعاف الصادر! ومحرر و «روزاليوسف» جميعًا من الذين

عرفوا بعنف معارضتهم فلا يعقل أن يكون أحدهم قد امتدت يده إلى المصروفات السرية دون علمى. ولو كانت «روزاليوسف» على صلة طيبة بالحكومات لأعفتها الحكومات من المصادرات، ولكان هذا خير لها من ألف مصروف سرى!.

والتقطنا القفاز.. وكتبنا فى العدد ١٨٢ من الجريدة نتحدى الحكومة أن تنشر كشف المصروفات السرية لنرى أى الوجوه تبيض وأيها تسود. وسكتت الحكومة طبعًا. وأمعنا نحن فى التحدى. وجعلنا ننشر فى الجريدة كلمة يومية فى أبرز مكان بعنوان «نرجو ألا تنسوا» نقول فيها:

«نعود اليوم إلى تذكير الوزارة بنشر ما وعدت بنشره من قوائم المصروفات السرية المتضمنة أسماء صحفيين كانوا يتقاضون فى العهد البائد أجورًا شهرية ثمنًا لضمائر تشترى وأقلام تسخر».

«ونعود إلى تذكير الوزارة بأن الخير كل الخير فى أن تتضمن تلك القوائم بيان إعانات «غير شهرية» غمرت بعض الصحفيين فى مناسبات خاصة، وهم صحفيون تظاهروا ويتظاهرون بوطنية رخيصة وحماسة قوامها الغش والتضليل».

«نذكر الوزارة اليوم وسنعود إلى تذكيرها بعد اليوم. ولن نمل التذكير حتى تبر بالوعد الذى أذاعه عنها المذيعون».

وغنى عن البيان أن الوزارة لم تقبل التحدى.. ولم تنشر كشف المصروفات السرية.. حتى كتابة هذه السطور.

لم تنفع إذًا هذه «الغمزة» من «الجهاد» .. فانطلق يهاجم «روزاليوسف» بصراحة، بالعناوين الضخمة والمقالات الطويلة وأطلق على أسره تحرير «روزاليوسف» اسم «فرقة روزاليوسف»..

وأجبنا على الحملة بأحسن منها. وكان هجومنا على «الجهاد» أيضًا من الناحية السياسية والوطنية.. فقد كانت الحرب الإيطالية الحبشية فى ذلك الوقت على الأبواب، ولوحت إنجلترا فى تصريحات المسئولين فيها بأن مصر ستكون «فى حمايتها» طوال مدة الحرب التى توشك على الاشتعال. وكان «للجهاد» موقف مائع منها.. ونشر مرة يقول: «هكذا شاءت سياسة الاحتلال أن تظل مصر فى حاجة إلى حماية القوم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين» .. فاتخذنا من هذه العبارة مادة لحملات عنيفة على الجهاد.

وأرادت أم المصريين أن تنهى هذا الخلاف، فاستدعت إليها العقاد، ورجته فى إيقاف الحملة على «الجهاد» .. وتوقفنا عن الحملة فعلاً، ونشرنا كلمة فى الصفحة الأولى من العدد ٢٠٠ نقول فيها إننا نسكت بناء على تدخل شخصية جليلة المقام.. وقلنا إن «الجهاد» إذا عاد إلى الحملة فليس أمامنا إلا أن نعود ولم يسكت «الجهاد».

وذهب الاشتباك بين العقاد وتوفيق دياب إلى أبعد الحدود. فنشر الأستاذ دياب بحثًا بإمضاء طبيب أمراض عقلية يثبت فيه أن العقاد مصاب «بالبارانويا» والجنون.

وفجأة.. دخل علينا العقاد ذات ليلة وهو يهدد صائحًا: سوف أقضى على توفيق دياب!.

وتجمعنا حوله متسائلين، ونظرنا إليه مترقبين، واستطرد هو يقول: لدى مستندات خطيرة جدًا، سوف يكون فى نشرها القضاء عليه.

وطلبنا منه أن يطلعنا على المستندات فرفض. وقال إنها سرية جدًا. وأنه يريد أن يذهب بها أحد موظفى الجريدة إلى محل زنكغراف ليصورها ويعيدها إليه.. ورضخنا لرغبته وتفرقنا عنه واستدعى إليه إبراهيم خليل وأعطاه المستندات الخطيرة فى مظروف مغلق، لكى يذهب بها إلى محل الزنكغراف.

وخرج إبراهيم خليل، وقبل أن يبرح الإدارة استبد به الشغف لكى يطلع على هذه المستندات الخطيرة جدًا ففتح المظروف فى حجرة ثانية.. ورأى المستندات فوقف ذاهلاً.. ونادى على فذهبت إليه، وناديت أنا على كامل الشناوى.. وتجمعنا فى الحجرة نتأمل المستندات الخطيرة جدًا ونحن نكاد ننفجر من الضحك.

كانت المستندات تثبت أن الأستاذ دياب لم يكن يدفع للعقاد مرتبة فى مواعيده حين كان يعمل معه فى «الجهاد»! أى إنها تثبت أن "الجهاد" لم يكن فى حالة مالية حسنة! وهو - كما ترى - أمر غير خطير.. وليس فيه ما يشين الأستاذ دياب فى شىء.. فقد جرت عادة أغلب الصحف على أن تتأخر فى دفع مرتبات موظفيها، ولكن العقاد . وله قلب طيب - حسب إنها مستندات خطيرة، وكنا حريصين على ألا نغضبه، فجاريناه فى نشرها، وكنا نتظاهر أمامه باهتمامنا بها، فإذا تولى عنا! انطلقنا - بزعامة كامل الشناوى - ضاحكين.

ثم حدثت الطامة الكبرى..

فقد نشرت "الجهاد" كلمة بإمضاء محام اسمه «وليم بطرس الدوينى» - الموظف الآن بمراقبة التشريع فى وزارة المعارف - يقول

فيها إنه «رأى السيدة روزاليوسف والدكتور محمود عزمى يجلسان مع أحمد عبود باشا فى فندق مينا هاوس يتهامسون، وقد أمسك عزمى ورقة وقلمًا» ولم يحدث هذا اللقاء قط، ولكن «الجهاد» أرادت بنشره - بعد أن عجزت عن إثبات تهمة المصاريف السرية - أن تقول إننا نأخذ مالاً من عبود.

وفى اليوم التالى - فى العدد ٢٠١ - كتب محمود عزمى مقالاً طويلاً عنيفًا بعنوان ضخم ملفت للنظر «وليم الكذاب!».

كان المقال كله حملة عنيفة على «وليم الدوينى» هذا صاحب النبأ الملفق.. ولكن مكرم عبيد ثار ثورة هائلة، إذ رأى فيه وفى عنوانه بالذات تلميحًا إلى شخصه هو.. إذ كان مكرم عبيد يحمل قبل ثورة ١٩١٩ اسم وليم، ثم تنازل عنه حين نشبت الثورة.. وثارت لثورة مكرم الدوائر الوفدية، إذ كيف تطعن جريدة وفدية فى سكرتير الوفد أو تعرض به على هذا النحو؟

وذهب مكرم إلى النحاس يضع قضيته بين يديه، ويقف موقف المعتدى عليه يطلب من النحاس أن ينصفه من «روزاليوسف» ومحمود عزمى والعقاد.. وصمم النحاس على أن تفصل «روزاليوسف» من الوفد.

وسمعت السيدة أم المصريين بقصة الأزمة فاستدعت إليها النقراشى واتصلت بمكرم.. وعرضت عليهما أن تتوسط للصلح بين الوفد وبينى.. وقالت إن «روزاليوسف» لهى أقوى جريدة يومية، وأقوى مجلة أسبوعية تعبر عن رأى الوفد، وإنه ليس من الحكمة فصلها لهذا الخلاف البسيط.. ولكن النحاس رفض أية وساطة.. وصمم على رأيه تصميمًا مطلقًا.

وعرضت حلول كثيرة لتسوية الموقف.

عرض الوفد على أن أخرج محمود عزمى من الجريدة بوصفه صاحب المقال فيكون فى ذلك ترضية كافية لمكرم وللوفد.. ولكنى رفضت. وقلت إننى مادمت قد وافقت على نشر المقال فيجب أن أشترك فى احتمال تبعاته كلها. وسمع الدكتور عزمى بذلك فجاءنى وأبدى لى استعداده لترك الجريدة إذا كان فى ذلك ما ينهى الأزمة. ولكنى رفضت أيضًا. وقلت له إن المسألة مسألة مبدأ. وأن الجريدة التى أقمتها بجهدى يجب أن اكون مستقلة بها، ولا يمكن أن أقبل تدخلاً فى شئونها بإخراج هذا المحرر أو ذاك.

وكان توفيق صليب ـ سكرتير تحرير الجريدة اليومية ـ لا يكف عن تحذيرى من نتائج انفصالى عن الوفد. وكان ينظر إلى المسألة نظرة حسابية فحسب، فيقول لى: انتظرى حتى يتم لك شراء المطبعة، فإذا انفصلت بعد ذلك كان فى مقدورك الوقوف على قدميك.

وكنت قد تعاقدت فعلاً مع شركة ألمانية على شراء مطبعة كبيرة روتاتيف دفعت ١٠٠٠ جنيه عربونًا لها. ولكنى لم أرض أيضًا بإخضاع مثل هذه المسألة لهذه النظرة الحسابية.

انتهى النحاس إذًا من تقرير فصلى وبقيت مسألة العقاد هل يفصلونه معى أم يحتفظون به للوفد؟.. وأخيرًا اتفقوا على أن يصدر القرار بفصلى فقط. ثم ينظروا بعد ذلك فى موقف العقاد.. فإذا انضم إلى أخرجوه، وإذا تركنى فقد كسبوه.

وجرت فى آخر لحظة اتصالات كثيرة مع العقاد وقف فيها معى. وجاءنى يقول فى لهجة خطيرة: لازم تعرفى إن موقفك ده فيه

تضحية كبيرة جداً.. وأنا لا أستطيع أن أضمن لك توزيع الجريدة لو انفصلنا عن الوفد.

فقلت له: زى بعضه.. أنا عارفة الموقف كويس.

فمد يده إلى، وصافحنى بقوة وهو يقول: آدى إيدى فى إيدك. ومهما صنعوا فأنا معك.

كل هذا والصحف الأخرى تتسابق فى نشر أنباء الخلاف.

وفى سرد التفاصيل والتكهنات ومع كل صباح تصدر مؤكدة أن «روزاليوسف» سوف تفصل من الوفد. ونجيب الهلالى وأنصاره من أصدقاء الوفد الجدد يستعجلون صدور القرار.

وأعلن أن الوفد مدعو لعقد اجتماع غير عادى فى بيت الأمة وركب النحاس ومكرم القطار من الإسكندرية عائدين إلى القاهرة خصيصاً. وأسرعت سكرتارية الوفد تستدعى أعضاءه من الأقاليم البعيدة.

وفى طريق عودة النحاس من الإسكندرية تجمعت الجماهير كالعادة لتحييه. وفى طنطا وقف النحاس فى نافذة القطار ليخطب فى الجماهير.. ورأى أحد المستقبلين يحمل «روزاليوسف الأسبوعية» فصاح فيه: ارم هذا الغلاف القذر!! فبهت الناس. وسكتوا كأنهم يسمعون نبأ محزناً. وطير المراسلون نبأ الخطبة إلى الصحف. إذ كانت هذه الكلمة أول إشارة رسمية إلى فصل «روزاليوسف»..

وعقد الوفد اجتماعه فى بيت الأمة وكنا قد تأكدنا من القرار فأعددنا ملحقاً لكى يصدر بمجرد إذاعة قرار الفصل. وكان الوفد

على العكس من ذلك قد حرص على ألا يبلغنا القرار حتى ينشر القرار فى جميع الصحف ما عدا «روزاليوسف»، ولكننا استطعنا تدبير وسيلة للحصول عليه.

واستمر اجتماع الوفد من الساعة الحادية عشرة صباحًا حتى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر.. أربع ساعات ونصف اشتدت فيها المناقشات، وانجلت عن قرار هذا نصه:

بيــان

«قرر الوفد المصرى بجلسته المنعقدة اليوم فى بيت الأمة برياسة حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا أنه نظرًا لأن جريدة "روزاليوسف" قد اجترأت على نشر مقالات تتضمن الطعن على الوفد ومكانته من الأمة فإن هذه الجريدة لا تمثل الوفد فى شىء ولا صلة لها به».

بيت الأمة فى ٣٠ جمادى الثانية - ٢٨ سبتمبر ١٩٣٥ وواضح أن «روزاليوسف» حتى ذلك الوقت لم تكن قد نشرت كلمة واحدة تطعن فيها الوفد، إلا مقال «وليم الكذاب» هذا الذى اتخذه الوفد حجة لهذا القرار.

بعد ساعة من صدر هذا القرار كان ملحق «روزاليوسف» يباع فى الشوارع يحمل عنوانًا رئيسيًا ساخرًا يقول:

الوفد المصرى يحل القضية المصرية!! جلسة خطيرة يحضر لها من الإسكندرية!!

وكان النحاس ومكرم وسائر أعضاء الوفد فى محطة القاهرة ينتظرون قطار العودة إلى الإسكندرية حين دخل الباعة إلى المحطة

ووزعوا عليهم ملحق «روزاليوسف» .. فقابلوه بالدهشة البالغة لهذه السرعة العجيبة.. ونشرنا من أدب القرآن الآية الكريمة التى اختارها الأستاذ كامل الشناوى وهى: قد افترينا على الله كذبًا إن قرآن كريم ينقل من البرنامج عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا. وسع ربنا كل شىء علمًا (الأعراف: ٨٩).

ونشرنا تحتها كلمة سعد زغلول:

«الصحافة حرة.. تقول فى حدود القانون ما تشاء وتنتقد ما تريد. وليس من الرأى أن نسألها لماذا تنتقدنا، بل الواجب أن نسأل أنفسنا لم نفعل ما تنتقدنا عليه».

الفصل الثالث عشر

- **الهتاف بسقوطى فى القاهرة وطنطا والمنصورة ودمنهور!**
- **نهاية «العقاد» و«الطور الأخير» للحركة الوطنية!!**
- **السيدة التى رشحتها أم المصريين للزواج من النحاس**

أصدر الوفد قراره التاريخى بفصل «روزاليوسف» بعد اجتماع طويل فى بيت الأمة.. ثم ذهب النحاس ومكرم وسائر أعضاء الوفد إلى محطة السكة الحديدية عائدين إلى الإسكندرية..

وكانت المحطة قد احتشدت بجمع هائل من المودعين يهتفون - كالعادة - للنحاس فلما تحرك القطار بالمسافرين - فى الساعة السادسة عصراً - خرج هذا الجمع فى مظاهرة ضخمة يقودها الأستاذ حسن يس، سارت فى شوارع القاهرة تهتف بحياة النحاس، وبسقوط «روزاليوسف»..

وكنت جالسة بمكتبى بإدارة المجلة فى شارع الساحة، حين ترامى إلى سمعى الهتاف.. ثم نظرت فإذا بالجماهير المحتشدة تسد الطريق والهتافات تشق عنان السماء بالشتائم القاسية، بل النابية، ضد «روزاليوسف» وجريدها.

وجلست إلى مكتبى لحظات لا أكاد أصدق الناس الذين كانوا يهتفون لى بالأمس يمكن أن يهتفوا ضدى فى اليوم التالى وبنفس الحماسة.. ولم أكن قد تغيرت بين يوم وليلة، والمبادئ التى أدعو إليها لم تتبدل.. والمطالبة بالدستور ومهاجمة الإنجليز تمضى فى جريدتى بنفس العنف.. ولكن هؤلاء الناس لا يمكن أن يكونوا قد فكروا فى أسباب التأييد بالأمس وأسباب الاتهام اليوم. لا يمكن أن يكونوا قد قلبوا الأمر على وجوهه.. إنما هو غشاء يضعه الزعماء على عيونهم فيرون الأشياء . نفس الأشياء . سوداء حينًا وبيضاء حينًا آخر.

وغلى الدم فى عروقى، ولم أشعر إلا وأنا أندفع إلى شرفة المكتب، وأقف فى مواجهة الجماهير الغاضبة..

وكان الناس ينتظرون أى شىء إلا أن تخرج إليهم هذه التى يهتفون بسقوطها، فسكتت هتافاتهم برهة من وقع المفاجأة، وهبطت الأيدى الملوحة.. أما أنا فلم أنتظر، بل هتفت وجسدى كله ينتفض بسقوط النحاس ومكرم.. فردد الناس الهتاف خلفى بغير وعى على أن حسن يس زعيم المظاهرة لم يلبث أن أدركهم.. فعادوا يرددون هتافاته ضدى.. وبحماسة أكثر التهابًا..

ودخلت إلى مكتبى والصيحات تلاحقنى، وجلست فترة طويلة وأنا شبه ذاهلة، تدور برأسى الذكريات، ويعصف بنفسى الأسى.. وذكرت فى تلك اللحظة يوم كان النحاس فى قفص الاتهام فى قضية سيف الدين، وذكرت فرحتى حين سمعت، وأنا واقفة بين الجماهير حكم القضاء ببراءته، وإذا بى أطلق زغرودة اختلطت بزغاريد السيدات المحتشدات.. ولم أكن قد جربت قط إطلاق هذه

الزغاريد، وما أعرف كيف انطلقت فى لحظة الفرح الجارف بظهور براءة هذا الرجل النزيه.. ذكرت تلك اللحظة والحزن يعصر قلبى.. لأننى وقفت منذ دقائق اهتف بسقوط هذا الرجل..

واتجه خاطرى على الفور إلى مكرم عبيد، ولم أستطع إلا أن أؤمن بأنه المسئول الأول عن كل ذلك. فلا شك أن مكرم عبيد قد لعب الدور الأول فى حياة النحاس والوفد. وتأثيره فيه لا يمكن أن تمحوه الأيام. بل إن مكرم عبيد هو الذى زوج مصطفى النحاس من السيدة قرينته!.

وكانت أم المصريين قد رشحت له قبل ذلك سيدة أخرى أقرب إليه سنًا. وأكثر تجربة - إذ سبق لها الزواج - ولكن المشروع فشل.. وقد تزوجت هذه السيدة فيما بعد أحد الزعماء الراحلين، وكانت له زوجة موفقة، لا يعرف الناس عنها إلى الآن شيئًا. حتى صورتها..

والنحاس - كما يعرفه كل من اتصل به - طيب إلى أقصى حد، ديمقراطى صميم، يحبه كل يتصل به، ولكن مكرم هو الذى جعل منه رأسًا فوق مستوى الرءوس، ووصف زعامته يومًا بأنها مقدسة. وأقنعه بأنه هو كل شىء حتى أصبح فى الوفد دكتاتوراً. وجعله يطرد كل من يختلف معه على شىء حتى طرد مكرم عبيد نفسه.. وكان مكرم - أخيرًا - هو الذى تسبب فى فصل «روزاليوسف»، كما رويت من قبل..

على أننى إذا نسبت هذه المسئولية إلى مكرم عبيد.. إلا أننى يجب أن أذكر له، أنه كان من الساسة النادرين الذين لم تلحق بهم الاتهامات التى غمرت كل من اشتغل بالسياسة، وأنه كان دائمًا هو وأسرته، بعيداً عن مستوى الشبهات..

ولا أنسى أيضًا مسئولية بقية أعضاء الوفد.. كانوا يرون بأعينهم نفوذ مكرم وكيف يستشرى. والستار الذى يقيمه حول النحاس وكيف يقوى. وكانوا فى مجالسهم يعترفون بالأخطاء السياسية التى ترتكب، ولكنهم بدلاً من أن يتخذوا موقفًا إيجابيًا، أو يخلصوا النصح لزعيمهم، كانوا ينكمشون، ويكتمون ما فى صدورهم خشية أن تدركهم لعنة الفصل.. وكان فى ذلك الوقت الدكتور أحمد ماهر مؤيداً لموقف «روزاليوسف» وسياستها، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يوافق على قرار الفصل، بل وأن يكتب بقلمه مقالاً يهاجم فيه «روزاليوسف» بعد فصلها ولم ينقذهم ذلك.. فقد خرج ماهر وأصحابه بعد خروجى بسنتين. ولو أنهم خرجوا مع «روزاليوسف» بسبب حملاتها على توفيق نسيم وتعطيل الدستور والمستشارين الإنجليز لكان موقفهم أقوى ولكان حظهم من تأييد الناس أكبر..

على أية حال. فقد صدر قرار الفصل وانتهى الأمر، فكيف نواجه الموقف الجديد؟....

كان من رأيى أن نعلق تعليقًا مناسبًا على قرار الفصل، ثم نعود إلى المعركة السياسية الرئيسية.. معركة المطالبة بالدستور ومهاجمة أذناب الإنجليز، دون أن نشتبك فى عداء عنيف مع الوفد. وحدثت الدكتور عزمى فى ذلك فكان من رأيى، على أننا لم نستطع أن نقف أمام غضب الأستاذ العقاد الجارف، وإصراره على أن يمعن فى مهاجمة النحاس ومكرم هجومًا جارحًا إلى أقصى الحدود..

فما هى إلا أيام حتى نشبت بين مكرم والعقاد معركة رهيبة تبادلاً فيها أقذع الأوصاف.. مكرم يقول إن العقاد «مغرور لئيم وخائن أثيم» والعقاد يصف مكرم بأنه «الدساس الدجال»، وقد

وصلت المعركة إلى ذروتها يوم أخذت جريدة "كوكب الشرق" الوفدية التى كان يرأس تحريرها الدكتور أحمد ماهر أخذت تعلن خمسة أيام متوالية عن مقال لمكرم عبيد نشر يوم ٦ أكتوبر ١٩٣٥ بعنوان «نهاية العقاد» نسب فيه مكرم إلى العقاد أنه بدأ حياته الصحفية بمراقبة الصحف المصرية تحت إشراف السلطة العسكرية البريطانية أثناء الحرب العظمى وأنه كان يأخذ من الوفد مرتبًا شهريًا فى بعض الظروف!.

وفى ٧ أكتوبر ١٩٣٥ - أى اليوم التالى - رد العقاد على هذه الاتهامات ردًا بالغ العنف.. قال فيه إنه لم يعمل فى الرقابة إلا سبعة أيام ثم اصطدم بالرؤساء الإنجليز، لأنه كان يحابى الصحافة المصرية. فأخرجوه من الوظيفة التى لم يلتحق بها إلا لكسب الرزق ولحاجته إلى العلاج من المرض الذى كان مصابًا به. وقال تعليقًا على تناوله مرتبًا من الوفد:

«إننى ما تناولت قط من الوفد مرتبًا وأنا فى غنى عنه، وإننى ما تناولت قط مرتبًا وأنا أجد الكفاية من عملى فى صحيفة من الصحف. وإننى كنت تناولت مرتبًا من الوفد يوم كانت الوزارات التى أهاجمها تغلق كل صحيفة أكتب فيها وتعرض على مئات الجنيهات ولا تطلب منى غير السكوت وأننى كنت أستطيع أن أسكت؛ لأن الصحف تغلق على الكره منى ولا حيلة لى فى غلق الصحف التى أكتب فيها، ولكننى كنت أؤلف الرسائل وأطبعها على الرغم من رقابة المطابع متحديًا لما يريدوننى عليه من سكوت مأجور.. ثم يستطرد مخاطبًا مكرم: "فإن كان هذا عارًا يا وغد فقل لى أخذاك الله ففيم كان الوفد يجمع الألوف من الجنيهات، بل

مئات من الألوف من الجنيهات باسم القضية الوطنية واسم الأعمال السياسية» ..

وكان مكرم قد عير العقاد فى مقاله بأنه دافع عنه يومًا فى إحدى القضايا فرد العقاد بأنه كان يدافع بقلمه عن مكرم كل يوم.. «غير أنه دافع عنى فخرجت محبوسًا ودافعت عنه فخرج منصورًا على خصمه وشتان بين دفاع ودفاع».

وألقى مكرم خطبة قال فيها إن «الحركة الوطنية فى مصر قد تطورت إلى زعامة وأن الزعامة قد تطورت إلى زعيم!!» فأخذ العقاد يقول عن مصطفى النحاس إنه "الطور الأخير" للحركة الوطنية!!

وقد سقت هذه المقتطفات لكى أبين للقارئ إلى أى حد كانت حرية القول متروكة للصحفيين، ولو أن أسلوب الكتابة قد ارتقى الآن وخلا من هذه التعبيرات العنيفة.

ولم تقف هذه المعركة العنيفة عند حد الكتابة فى الصحف، والتراشق بالتهم، بل لعل هذه الحملات الكلامية كانت أبسط مظاهرها.. فالوفد فى ذلك الوقت حزب كبير منظم إلى أبعد الحدود.. وله لجان نشيطة منبثة فى كل قرية وفى كل شارع وبإشارة واحدة من قيادة الوفد كانت هذه اللجان تتحرك.. وقد أعطيت لها الإشارة هذه المرة كى تنهض إلى محاربة «روزاليوسف» بشتى الوسائل.. ونشط أعضاء اللجان يعملون.. فهم يرسلون إلى الصحف برقيات الاستنكار لموقف «روزاليوسف» وبرقيات التأييد لقرار الوفد بالعبارات المألوفة "نؤيد قراركم وتسقط روزاليوسف"..

وهم يتربصون للجريدة اليومية والمجلة الأسبوعية، يخطفونها من الباعة، ويمزقونها أو يحرقونها، فإذا رأوا واحدًا يسير وقد حملها فى يده هجموا عليه وتعدوا عليه بالضرب. وكان باعة الصحف أنفسهم - كأغلبية الشعب الساحقة - من الوفديين المتطرفين فكانوا يخفون الجريدة ولا يعرضونها للبيع.. وتعرضت من جراء ذلك لمتاعب وخسائر مادية كثيرة.. واضطررت إلى الاستعانة بعدد كبير من الموظفين ليقوموا بمهمة التفتيش على باعة الصحف فى جميع أنحاء القطر والإشراف على عملية التوزيع. وأذكر أنه تقدم إلى فى ذلك الوقت رجل متحمس عرض على أن يقوم بهذه المراقبة.. وكان يواصل العمل ليلاً ونهارًا ويخرج من داره مع الفجر يراقب توزيع الجريدة ويحاول دفع العدوان عنها، وقد أصبح بعد ذلك عضوًا فى البرلمان وتاجرًا من كبار التجار الناجحين.. ذلك هو صديقى الأستاذ جلال حسين.

على أن هذه الحرب الشاملة التى شنها الوفد على لم تنجح تمامًا فى إخفاء ما تسرب إلى كيانه من بوادر الخلل.. فقد كان موقف "روزاليوسف" إلى يوم فصلها موقفًا وطنيًا قويًا يحظى بتأييد الرأى العام.. وكانت هى الجريدة الوحيدة التى تطالب بالدستور كل صباح.. فكانت إدارة الجريدة لا تخلو ساعة من وفود الشباب الذين يؤيدوننا. وكانوا جميعًا يوجهون سؤالاً واحدًا: لقد خرجنا من الوفد.. ولكن من يتزعم البلاد بدلاً من مصطفى النحاس؟..

كذلك وقع الاضطراب فى كثير من اللجان الوفدية فى الأقاليم فانشقت على نفسها.. أعضاء يرسلون برقيات التأييد إلى الوفد وأعضاء يرسلون تأييدهم إلينا. وكنت أتلقى إلى جانب ذلك

خطابات كثيرة من كبار التجار والأعيان الوفديين فى الأقاليم يؤيدون موقف روزاليوسف..

وقد دفعنى ذلك للتفكير فى القيام برحلة إلى الأقاليم.. لأزور هؤلاء الأصدقاء الذين يبعثون إلى بتأييدهم من جهة، ولكى أدرس مشاكل توزيع الجريدة بنفسى من جهة أخرى، وقررت أن أبدأ بزيارة الوجه البحرى.. الذى عرف دائمًا أنه معقل وفدى، وصحبت معى فى الرحلة الأستاذ توفيق صليب سكرتير تحرير «روزاليوسف اليومية».. والأستاذ يوسف حلمى الذى كان محررًا بها..

وفى هذه الرحلة كان على أن أتعلم تجربة جديدة..

ووصلت إلى طنطا.. وطفت بالأعيان والتجار الذين كانوا يبعثون إلى بخطابات حارة من التأييد. فماذا رأيت؟.. رأيت أنهم يفرون من استقبالى علنًا، ويسعون إلى ملاقاتى سرًا يبثوننى تأييدهم وتقديرهم بعيدًا عن الأعين، ثم يبدون لى أسفهم - وخجلهم - من هذا الموقف الغريب. ويبررونه بخوفهم من قرارات الوفد، ومن عيون اللجان الوفدية.. ونصحوا لى بأن أرحل من المدينة مع الصباح الباكر، حتى لا تحدث أية مظاهرات ضدى. وتصادف أن رأيت بنفسى بعض الناس يضربون مواطنًا فى ميدان الساعة؛ لأنه كان يجلس فى أحد المقاهى ويقرأ «روزاليوسف».. فعلمت أن تحذيرهم جد.. وسافرت إلى المنصورة..

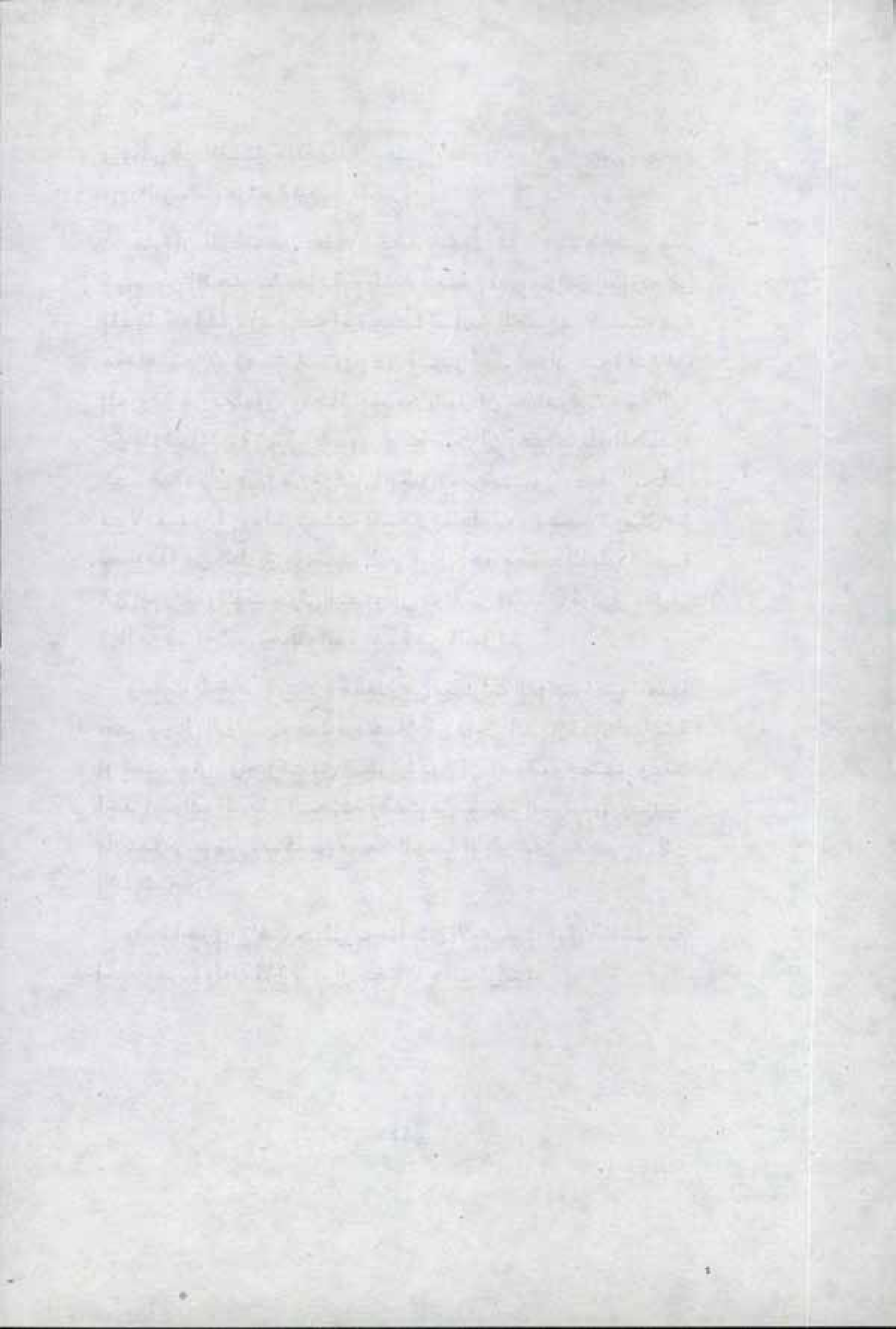
وفى المنصورة تكرر نفس الوضع، كنت ذاهبة بدعوة من أحد أطباء المنصورة المعروفين من المشتغلين بالسياسة.. فلما وصلت إلى هناك بحثت عنه وإذا به فص ملح ذاب!.. وفى الليل، فوجئت به

يزورنى فى الفندق متلصصًا، معتذرًا، مبديًا موافقته على سياسة «روزاليوسف» موافقة ليست للنشر!..

على أن الموقف فى دمنهور اتخذ شكلاً آخر.. فقد قابلنى عدد كبير من التجار بشجاعة، وطفت معهم بعض مراكز التوزيع فى المدينة علنًا.. وعقدت اجتماعًا لباعة الصحف كسبت فيه صداقتهم. ثم ذهبت أستريح فى متجر أحد أفراد أسرة الكاتب المعروفة فى دمنهور. وفجأة جاء من يقول إن مظاهرة ضخمة آتية من طرف المدينة تهتف ضدى. ثم لم نلبث أن أحاطت بنا المظاهرة الصاخبة. كان فيها من يركبون الخيل. ومن يهتفون بحياة النحاس مع لامبسون! وبدأت تقذف المتجر بالطوب والحجارة وبكل ما يصادفها فى الطريق. وعلمت أنهم عمال أحد محالج القطن الكبيرة فى المدينة. وتلفت حولى أبحث عن مرافقى الأستاذ توفيق صليب فإذا به قد اختفى تحت مائدة بعيدة فى المحل!.

وشقت المظاهرة سيارة مقفلة من سيارات البوليس هبط منها بعض رجال البوليس وحملونى حملاً إلى داخل السيارة دون مناقشة أو استفسار.. وتحركت بى السيارة دون أن أعرف وجهتها، وعند أحد أطراف المدينة البعيدة وقفت بى سيارة البوليس. ونزلت. وأركبونى سيارة تاكسى صدر إليها الأمر بأن تذهب بى إلى الإسكندرية..

ومرة أخرى، تلفت حولى باحثة عن الأستاذ توفيق صليب فلم أجده معى.. ولعله كان لا يزال مختفيًا حيث تركته!.



الفصل الرابع عشر

- «روزاليوسف» تستأجر صعايدة لمقاومة مظاهرات الوفد.
- عندما جرى النحاس وراء كامل الشناوى ليضربه.
- انتصرت «روزاليوسف» ... واشتعلت ثورة ١٩٣٥.

مضت المعركة بين «روزاليوسف» والوفد متصلة العنف بالغة المرارة.. لا تنقطع الصحف الوفدية عن مهاجمتنا صباح مساء، ولا يكف العقاد عن شن الحملات على مصطفى النحاس ومكرم عبيد..

وكان من أسوأ الأسلحة التى لجأ إليها الوفد.. اتهامه «روزاليوسف» بأنها تفرق بين عنصرى الأمة، إذا وقف النحاس فى حفلة أقامتها له نقابة المحامين بالإسكندرية ليلقى فيها كلمة عن الموقف السياسى، ولكنه ترك الموقف السياسى كله، وركز هجومه على «روزاليوسف» إلى أن قال إنها تعمل على التفريق بين عنصرى الأمة، وكانت التهمة جارحة، ولا أصل لها، بل هى فى قاموس الحركة الوطنية منذ قيام سعد مساوية للخيانة.. وفى اليوم التالى كتب الأستاذ توفيق صليب كلمة عنيفة يرد بها على هذا الاتهام، ويقول إن سكرتير تحرير الجريدة مسيحى، وأنه يتحدى كائنًا من

كان أن يجد فى «روزاليوسف» منذ صدورها كلمة واحدة بهذا المعنى..

واشتركت الحكومة مع الوفد فى حربها علينا. وهذا طبيعى ما دام الوفد قد أخرجنا بسبب هذه الحكومة. فكان توفيق نسيم يدفع لبعض متعهدى الصحف مبالغ ضخمة ليتلاعبوا فى توزيع الجريدة. وحاول مرة أن يغرى بعض الباعة بأن يقرروا كذبًا أن «روزاليوسف» توزع معها منشورات فيها خروج عن القانون!.

وكنت بالرغم من ذلك. وبالرغم من الخسائر الفادحة التى بدأت أتحملها من جراء الحرب التى أعلنها الوفد على الجريدة.. كنت لا أقر سياسة الهجوم الشخصى العنيف على النحاس ومكرم التى تطرف فيها العقاد، مدفوعًا بحرارة النضال، خصوصًا حين بدأ يتحدث ـ لأول مرة ـ عن السيدة زينب الوكيل، ولم تكن حتى ذلك الوقت قد برزت للناس، أو عرف لها فى السياسة المصرية دور..

ولم تكن تمضى أيام، ألا ويرسل الوفد مظاهرة من جماهيره يهتفون ضد الجريدة. ويقذفونها بالحجارة تحت سمع الحكومة وبصرها. بل وتشجيعها.. وكثيرًا ما تعرضت حياتنا للخطر حتى اضطررنا إلى استئجار عدد من الرجال الصعايدة الأشداء يتولون الدفاع عن إدارة الجريدة.. فلما وجدت المظاهرات أن هناك مقاومة جدية انقطعت عن الحضور..

إلى هذا الحد كان الجو الذى عشت فيه تلك الأيام عنيفًا.. الاتهامات تنهال ضدى فى الصحف الأخرى. والمظاهرات تقذف مكتبى بالحجارة.. والتوزيع يهبط نتيجة للوسائل غير الشريفة. وأرقام الخسارة تتصاعد أمام عينى بغير انقطاع.

ومع ذلك.. فقد كان زوار الجريدة كل ليلة لا يملكون أنفسهم من العجب، فالجو مرح صاخب، والضحكات والمقالب والنوادر تتوالى بلا انقطاع.. وكان الزوار يقولون: إن من يراكم فى الليل لا يصدق أن الخصوم يحاربونكم تلك الحرب العنيفة، أو أن الجريدة ستصدر مع الصباح كالقنبلة!.

وكان صديقى الأستاذ كامل الشناوى هو محور هذا المرح بغير منازع. وله كل يوم قصة أو تشنيعة أو نادرة تنشر الضحكات على الشفاه، وتمحو كل متاعب النهار.. وكانت براعته الغريبة فى تقليد الأصوات والنبرات تتيح له فرصة القيام بأكبر عدد من المقالب..

أذكر من النوادر التى تعرض لها كامل الشناوى شخصيًا، أنه كان يرافق النحاس فى رحلة إلى الصعيد مندوبًا عن «روزاليوسف» كما سبق أن رويت وفى أثناء الرحلة دعا النحاس إلى مأدبة فى عوامة راسية على النيل، وكان يصل العوامة بالشاطئ «لوح» من الخشب الرقيق يجب أن يعبره الشخص حتى يصل إلى العوامة.. وهو عادة لا يتحمل أن يمر عليه أكثر من شخص واحد مرة واحدة..

وتقدم النحاس ليعبر إلى العوامة، وقد رفع فى يمناه مظلته وسار فى بطء شديد حتى لا يختل توازنه على قطعة الخشب الرقيقة فيقع فى الماء.. وبينما هو فى وسط الطريق، شعر باللوح الخشبى يهتز به بشدة، حتى كاد يفقد توازنه، فاستدار إلى الخلف ليرى كامل الشناوى يسير بجسده البدين على اللوح، ولم يتمالك النحاس أعصابه من جراء ما استبد به من خوف وما كاد يتعرض له من الوقوع فى الماء، فشهر مظلته فى يده، واستدار ليضرب كامل الشناوى، وجرى كامل فى خفة غريبة عائدًا إلى الشاطئ والنحاس

يجرى وراءه يريد أن يضربه.. ولست أدرى هل استطاع النحاس أن يضربه حقًا، أم حال بينه وبين كامل بعض الحاضرين؟..

وكان كامل الشناوى يقلد النحاس فى هذا الموقف تقليدًا يضحك أشد القلوب حزنًا وهو يصيح فيه: أنت يا جدع أنت! انزل باقولك!.. وكان كذلك يقلده يوم زاره الأستاذ توفيق صليب مرة فى الإسكندرية قبل فصل روز اليوسف من الوفد ليحدثه فى بعض مشاكل الجريدة مع الوفد.. ودخل توفيق صليب على النحاس فإذا به يرى الغضب الشديد مرتسمًا على وجهه، وذعر توفيق، وتوقع انفجارًا من النحاس، وفعلاً انفجر النحاس قائلاً:

ـ تصورا.. الست امبارح أكلت بطيخ وباتت طول الليل بطنها توجعها!.

وأخذ النحاس يتحدث عن البطيخ الخسران ومرض الست.. وتوفيق صليب يحاول عبثًا أن يتكلم فى الموضوع الذى سافر من أجله إلى الإسكندرية.. فلما يئس، أبدى للنحاس آسفة لمرض السيدة زوجته وتمنياته لها بالشفاء.. وانصرف..

وذات يوم كتب العقاد مقالاً عنيفًا ضد نجيب الهلالى وزير المعارف وأعطاه لتوفيق صليب بوصفه سكرتيرًا للتحرير.. وقال له إنه مسافر إلى الإسكندرية وطلب منه ألا ينشر المقال إلا إذا اتصل به من الإسكندرية..

وفى الليل دق التليفون على مكتب توفيق صليب. وسمع صوت العقاد يحدثه من الإسكندرية ويطلب منه أن ينشر المقال غدًا.. ويطلب منه أن يضع خطوطًا تحت فقرات معينة فيه.. وانتهت

المكالمة بعد تعليمات كثيرة من العقاد. وبعد دقائق دخل كامل الشناوى على توفيق صليب ضاحكًا، فقد كان هو الذى قلد صوت العقاد.

وبعد ساعة أو تزيد دق التليفون مرة ثانية. ورفع توفيق صليب السماعة ليسمع صوت العقاد مرة أخرى يطلب منه الا ينشر المقال.. وظن توفيق صليب أن المتكلم هو كامل الشناوى مرة أخرى فانفجر فيه:

ـ يا أخى ما بلاش دوشة! أنت مش لاقى حاجة تعملها.. يا أخى أنا مش فاضى للعب ده!

ورد عليه الصوت ردًا عنيفًا فرد عليه توفيق ردًا أشد عنفًا واستمر يشتم محدثه فترة طويلة قبل أن يكتشف أن محدثه هذه المرة هو العقاد حقًا.

وكان هذا الحادث نكتة الأسبوع. فقد عاد العقاد من الإسكندرية فى أشد حالات الغضب للشتائم التى جرؤ توفيق صليب على توجيهها إليه. وعبثًا حاولنا أن نقنعه باللبس الذى وقع فيه توفيق صليب.. ورفض أن يصدق كامل الشناوى نفسه حين روى القصة. وظل يقول لى:

لا.. ده توفيق قاصدها.. هو عايز يهزأنى بأية طريقة.

وكان الأستاذ توفيق صليب بحكم عمله سكرتيرًا للتحرير يسهر كل يوم فى المطبعة حتى الساعة الرابعة صباحًا حين ينتهى الطبع. وفى إحدى الليالى اتصل كامل الشناوى بمنزلة توفيق صليب، وسأل عنه، فقيل له إنه سهران فى المطبعة كالعادة، وفى براءة شديدة

أبدى كامل دهشته من ذلك، لأن توفيق صليب يترك الجريدة كل يوم الساعة العاشرة مساء.

وتعرض توفيق صليب لأزمة منزلية عنيفة.

ولست أنسى يوم ثار العقاد على كامل الشناوى ثورة هائلة وكان كامل بريئًا لأول مرة.

فقد أحضر العقاد الرسام رفقى ليعطيه فكرة صورة كاريكاتيرية والمفهوم أن الصورة الكاريكاتيرية على الأرجح نكتة، يجب أن تكون قليلة الكلام.. ولكن العقاد أخذ يشرح له فكرة طويلة تشبه أن تكون مقالاً: المصرى أفندى يقول لجون بول كذا وكذا وكذا وجون بول يقول لموسيلينى مثلاً كذا وكذا وكذا. وشخصيات كثيرة تتجادل، وكلام طويل لا يمكن أن يكون نكتة.. وكان العقاد يبذل جهودًا جبارة لإفهام الرسام هذه "النكتة"، والرسام يحاول عبثًا أن يفهم كيف يمكن أن يرسم هذه الصورة.. حين دخل عليهما كامل الشناوى.

ونظر العقاد إلى كامل متهللاً، وأراد أن يشرح له النكتة، بوصفه خبيرًا فيها، وفرغ العقاد من شرح نكتته ليرى كامل واقفًا، ساكنًا، لا تبدو على وجهه نبرة ضحك أو ابتسام أو حتى فهم لهذه النكتة.. ولم يحتمل العقاد هذا الحكم فصاح غاضبًا:

ـ أنت مش راضى تضحك ليه؟.. عاوز تقول إن نكتتى بايخة؟ أنت عايز تحتكر النكت.. أنا بقالى عشرين سنة بقول نكت..

وعبثًا حاول كامل أن يهدئه، أو أن يقنعه بأن نكتته ليست «بايخة» إلى هذا الحد..

وعلى هذا النحو مضت بنا الأيام فى الجريدة اليومية... نضحك فى مواجهة المعركة، وتنسينا لذة الكفاح كل مصاعب الطريق..

وبينما نحن نهاجم توفيق نسيم لأنه يؤخر الدستور.. ونهاجم الوفد لأنه يهادن الوزارة والإنجليز.. ووقع حادث أكد للجميع أن «روزاليوسف» على حق ودفع كل من كانوا يقرءون حملات روزاليوسف كالمتفرجين إلى ميدان العمل والجهاد..

فقد وقف السير صمويل هور وزير الخارجية الإنجليزية فى مجلس العموم يقول إن حكومته لا توافق على إعادة دستور ١٩٢٣ فى مصر، لأن العمل قد أثبت عدم صلاحيته للتطبيق.

كان هذا التصريح كافياً ليؤكد ما سبق أن قالته «روزاليوسف» من أن التلكؤ فى إعادة الدستور مؤامرة أحد أطرافها الإنجليز وأن مهادنة لوفد لن تؤدى لإعادته بأى شكل..

ألقى هذا التصريح فى نوفمبر ١٩٣٥ أى بعد شهرين من إخراج «روزاليوسف» من الوفد بسبب حملتها على توفيق نسيم فانفجرت مراجل السخط التى عبأتها دعوتنا فى نفوس الشباب، وخرجت المظاهرات من الجامعة والمدارس تهتف بسقوط نسيم وبإعادة الدستور.. وتصدى البوليس بقيادة الضباط الإنجليز للمتظاهرين فسقط أول شهيد، وكان عاملاً، فى سرادق الوفد يوم ١٣ نوفمبر وبعده توالى سقوط شهداء الجامعة وسرق الطلبة جثث شهدائهم من مشرحة القصر العينى رغم الحصار المضروب عليه ليشيعوا جنازاتهم فى احتفالات رهيبة. وباتت الدعوة إلى إسقاط نسيم وإعادة الدستور بعد أن روتها دماء الشباب ـ صيحة على كل فم، وخفقة فى كل قلب.

وأفسحت «روزاليوسف» صفحاتها لهذه الثورة الشعبية التى أعادت إلى الأذهان ذكرى أيام ١٩١٩.. وأصدرت الأحزاب بيانات باستنكار تصريح الوزير الإنجليزى وضرب الشباب بالرصاص. وتبلورت الدعوة إلى ضرورة ائتلاف الزعماء جميعًا فى جبهة وطنية واحدة تطالب بإعادة الدستور وتواجه الإنجليز صفًا واحدًا.

وحمل الشباب عبء هذه الدعوة قبل الزعماء، بل إنهم أرغموا الزعماء على الائتلاف إرغامًا.

وتحقق ما دعت إليه "روزاليوسف" وحيدة.. وما احتملت من أجله الشتائم والاتهامات والرجم بالطوب.

أقلع الوفد عن مهادنة نسيم.

واتحد الزعماء فى جبهة وطنية..

ولم تستطع وزارة نسيم أن تصمد أكثر من ذلك فسقطت وكتبت «روزاليوسف اليومية» تقول:

«إذا كنا ممن لا يبيحون لأنفسهم التغنى بما لهم من مواقف فى الحركة الوطنية.. فإنا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا اليوم من تسجيل النصيب المتواضع الذى كان لهذه الصحيفة التى لم يكتمل بعد العام الأول من حياتها، من الجهود التى بذلت فى سبيل القضاء على الوزارة النسيمية».

«وإذا نحن اغتبطنا اليوم بهذه النتيجة الأولى التى وصلت إليها جهود هذه الصحيفة، وتوجت بها آراء كتابها فإنما نريد أن نذكر فى الوقت ذاته جهود أولئك الشبان الذين وقفوا إلى جانب هذه الصحيفة وعملوا أطهارًا مضحين على تحقيق ما نادت به من مبادئ وإذاعته من آراء».

أما هذه الجريدة المغتبطة بما وصل إليه جهادها فإن التوفيق الذى أصابته بإسقاط وزارة نسيم وبالعمل على توحيد الجبهة المصرية سيضاعف همتها ونشاطها ويدفع بها واثقة فيما ارتسمته لنفسها من خطة لا تعرف فيها غير مصلحة مصر ولا تنزل فيها إلا عند اعتبار الوطن.

الفصل الخامس عشر

- توقيع الحجز على ملابسى الداخلية.
- ٧٠٠٠جنيه تعويضاً عن لوح زجاج مكسور!
- عندما رهنت السوار الذى ورثته عن أمى

قلت إن ثورة ١٩٣٥انتهت بالنجاح إذ عاد الدستور وسقطت وزارة نسيم وتألفت الجبهة الوطنية، وبذلك تكون «روزاليوسف اليومية» قد كسبت المعركة ولكنها فى هذه المعركة خسرت حياتها.

فبتحقق الأهداف التى كنا نطالب بها وببدء عهد من الركود والمهادنة السياسية ذهب عنصر المقاومة العنيفة الذى كان يضع «روزاليوسف» فى مقدمة الصحف اليومية، وبالرغم من هدوء الحملات المتبادلة، فقد ظل الوفد على حربه لنا.. خصوصاً بواسطة لجانه ومتعهدى الصحف المتفاهمين معه.

وكانت «روزاليوسف» إلى ذلك كله قد خاضت المعركة العنيفة وحيدة بغير حزب يسندها، فلم يكن غريباً أن تخرج من المعركة مثخنة بكل هذه الجراح، ولست أنسى من صور تلك الحياة الحزبية أن على ماهر حين ألف وزارته بعد توفيق نسيم قرر أن تصرف

الحكومة تعويضات للصحف التى قاست من الاضطهاد خلال معركة إعادة الدستور التى استمرت من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٥ وكان لكل جريدة حزب من الأحزاب المؤتلفة يرعى مصالحها، ويطالب بحقوقها ماعدا «روز اليوسف» التى كانت مستقلة عن الأحزاب قائمة بذاتها، ولو قيست التعويضات بمقدار التضحيات لجاءت «روزاليوسف» فى المقدمة، وهى التى لم يكن يمر بها عام تفلت فيه من المصادرة إلا قليلاً، ولكن لأنها لم تكن خاضعة لحزب يرعى مصالحها، صرف لها ٥٠٠ جنيه فقط، فى حين صرف مبلغ سبعة آلاف جنيه - مثلاً - لجريدة أخرى كان كل ما تحملته من تضحيات المعركة لوح زجاج واحد انكسر فى إحدى المظاهرات.

وقد كان من جراء ذلك كله أن أحاطت بى أزمة طاحنة، لم يمر بى مثلها قط حتى لأكاد أحسب اليوم الواحد من أيامها بسنة كاملة من عمرى.. وكانت الأزمة مزدوجة، أزمة فى المال وفى الأخلاق..

أما عن أزمة المال، فقد وصلت خسائرى فى الجريدة اليومية بعد هذا التاريخ القصير المجيد، إلى ٢٦ ألف جنيه. غير ستة آلاف جنيه لتجار الورق. وألفين لبنك مصر، وبدأت الأيام تأتى فلا أجد فى يدى أجر المطبعة وثمن الورق.. خصوصًا أجر المطبعة فبعد أن كنت أدفع أجر المطبعة بالأسبوع، بدا صاحبها حين لمح هذه الأزمة يطالبنى بأن أدفع الأجر يومًا بيوم. ولربما جاء الليل وليس معى أجر الطباعة.. فهنا كان صاحب المطبعة يختفى بعد أن يترك أمرًا لعمال المطبعة بألا يعملوا إلا إذا دفعت النقود، ويقف عمال المطبعة أمام آلاتهم ساكنين.. جامدين يرفضون العمل إلا إذا دفع الأجر وتتمزق أعصابى مع مرور الدقائق.. فكل دقيقة تقربنا خطوة من

الصباح.. الصباح الذى يجب أن تخرج معه «روزاليوسف» متحدية الخصوم، هازئة بالعقبات.. والعمال واقفون.. والآلات ساكنة.. ولا بد من حل.

وقد اقترضت إلى أقصى ما أستطيع وبدأت أبيع ما أملك من مصوغات يوم بعد يوم.. لأدفع ثمن الورق والطباعة.. ولست أنسى تلك الليلة الكئيبة.. يوم ذهبت موزعة القلب لأرهن آخر قطعة بقيت لى من المصوغات، سوارًا ورثته عن أمى وصحبنى وكأنه يجلب لى الحظ، فى كل ما سبق من أيام.. ولكنى لم أجد بدًا من أن أرهنه.. أن أجعله بدوره وقودًا فى هذه المعركة الرهيبة.. وقد تحملت ألم التخلى عنه.. لأرى الآلات تدور، وأعداد «روزاليوسف» تخرج إلى النور..

وقد تعلمت من ذلك أن لا حياة لأية جريدة ما لم تملك مطبعتها، فالمطبعة هى عماد الصحيفة، وهى التى تستطيع أن تعصمها من كل حاجة.

وشعر الذين يعملون معى بالأزمة فبدءوا يتهيأون لمغادرة السفينة الغارقة.. ولم يكن يهمنى أن يتركنى صغار المحررين والمخبرين إذا بقى العلمان الكبيران: عزمى والعقاد، وكان فى وهمى أنهما سيبقيان فكل واحد منهما صاحب رأى، ولا يكتب لمجرد الكسب وكل منهما اشترك اشتراكًا كاملاً فى مسئولية هذه الحملة، على الوفد، وعلى توفيق نسيم، وكل السلطات ذات النفوذ فى مصر.

وبدأ عزمى بالخروج.. والمعروف عن الدكتور عزمى - ولو أنه كان أكثر ميلاً إلى الأحرار الدستوريين - أنه قد يشن الحملات على هذا

الحزب أو تلك الحكومة.. ولكنه لا يصل فى ذلك إلى حد القطيعة والعداء.. بل إنه يهتم بأن يبقى على صلاته الحسنة بجميع الأحزاب. وكان واضحًا أن الوفد آت إلى الحكم عن قريب. ولعله شاء أن يترك مسئوليته فى «روزاليوسف» التى بلغت فى خصومتها للوفد هذا المبلغ فقدم استقالته من رئاسة تحرير الجريدة.

وكان لابد للاستقالة من حجة فقال إن العقاد تناول بالحذف إحدى مقالاته ولم يكن هذا بجديد. فناقشته فيه طويلاً، ولكنه أصر على موقفه، وخرج.

ثم جاء دور العقاد وكان من رأيى بعد ائتلاف الأحزاب وتشكيل الجبهة الوطنية أن تتوقف الحملة الشخصية على النحاس ومكرم، ولكن العقاد لم يكن يقرنى على ذلك.. وفى إحدى المرات، أرسل لنا العقاد مقالاً كتبه صديق له اسمه «أبو سيف» على ما أذكر، قد ملأه بالمطاعن الجارحة.. والقذف الشديد فى شخصى النحاس ومكرم لا ساستها، وأطلعنى كامل الشناوى على المال. فرأى عدم نشره وتناقشنا فى الموضوع طويلاً، وقال لى الحاضرون إن عدم نشره سوف يغضب العقاد، فما كان منى إلا أن أخذت المقال فمزقته وألقيته فى سلة المهملات.

وفى الصباح لم يجد العقاد مقال صديقه فى الجريدة.. فذهب إلى جريدة «الأهرام» فى ٢٠ ديسمبر ١٩٣٥ وكتب فيها بيانًا يقول إنه تخلى منذ أمس عن التحرير فى جريدة «روزاليوسف».

كان خروج عزمى والعقاد ضربة أخرى أصابت الجريدة فى أيام محنتها، وكان متعهدو الصحف يقولون لى: «الكتبة كلهم طلعوا من

عندك» فبعد عزمى والعقاد خرج الآخرون. فلم يبق معى إلى النهاية إلا الأستاذ توفيق صليب.. ولقد ذكرت، والكل منفضون من حولى يوم عرض على الوفد أن أخرج عزمى ثمنًا للصلح معه فرفضت صوت عنيف: أنى معك إلى النهاية.

ويوم وضع العقاد يده فى يدى وقال لى فى صوت عنيف: أنى معك إلى النهاية.. وإزاء هذه الأزمات المتوالية.. رأيت أن أصرف همى فى إصدار الجريدة إلى مجرد الاحتفاظ بالرخصة حتى تلتئم الجراح وأعبر المحنة مؤمنة بأن اليوم سيجىء، يوم تستعيد «روزاليوسف اليومية» قوتها وتتوقف مقاومة الوفد لها.. ويعود إليها عصرها الذهبى.

وكان أول واجب على فى هذا السبيل هو أن أعمل على تخفيض المصروفات، كما يصنع وزراء المالية فى هذه الأيام ونظرت فرأيت أنى أستأجر لمطبعة المجلة الأسبوعية مكانًا فى شارع قوله.. ولعملية الجمع مكانًا آخر فى شارع أبى السباع، وللإدارة مكانًا ثالثًا فى شارع الساحة.. فقررت أن أجمع هذه الفروع كلها فى مقر واحد. واستأجرت مبنى ضخمًا من ثلاثة أدوار وفناء واسع فى شارع الفلكى - المبنى الذى تشغله الآن مدرسة الفنون الطرزية - جمعت فيه كل فروع الإدارة والمطبعة واخترت فى الدور الثالث من المبنى جانبًا اتخذته سكنًا خاصًا لى.. وبدأت أشرف على إدارة هذه المملكة الصغيرة المجاهدة لكى تستطيع أن تمضى.

ولكن الوفد لم تخف عليه محنتى المالية، ورآنى مصممة على البقاء فأراد أن يجهز على.. وبدأت أتلقى سيلاً من الحجوزات من أصحاب الديون.. من أصغر عمال المطبعة إلى أكبر تجار الورق أو

المحررين، وأنا كواحدة من المواطنات أستطيع أن أقرر أن نظام الحجز التحفظى عندنا فيه غبن كبير. فأى شخص مهما كان سنده، ومهما كانت قيمة دينه، يستطيع أن يحجز على ما يشاء.. وإذا تبين بعد ذلك أن الحجز كيدى أو لا أصل له فلا عقاب على هذا الحاجز ولا ملام... وقد كان على أن أتلقى كل يوم... وبغير مبالغة. عشرات الحجوزات قد لا أعرف لها صاحبًا، أو أجد لها سندًا.. وكلها تتطور إلى قضايا ومنازعات لا آخر لها.. وفى هذه الدوامة من القضايا والمشاكسات، كان على أن أمضى.. وأن أجد وقتًا وعقلاً وأعصابًا أدفع بها عجلات الجريدة والمجلة.. وأثبت للخصوم والمنافسين والشامتين أننى قد أتلقى كل ما يخطر على البال من ضربات، ولكنى لا أتوقف.

على أننى من بين هذه القضايا والحجوزات التى لا تعد أرانى مضطرة إلى أن أذكر حجزين منها بالذات.. رسخ كل واحد منهما فى ذاكرتى كالنقطة السوداء التى لا تمحى.

أما الحجز الأول فقد كان من أحد الذين عملوا فى الجريدة كمخبر وهو الآن محررًا فى جريدة «الأهرام». وكان المبلغ الذى يطالب به المحرر الزميل ست جنيهات، ولم يكفه أن يحجز من أجلها على مطابع «روزاليوسف الأسبوعية» أو المكاتب، أو الورق بل حدد طلباته بالحجز على ملابسى الداخلية..!

وجاء المحضر يحمل ورقة الحجز التى أجهل ما فيها.. ورأيته يصعد السلم إلى شقتى الخاصة. وكان يجلس معى فى تلك اللحظة الصديق أحمد حسن وقال المحضر إنه جاء يحجز على شقتى وعجبت لذلك، وقلت له إن أمامه المطبعة والمكاتب وغيرها، ولكنه

أصر على أن يحجز على الشقة، وفقدت أعصابي ودفعته بيدى دفعة قوية ألقت به على السلم بضع درجات لولا أن أدركه الأستاذ أحمد حسن، وطلب المحضر الطيب أن ينتحى بأحمد حسن جانبًا، ثم همس له بالحقيقة المؤلمة بأن الإعلان مطلوب فيه الحجز على ملابسى الداخلية بالذات. وقال له: لقد كنت أريد أن أجنب السيدة أن تعرف ذلك. كنت أريد أن أتظاهر بالحجز على بعض الأثاث.. وقال إنه من قراء «روز اليوسف» القدامى وكم يحز فى نفسه أن يضطر إلى القيام بهذا الواجب الثقيل..

ونقل لى أحمد حسن هذا الحديث، فتأثرت لنبل هذا الرجل الذى لا أعرفه، وكيف أنه تحمل إهانتى له لكى يجنبنى أن أعرف حقيقة الحجز، فلما عرفت اعتذرت له، ودعوته إلى الدخول وسجل فى محضره بعض الثياب دون أن يفتح دولابًا واحدًا لمجرد الشكل ثم انصرف.

أما الحجز الثانى الذى ما أزال أذكره فقد كان من الدكتور محمود عزمى نفسه.. ولذلك قصة..

فقد حدث عقب استقبال عزمى مباشرة أن رفع على دعوى يطالبنى ببقية العقد وذهبت إلى المحكمة فى موعد الجلسة حيث التقيت بمحاميه المرحوم عبد الرحمن البيلى. ،كان صديقًا فلما أطلعته على استقالة عزمى دهش الأستاذ البيلى، وانصرف تاركًا الجلسة والقضية وشطبت الدعوى.

ومضت الأيام.. حتى فوجئت فى خضم هذه الحجوزات بإعلان حجز يأتى من أحد محامى المختلط ودهشت ثم زادت دهشتى حين

وجدت اسم محمود عزمى فى الموضوع.. فلما عرفت الحقيقة كاملة انقلبت دهشتى حزنًا عميقًا.

فقد حدث حين كان عزمى يعمل رئيسًا للتحرير أن تلقيت حجزًا على مرتبه عندى نظير مبلغ كبير سبق أن استدانه أثناء إقامته فى لندن، وكان مرتب عزمى ستين جنيهًا، يأخذها كاملة أول كل شهر، فرجانى أن أقرر أنه لا يأخذ من مرتبه إلا ثلاثين جنيهًا فقط فى الشهر حتى تقل قيمة المبلغ الذى سيخصم من مرتبه وفاء لهذا الدين، واستشرت الأستاذ إبراهيم عبد الهادى فى ذلك فنصح لى بأن لا أقرر شيئًا مخالفًا للحقيقة، ولكننى إزاء إلحاح عزمى قررت بما يريد ولم أدر أننى سأدفع ثمن ذلك يومًا.

فلما خرج عزمى. وانقطعت صلته بالجريدة، فوجئت بعقده معى يصل إلى محامى دائنه. الذى رفع الدعوى ليطالبنى بالفرق بين مرتب عزمى الذى نص عليه العقد، والمبلغ الذى كتبت إقرارًا بأنه لا يأخذ سواه.

ولما ذهبت إلى المحامى الأجنبى رأيت بنفسى هذا العقد بين يديه، فلم أجد ما أقول.. إلا أن اعترف بغلطتى حين كتبت هذا الإقرار المخالف للحقيقة.. وقدر المحامى حسن نيتى، فاتفق معى بعد توسط الأستاذ ادجار جلاد على أن أدفع له هذا "الدين" على أقساط، وانقضت الشهور وأنا أسدد دينًا لم اقترضه يومًا، أو بالأدق وأنا أدفع ثمن غلطة أقدمت عليها يومًا بحسن نية خدمة لزميل يعمل فى الجريدة.

وبينما أنا فى هذا الموقف العصيب أحارب وظهرى إلى الحائط وأحاول أن أرفع رأسى فوق مستوى الموج الذى تثيره الخصومات

ظهرت نتيجة الانتخابات بنجاح الوفد كما كان متوقعًا، وتولى النحاس رئاسة الوزارة، وكان معنى ذلك أن أتوقع موجة أخرى عالية من الاضطهاد.

ولم يطل انتظارى، فقد صدر قرار من مجلس الوزراء بإلغاء رخصة «روزاليوسف اليومية» بحجة أنها لا تصدر بانتظام.. وهكذا بضربة واحدة، سكت هذا القلب الخافق بعد حياة قصيرة حافلة، وبعد أن ترك فى أرض السياسة المصرية.. والصحافة المصرية آثارًا لا تزول، وقد كان حزنى على هذه الجريدة لا يقدر. وكان عزائى الأكبر أننى لم أحكم عليها بالموت، ولم أفكر فى الوقوف بها يومًا عن الصدور بل كان توقفها من الخارج، وبإرادة لا دخل لى بها.

وتلفت إلى المجلة الأسبوعية، فهذه المخلوقة العزيزة، وإن كانت قد قاست الكثير من أختها اليومية.. إلا أنها بأساسها القديم المتين تستطيع أن تمضى، بل يجب أن تمضى.. ولم أكن أعرف أننى من أجلها سأدخل السجن.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفصل السادس عشر

- الليلة الرهيبة التى قضيتها فى سجن مصر..
- الحرب التى شنها النقراشى على روزاليوسف!
- السجون التى يوضع فيها أصحاب الرأى.. لم تتغير!

ألغت وزارة الوفد إذًا رخصة «روزاليوسف اليومية» فختمت بضربة واحدة كفاحها القصير، المرير.

ثم تحول هجومها إلى «روزاليوسف» الأسبوعية تريد أن تلحقها بأختها، وكان غريبًا أن يتولى قيادة هذا الهجوم الرجل الذى كان يؤيد «روزاليوسف» فى خطتها ويعارض فى فصلها من الوفد إلى أن فصلت، وهو المرحوم النقراشى.

وقد رويت أننى لم أكن قد دفعت التأمين المطلوب لرخصة «روزاليوسف» الأسبوعية، وهو مائة وخمسون جنيهًا إذا اكتفت الحكومة منى بأن أقدم لها ضامنًا بهذا المبلغ. وكان هذا الضامن هو المرحوم عبد الحميد البنان، من أعضاء الوفد البارزين، ومن أصدقاء النقراشى بالذات.

وطلب النقراشى من البنان أن يسحب ضمانه لى فجأة، وقال له: لا يصح أن تكون وفديًا وضامنًا لمجلة تهاجم الوفد.

وفعلاً سحب البنان الضمان.. وبغير سابق إنذار. وتلقيت فى هذه المحنة التى سبق أن شرحتها - تلقيت أخطارًا من وزارة الداخلية بأن أدفع مبلغ ١٥٠ جنيهًا من خلال ٢٤ ساعة وإلا تصبح رخصة المجلة الأسبوعية - أيضًا - لاغية..

مائة وخمسون جنيهًا.. فى أربع وعشرين ساعة.. وبين أكداس الديون والحجوزات والقضايا الكيدية..

وطالت بى الساعات، تفتت أعصابى وأنا أبحث عن مخرج.. أى مخرج يحفظ على مجلتى الأسبوعية كيما أعتصم وأقاوم..

وأخيرًا.. اتصلت بصديق من المعلنين فى المجلة فوافق على أن يقرضنى مائة جنيه.. وسمع الصديق مصطفى القشاشى سكرتير نقابة الصحفيين حاليًا - ولا أنسى له هذا الموقف أبدًا - سمع بقصتى، فأرسل إلى كمية من الورق قال إنه فى غنى عنها، وأننى أستطيع أن أتصرف فيها، ومن هذا الورق توفرت لى الخمسون جنيهًا الباقية، وقبل أن تنتهى الأربعة وعشرون ساعة - مدة الإنذار - بربع ساعة فقط، ذهبت بين دهشة الجميع أدفع التأمين المطلوب.

وتنفست الصعداء.

على أن النقراشى ظل يقود الحملة.. ولجأ فى ذلك إلى وسائل صغيرة.. أذكر منها أننى فوجئت بمصلحة السكك الحديدية تقطع عنى إعلاناتها التى توزعها على جميع الصحف.. وذهبت إلى مديرها الأستاذ محمود شاكر مستفسرة فأطلعنى على أمر بذلك، صادر إليه من النقراشى وزير المواصلات فى ذلك الوقت.

على أن الأقدار شاءت أن تسترد «روزاليوسف» قوتها ويرتفع بعد هذه الأزمة صوتها.. بسبب النقراشى نفسه.

فقد لاحت فى الأفق بوادر الأزمة بين الوفد والنقراشى.. وتسربت إلينا أنباء الخلاف الذى دب فى مجلس الوزراء بين النقراشى، ومحمود غالب من جهة وعثمان محرم ومكرم عبيد من جهة أخرى بسبب مشروع كهربة خزان أسوان، واعتراض النقراشى على الطريقة التى كان عثمان محرم يريد أن ينفذ بها المشروع.

وكانت هذه الخلافات كلها حبيسة جدران كثيفة من الكتمان حتى صدرت «روزاليوسف» تحمل نبأ صغيرًا يقول: إن النحاس سوف يعيد تأليف وزارته. وأن النقراشى ومحمود غالب لن يدخلا فى الوزارة الجديدة! فقد انفجر هذا الخبر الصغير كالرعد، وأحدث فى الموقف السياسى هزة عنيفة.. وكان بداية شقاق كبير انتهى بخروج ما يقرب من مائة نائب من الوفد.

كان هذا النبأ الصغير كافيًا لأن يدفع توزيع روزاليوسف إلى قمته القديمة، فيصل بعد عدد واحد إلى أكثر من ٥٠ ألف نسخة، وهو أعلى رقم فى ذلك الوقت.. وأدرك الجميع أن «روزاليوسف» ستعيش.. وأحسست من هذا الارتفاع معناه العكسى: أن أسهم الوفد فى هبوط.

وهنا أجد نفسى مضطرة إلى ترك هذه الوقائع جانبًا.. وراء بعض التأملات.

وأول خاطر يطوف بالبال.. هو الأسف على أن مشروع خزان أسوان لم يتم فى تلك الفترة، وبأية صورة من الصور. فلو قد تم

لعاد على البلاد بفوائد لا تقدر، ولغطت أرباحه كل ما كان ممكنًا أن يضيع نتيجة سرعة التنفيذ أو حتى أخطائه.. ولكان لنهضة مصر الصناعية اليوم ـ بعد خمس عشرة سنة ضائعة وجه آخر.

أما الخاطر الثانى فهو يتعلق بتلك الحقيقة، وهى: إن روزاليوسف هى أول مجلة يحاربها الوفد ثم لا تموت، ولاشك أن هذه علامة على أن الوفد بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ ـ قد بدأت قوته تقل، إذ ظن أن معركته مع الإنجليز قد انتهت ولو إلى حين بعيد، فاسترخت عضلاته، وبدأت الأفكار فى أعقاب المعركة تتطلع إلى الغنائم. وفى تنازع هذه الغنائم دبت الخلافات.. وتوالت الانشقاقات..

المهم... أن الهدنة السياسية التى سبقت معاهدة ١٩٣٦ وأعقبتها قد انتهت وأن «روزاليوسف» عادت إلى حملاتها العنيفة على الحكومة.. وقابلت الحكومة هذه الحملات بالشدة الشديدة.. فكانت المجلة تصادر أسبوعًا وتصدر أسبوعًا.. وكانت فرق القمصان الزرقاء لا تفتأ تهاجم مقرها بالطوب والحجارة.. والبوليس فى كل بيت يحيط بها، وينتظر أول سيارة تخرج حاملة الأعداد فيقفز عليها، ويقلب صفحاتها باحثًا عن حجة.. ثم لا يعدم حجة حتى يصادرها.. وبعد كل مصادرة تجىء النيابة تفتش الدار، وتقلب الأثاث، وتواجهنى بمواد قانون العقوبات.

ثم حدث حادث غريب، بدا فى أول الأمر تافهًا صغيرًا.. فقد جاء أحد وكلاء النيابة مع قوة من البوليس يفتش المجلة، وكان هذا أمرًا عاديًا. على أنى وجدت فى طريقه وكيل النيابة فى التفتيش استفزازًا عجيبًا ومبالغة فى الإرهاب، فلم أملك نفسى من

الاصطدام به. وصاح وكيل النيابة قائلاً إن فى تصرفى تعديًا عليه أثناء تأدية وظيفته.. وتلك تهمة فى قانون العقوبات خطيرة، والتفت إلى أحد جنوده آمرًا: يا عسكرى.. خدها فى اللورى ووديها على النيابة.

وأفلتت منى الأعصاب فقلت له: يظهر أنك عاوز تترقى على حسابى.

فزادت ثورة وكيل النيابة، ورأى فى كلمتى هذه تعديًا آخر وجريمة ثانية.. وأصر على أن يضعنى الجند فى اللورى ويأخذنى إلى النيابة.. ورأيت أن من حقه أن يستدعينى إلى النيابة، ولكن ليس من حقه أن يسلك هذه الطريقة.. وقلت له إننى سأذهب إلى النيابة بمفردى.

وانصرف وكيل النيابة، وذهبت بمفردى ليحقق معى الأستاذ توفيق رضوان رئيس النيابة فى ذلك الوقت بتهمة التعدى على وكيل النيابة.

ودام التحقيق طويلاً، وملأت الأسئلة والأجوبة عشرات الصفحات.. ثم رفع الأستاذ توفيق رضوان رأسه إلى، وقال

ياست فاطمة.. والله أنا متأسف اللى حاحبسك..

وذهبت بى الدهشة إلى أقصى الحدود ولكنى قلت له فى هدوء: أتفضل....

وذهبت مخفورة إلى سجن مصر.

فلما دخلت حجرة مأمور السجن وحولى الجنود، لم يملك المأمور نفسه من الدهشة، فقد تعود على أن يأتيه المحبوسون فى قضايا

الرأى، ولكنه لم يستقبل سيدة واحدة من هذا الطراز لم يسبق له أن استضاف فى سجنه من النساء إلا مرتكبات القتل أو غيره من الجرائم.. أما أن تأتى إلى السجن سيدة من غير هذا الطراز.. فتلك مشكلة كبيرة.

ويجب أن اعترف بأن المأمور كان طيب القلب، كريمًا معى إلى أقصى الحدود.. إلى أقصى حدود التعليمات فلم يشأ أن يرسلنى - كالعادة إلى زنزانة السجن مباشرة، بل إبقانى فى مكتبه إلى الساعة الرابعة عصراً، ليجنبنى خشونة الحبس أطول وقت يستطيع وقضيت النهار أسير معه حيث ذهبت فى أرجاء السجن.. عيناى مفتوحتان على آخرهما، تحدقان فى هذا العالم العجيب الخاص الذى تفصله عن عالمنا الخارجى أسوار غلاظ.. والذى يبدو كأنه أقيم من زمن قديم جداً؟ لكى يعيش فيه ناس من فصيلة غير فصيلة البشر، أو هكذا بدا لى فى هذه النظرة الأولى.

فلما جاءت الساعة الرابعة.. ووجد أنه لابد مما ليس منه بد.. تقدمنى إلى القسم المخصص لسجن النساء.

ودخلت على كبيرة السجانات التى يجب أن تتسلمنى.. امرأة ضخمة هائلة لا يمكن أن يقل وزنها عن مائتى كيلو.. متجهمة كأنما ولدت وهذا التهجم على وجهها. غليظة الصوت والإشارة كأنها صنعت مع هذا السجن فى يوم واحد، ولم ترفع رأسها عن المائدة التى تجلس عليها، وقالت وأنا أدخل باب الغرفة.

هما جابوكى تانى؟

فتوقفت دهشة. ما معنى هذه الكلمة؟ أيمكن أن تخلط السجانة بينى وبين الأخريات؟ ولكننى علمت بعد ذلك أنها عادة لها أن

تستقبل كل واحدة بهذه الكلمة.. لأن أغلب نزيلات السجن . وكل سجن . لابد عائدات فلما رفعت رأسها ورأت أمامها سيدة تلبس ثيابًا حديثة، وتبدو . بالنسبة لها ولزبائنها . من طراز آخر.. شهقت بصوت مرتفع.. ثم بدا فى حركاتها الاحترام الشديد. كأنها تقدر أهمية سجنها الذى بدأت تنزل فيه سيدات غير من ألفت.. كررت نفس تصرف المأمور معى فأبقتنى فى حجرتها ساعة أخرى لتجنبنى فيها دخول الزنزانة ومرة أخرى وجدت أنه لابد مما ليس منه بد.. فتقدمتنى ـ هى والمأمور ـ إلى الزنزانة.

وفى الزنزانة.. هذه الحجرة الضيقة الخشنة.. التى يستوى فيها الأرض والحيطان فى اللون الكئيب الكالح، والكوة الصغيرة التى يتسرب منها النور.. والحشية الخشنة الملقاة على الأرض فى إهمال.. والجردل الموضوع فى الركن.. والباب الذى يصر صريراً ثقيلاً بطيئًا، وهو ينفتح فى هذه الزنزانة رأيت مجاملة أخرى رقيقة من المأمور.. مرآة صغيرة ومشطًا أحضرهما من بيته، حاول أن يزين بهما الزنزانة، بقدر ما يستطيع.

ودرت ببصرى فيها.. ولم أجد شيئًا غير ما رسمته فى مخيلتى قبل أن أراها إلا حلقة ثقيلة مثبتة فى الحائط يتدلى منها جنزير حديدى غليظ.. وسألته ما فائدتها؟ فقال لى المأمور: إن هذه الحجرة سبق أن نزل فيها رجل محكوم عليه بالإعدام، وكان مقيداً إلى هذه الحلقة.

وسرت فى بدنى رعشة، حاولت أن أخفيها.

وأغلق على الباب بعد أن صر صريره البطىء الثقيل. ودار المفتاح فى القفل وابتعدت الخطوات.. وكان النور الضئيل فى

الزنزنة قد بدأ ينسحب خارجًا من الكوة، فلم تمض ساعة حتى كانت الزنزانة الضيقة قد غرقت فى ظلام دامس، لا يميز الإنسان فيه يده ولا أقرب الأشياء إليه.. وأنا ما أزال واقفة على قدمى، متوترة الأعصاب.. متقززة من المكان.. لا أطيق الجلوس على الأرض، أو الاستناد إلى الحائط. كان شيئًا يصدنى عن لمس هذه الجدران.

وفى جوف هذا الظلام اقتربت خطوات ودار فى ثقب الباب مفتاح، ثم انفتح فى بطء، وامتدت يد سجانة وضعت على الأرض شيئًا قالت إنه العشاء الذى أرسل إلى من البيت، ثم أغلقت الباب ومضت، وكنت لم أذق منذ الصباح طعامًا.. وقد جعلتنى هذه الانفعالات أشعر بالجوع الشديد دون أن تتحرك شهيتى للطعام.. وانحنيت أريد أن أمسك التفاحة الموضوعة على الطعام. فإذا بيدى تدخل فى صحن الخضار فجذبتها مسرعة وعاد إلى سخطى وعزمت على ألا أذوقه.

وقد كنت أتصور السجون فى الليل قبورًا مغلقة، ساكنة صامتة، الأفواه فيها كالأبواب مغلقة بإقفال من حديد.. ولكن تلك الليلة الرهيبة غيرت ظنى. فالسجن فى الليل ـ أول الليل ـ مثال للصخب والضجيج.. كل سجينة فى زنزانتها، ولكن هذا لا يمنع من الشجار وتبادل الشتائم والألفاظ عبر الجدران، وقد سمعت تلك الليلة من الألفاظ والشتائم والأصوات المنكرة ما لم أسمع بمثله قط.. ولربما بلغت صيحات بعضهن حد التشنج أو حسبت إحداهن تفرع رأسها فى الجدار.. وكلهن قاتلات أو سارقات، أو تاجرات حشيش أو شىء آخر، ويكاد يخرجهن السجن عن نطاق البشر..

أفى هذه السجون يوضع أصحاب الرأى؟ أيمكن أن نجد فى أى بلد من بلاد العالم المتحضر وضعًا متشابهًا؟. أيمكن أن يكون الوضع قد تغير، وأصبحت لأصحاب الرأى سجون أكثر احترامًا. إذا كان ولابد لهم من سجون؟ كلا.. فقد تغيرت الحكومات وتقلبت العهود.. والنظرة التى ينظرون بها إلى الآراء المخالفة هى هى، والسجن الذى يوضع فيه الكتاب لا يتغير.

ولم أعلم برد الفعل الذى تخلف عن حبسى إلا فى الصباح، وحين جاءنى الزوار من الأصدقاء.. وقد جاء أحدهم وفى يمينه إحسان.. وكان لا يزال صبيًا فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية، ودخل على ساهمًا، محدقًا بعينيه الصغيرتين، وقبل يدى كعادته ثم وقف بين الكبار ساكتًا لا ينطق، لم ينزف دمعة واحدة.. بل تغلب فيه الدهشة على الألم، والتحفز على الحزن.. وكان سرورى كبيرًا؛ لأنه لم يبكى رغم كل ما فى صدره من ألم، إذ وجدت فى ذلك دليلاً على رجولة مبكرة.

وقال لى الزوار إن الصحف كلها تحدثت عن سجنى، وأن الجرائد الأجنبية بالذات شنت على الحكومة حملات عنيفة لوضعها سيدة صحفية فى السجن على هذا النحو.. وقالت إن هذا العمل لم يسبق له مثيل، فى البلاد الشرقية على الأقل..

ووجدت الحكومة نفسها تحت ضغط أدبى قوى يدعوها إلى الإفراج عنى.. وانتقل الضغط إلى وكيل النيابة صاحب الشكوى ليتنازل عن شكواه، كطريقة وحيدة للتخلص من القرار الصادر بحبسى على ذمة التحقيق، فأقر بتنازله..

وعدت إلى منزلى، وكانت ابنتى الصغيرة، لا تزال تبكى، منذ أن تركتها إلى السجن...

الفصل السابع عشر

- أرادوا أن يكون ابنى جاسوساً.
- من المسئول عن حادث ٤ فبراير.
- قل لمولاك انى أرفض تهنئته!

تحدثت فى المقال السابق عن الوفد بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ ولابد للإحاطة بهذه الفترة من تاريخ مصر التى بدأت بعقد هذه المعاهدة وانتهت بنهاية الحرب.. لابد من نظرة سريعة نلقيها على بعض القوى التى كانت تتسلط على أقدار مصر فى هذه الفترة.. وحين أطوف ببصرى فى هذه السنوات التسع تقفز إلى خاطرى أسماء سير مايلز لامبسون، وأمين عثمان وعلى ماهر وأحمد حسنين..

أما سير ما يلز لامبسون، فإننى أستطيع أن أقرر أنه أخطر من مثل بريطانيا فى مصر. ولا أبالغ إذا قلت إنه سار على سياسة تخالف سياسة كل من عداه من المندوبين السامين والسفراء الإنجليز، فقد كان ممثلو إنجلترا دائمًا يتحالفون مع القصر ويناصبون الوفد عداء شديداً، أما السير مايلز لامبسون، فقد كانت

خطته منذ جاء إلى مصر ترمى إلى مهادنة الوفد ومسالمته ومقابلته فى منتصف الطريق.

وقد رأيت سير لامبسون مرة واحدة فى إحدى الحفلات التى كانت تقام فى قصر الزعفران، قدمنى إليه أمين عثمان الذى كان يطلق عليه اسم «ابن لامبسون»، وقد هالتنى قامته الفارعة الطول، وشخصيته القوية الطاغية وعيناه الفاحصتان، وكان كل ما فيه يصرخ بأنه رجل لا يعرف الحدود ولا القيود، وقال لى ضاحكًا: أترين أننى أجمل من الكاريكاتير الذى ترسمه لى مجلتك؟.. وكنت أعرف أنه يغتاظ جدًا من الكاريكاتير الذى كان يبدو فيه قبيحًا كبير السن.. ربما لأنه متزوج من شابة جميلة تصغره بكثير.

وقد رأيت بعينى كيف كان يخافه الآخرون. المصريون طبعًا. ويهابونه وهو بينهم يبدو بمظهر صاحب الأمر ومع أنه بعد معاهدة ١٩٣٦ أصبح سفيرًا وليس مندوبًا ساميًا إلا أنه احتفظ بكل حقوق ونفوذ المندوب السامى.

وكان مايلز لامبسون ـ كما قلت ـ متزوجًا من سيدة إيطالية تصغره فى السن بكثير، وكانت لأنها إيطاليا مكروهة من جميع سيدات الجالية الإنجليزية فى مصر، وكان الإنجليز يتقولون عليها نظرًا لتأثيرها على زوجها.. وقد كانا بخيلين، لا يتورعان عن الدخول فى صفقات تجارية بغية الكسب.. بل كان لامبسون إذا ذهب لرياضة الصيد لا يخجل حين يعود أن يبيع البط الذى اصطاده بالثمن..

أذكر أننى احتجت يومًا إلى عاملة مانيكير.. وحدثتنى هذه العاملة بأنها تذهب إلى السفارة البريطانية للعناية بأظافر ليدى

لامبسون.. وإن ليدى لامبسون تعطيها فى الزيادة عشرين قرشًا فقط، وقد أشارت العاملة مرة إلى قلة هذا الأجر فقالت لها ليدى لامبسون: إننا فقراء وزوجى متقدم فى السن وعندى ابن صغير يجب أن أدخر له لتربيته..

وكانت قد أنجبت ابنًا فى مصر أثناء الحرب، سمته فيكتور، وهو الاسم الذى قيل أن أحمد حسنين اختاره له..

وقد عرف لامبسون نقط الضعف فى مصطفى النحاس فاستغلها، وأقام صداقة سريعة معه ومع دائمًا فى الحفلات، خصوصًا أثناء الحرب ليخدر المصريين، ولينشر بينهم شعورًا بالصداقة فى اللحظات الحرجة من الحرب التى كانوا محتاجين فيها إلى هدوء المصريين وصداقتهم، ولاشك أن لامبسون كان عاملاً قويًا من العوامل فى تغيير خطة النحاس وفى إضعاف مقاومته مما أظهر الفساد حوله..

وقد تولى منصب رئاسة الديوان الملكى فى تلك الفترة من تاريخ مصر رجلان هما على ماهر وأحمد حسنين.. ولما كان القصر فى ذلك الوقت إحدى الجهات المؤثرة فى الحوادث، فلا شك أن هذين الرجلين مسئولان عن كثير.. وعلى ماهر لا شك من الشخصيات القوية البارزة.. وهو رجل له مشروعات كثيرة منها ما نفذ ومنها ما لم يتح له فرصة التنفيذ.. وهو معروف بسرعته فى إنجاز ما يريد.. مما مكنه من أن يصنع شيئًا رغم ما تميزت به وزارته من عمر قصير.

وقد كان ممكنًا أن يكون على ماهر مصدر نفع للبلد كبير، لولا أنه اتخذ جانب القصر، واعتمد عليه كمصدر يستمد منه قوته..

وقد دفعه لك إلى يتزعم فكرة توسيع حقوق القصر جعله مصدر الحكم الحقيقى.. وقد كان هو أول من أشار إلى الملك السابق أن يعين رئيسًا للديوان بغير موافقة ولا مشورة الحكومة، فعين بهذه الطريقة سنة ١٩٣٧ كما عين حافظ عفيفى سنة ١٩٥٢..

والدور الذى لعبه على ماهر فى السياسة المصرية أول عهد فاروق دور خطير.. فقد كان القصر يريد أن تكون له سلطة الحكم الحقيقية، فى حين كان الوفد فى الوزارة يصر على أن يظل الملك مقيدًا فى حدوده الدستورية، وكان على ماهر هو رجل الملك ومستشاره، بل ودافعه إلى هذا النفوذ، ولم يكن على ماهر يعمد إلى تقوية نفوذه ليحكم باسمه. وكان على ماهر يستند إلى بغية أن يصل إلى الحكم، كان الوفد يستند إلى الشعب فهو يعمد إلى تقوية سلطته ليحكم باسمه. وهو يقول فى تبرير هذا السعى للوصول إلى الحكم: إن له برنامجًا يريد أن ينفذه..

حتى حين خرج من المعتقل بعد الحرب، وفقد رضاء القصر، بدأ ينشر دعوته إلى الاتحاد، فإذا به يتخذ شعارًا: الالتفاف حول العرش. وكان هذا الشعار يثيرنى حتى صرخت فيه مرة: التفاف إيه؟! والقصر أصبح لا يعرفك.

وعلى ماهر إذا كان يشبه صدقى فى أنه مستقل مثله، وكان يحكم حكمًا فرديًا، ولكنه يختلف عنه فى كثير.. فعلى ماهر لا يعمل إلا إذا حكم، فإذا ترك الحكم اعتصم بالصمت العميق، وعاش فى انتظار فرصة الحكم مرة أخرى عاملاً وراء ستار، على العكس من صدقى الذى كان لا يتردد فى المجاهرة برأيه الصريح فى كل وقت، وفى وجه كل تيار.. كذلك فهو لا يشبه أخاه أحمد ماهر، الذى كان

صريحًا بسيطًا.. ولعل ذلك هو سر عدم اتفاقهما فى السياسة طول حياتهما، بل لقد فكر فاروق سنة ١٩٣٧ فى إسناد رئاسة الوزارة إلى أحمد ماهر، ولكن على ماهر حال دون ذلك وقال لفاروق: إن أحمد ماهر لا يزال صغيرًا.

وقد أيدت على ماهر كثيرًا.. وكنت أعتقد أنه الرجل العنيف فى عداوته للإنجليز من ناحية.. والذى يستطيع أن يرشد فاروق ويوجهه من جهة أخرى.

ثم حدث إن كنت أزوره مرة فى مكتبه، وهو رئيس للديوان وفاروق لا تزيد سنه على ثمانى عشرة سنة، وكان الشائع أن على ماهر - الرجل المجرب الكبير - هو الذى يحكم فاروق ويوجهه بل يخيفه أيضًا.. وبينما أنا جالسة فى مكتبة بالقصر إذ دخل موظف يقول له إن الملك آت.. وإذا بى أرى على ماهر يقفز من مقعده قفزًا، ويرتبك غاية الارتباك، وهو يبحث عن طربوشه يلبسه وينسق هندامه ويرتب مكتبه.. كما يفعل الموظف الصغير إذا سمع صوت رئيسه الرهيب.. ووقفت أنا ذاهلة لا أدرى ماذا أصنع، حتى سمعت على ماهر يقول لى مرتبكًا: أنت مستنيه ليه؟ أنت حتعملى إيه؟

وكنت فى دهشة من هذا الارتباك الغريب، فقلت له: من أى باب أخرج؟

فقال فى عصبية: من الباب اللى دخلتى منه.

وخرجت.. خرجت وقد عرفت نوع العلاقة بين على ماهر وفاروق..

وكنت فى تأييدى له، لم أكف عن مهاجمة الإنجليز بأقصى عنف، أليس الإنجليز أعداءنا.. أليس المفروض أن نكون فى حالة ثورة دائمة عليهم حتى يخرجوا؟.

ثم ذهبت مرة أزور أحد الوزراء السابقين من أخصائه القدامى مع زميل صحفى، وكان الزميل الصحفى من ذوى البصر الحاد الذى يجيد الالتقاط. فلمح على مكتبه خطابًا كتبه إلى على ماهر يقول فيه إنه قابل أمين عثمان وشرح له أن مجلة «روزاليوسف» لا تعبر عن رأيه . أى على ماهر ـ وأنه لا صلة له بحملاتها وأن هذه السيدة تتصرف بما يتراءى لها.. فلما خرجت أرسلت له خطابًا أؤكد فيه أننى مهما أيدته فإننى لم أفكر يومًا فى أن أكون لسانًا معبرًا له، وأننى لم أكن لأحد قط هذا اللسان.

وكرر على ماهر هذا التصرف معى مرة أخرى. كان رئيسًا للوزارة ورسمت «روزاليوسف» صورة كاريكاتيرية لسير مايلز لامبسون وغيره من الإنجليز فى ثياب القراصنة والمصرى أفندى ينصح لعلى ماهر ألا يركب معهم فى سفينة واحدة.

وذهب مايلز لامبسون يحتج عنده على هذه الصورة، فاتصل بأنطون الجميل، وطلب منه أن ينشر أن ما تنشره بعض المجلات لا يعبر عن رأى الحكومة.. مشيرًا إلى «روزاليوسف» فكتبت فى اليوم التالى أقول إن المجلة لا صلة لها بأحد.

ثم دارت الأيام.. وفقد على ماهر رضاء القصر، وحل محله فى رئاسة الديوان وفى الخطوة عند فاروق أحد أعدائه الألداء أحمد حسنين.

نعم.. فقد كان على ماهر وأحمد حسنين يتبادلان كراهية شديدة وقد لمست ذلك بنفسى. إذ ذهبت إلى أحمد حسنين مرة أحدثه عن خلافه مع على ماهر كلامًا شديدًا، ويكرر: ده هوه فأخذ حسنين يقول عن على ماهر كلامًا شديدًا، ويكرر: ده هو اللى خرب البلد.. ده رجل ألمانى.. ده كان حيودينا فى داهية..

ولم أقر حسنين على هذا الذى قال..

وكان أحمد حسنين شخصية ناعمة مهذبة.. شديد العناية بملابسه وحياته يجيد التزام قواعد الإتيكيت والمجاملة.. ولكننى لم اكن أرتاح لى هذا الشخص الناعم الخلاب، فقد كان صعبًا لكثرة هذا الطلاء الذى يضعه على نفسه أن تعرف حقيقته أو تسير غوره.. وكان الإنجليز ينشرون حوله دعاية بأنه جنتلمان، والواقع أنه كان صديقًا حميمًا لهم، مؤمنًا إلى أقصى الحدود بهم.. كان فى مجالسه الخاصة يقول: احنا من غير الإنجليز ما نعرفش نمشى! وإذا ذكرت له زعماء البلد قال لى: دول كلهم حرامية.. بس واحد يسرق جنيه وواحد يسرق عشرة..

وكنت أحيانًا أنقل إليه ما يقوله الناس على الملك، والفضائح التى تثار حوله، وأحاول أن أوضح له أهمية تأييد الناس لملكهم فيقول لى: يا ستى الملك رمى عرشه فى الشارع، ومحدش اتلقاه..

يشير بذلك إلى أن الملك السابق عرض عرشه فى حادث ٤ فبراير للخطر، ولكن أحدًا من الشعب لم يدافع عنه..

ولاشك أن هذا التصوير لحادث ٤ فبراير خاطئ من أساسه، وإذا كان هناك شخص مسئول عن هذا الحادث فهو أحمد حسنين وأحمد حسنين وحده..

فقد كانت الوزارات التى تتولى الحكم فى أول سنوات الحرب وزارات أقلية، وكان السخط يرتفع رويداً رويداً دون توقف، وتحرج الموقف وجيوش الألمان تغزو مصر حتى وصل الأمر إلى حد سير المظاهرات تهتف: إلى الأمام يا روميل.. وإلى حد اختفاء الخبز وانتشار الخوف من وقوع المجاعة. وكان الإنجليز منذ بداية الحرب يلحون فى إجراء انتخابات عامة يتولى فيها الوفد الوزارة، اقتناعاً منهم بأن هذه الطريقة الوحيدة لضمان رضا الناس حماية لظهورهم، كان حسنين يعلم هذا كله جيداً، ولكنه كان على رأس مستشارى الملك يصر بعناد على إقصاء الوفد بوسائل مصطنعة، غير آبه بتحرج الموقف الداخلى فى حين أن الأمر بسيط ولا يعدو أن يعود إلى الحكم أصحاب الأغلبية، مهما كان رأيه فيهم وفى الوقت الذى يعرف فيه أن الإنجليز هم أصحاب السلطة المطلقة، وأنهم لظروف الحرب لن يتورعوا عن ارتكاب أى شىء.. وظل حسنين متمسكًا بمشورته السيئة حتى تدخل الإنجليز على هذا النحو السافر فلم تكسب مصر من هذه السياسة كلها غير إشفاء غليل الأحقاد الشخصية، ونجح حسنين تمامًا فى إهداء كرامة مصر، وكرامة القصر وكرامة الوفد.. وفى إظهار بلده على هذه الصورة المؤلمة من الهوان.. بل لقد نجح فى أن يظهر لامبسون فى مظهر البطل الشعبى.. لأن الشعب كان يطالب بعودة الوفد، ولأن حسنين أبى أن تكون عودة الوفد إلا على أيدى الإنجليز..

وقد كتبت فى ذلك الحين مقالاً بهذا المعنى، وقلت فيه إن رئيس الديوان وظيفته أن يكون كالمنظار المكبر، يرى الحوادث قبل أن تقع، وكانت الرقابة مفروضة على الصحف، فعرض هذا المقال على أحمد حسنين فأمر بعدم نشره..

وإذا كان على ماهر هو المسئول عن جعل الملك طرفًا فى شئون الحكم، وعن جعل القصر مصدرًا للسلطة الحقيقية، فإن حسنين هو المسئول عن الخطوة الكبرى للفساد: عن إحاطة هذا الملك بحاشية من الحثالات.. لم تكن ترفع رأسها أيام رئاسة على ماهر، فهذا الرائد الذى كان يترك فاروق وهو صبى فى لندن يعيش كما يشاء، ويرتفع فى مغامرات الليل كما يحب كان - وهو رئيس ديوان - يترك فاروق الملك يفسق كما يريد ويسىء السيرة إلى أقصى الحدود.. عالمًا بذلك، ساكتًا عنه، مؤمنًا بأن تركه لنزواته خير وسيلة ليبقى هو صاحب الحظوة لديه..

ولا أنسى يوم قلت لحسنين أن الناس تسخر من الملك؛ لأنه أطلق لحيته، فقال لى: يا ستى «واحد طول دقنه.. والناس تعبانة ليه ؟!».

وليس هذا كله غريبًا بالنسبة لحسنين فهو رجل لم يشغل أى منصب سياسى ولم يعرف له أى دور فى المسائل المهمة..

وقد مثل حسنين فى أعقاب حادث ٤ فبراير دور عدو الإنجليز، وهو دور زائف لا يمثل الواقع فى شىء..

فقد حدث أن قدم نائب وفدى استجوابًا فى البرلمان عن ديون حسنين للحكومة التى لم يدفعها ورد الهلالى موضحًا هذه الديون وقال إنه سيتخذ الإجراءات لتحصيلها منه.. وبدأ البرلمان يناقشها والنواب يهاجمون حسنين وفكرى أباظة يحاول إنهاء المناقشة تنبؤًا بما سوف يحدث.

ثم دخل موظف همس فى أذن رئيس الجلسة.. وخرج الرئيس ليجد مستر سمارت - على ما أذكر - جاء يطلب إيقاف المناقشة وحذفها من محضر الجلسة..

وحذفت المناقشة، وقال فكرى أباظة: ألم يكن الأحسن أن نحذفها من أنفسنا؟.

وحدث أن أقمت حفلة بمناسبة عيد ميلاد المجلة، دعوت إليها كل زعماء المعارضة، وفى اليوم التالى جاء الأستاذ كريم ثابت يقول إنه جاء حاملاً تحية الملك وتهنئته للمجلة بهذه المناسبة.. بشرط ألا تنشر هذه التحية..

واستبدت بى ثورة هائلة، واتصلت بأحمد حسنين فى التليفون فوراً، وقلت له: هل صحيح أنك كلفت كريم ثابت بأن يقول لى كذا وكذا؟

فاعترف محاولاً أن يخفف المسألة، ولما تمسكت بأن أعرف السبب قال:

لأن مجلتك لونها فاقع فى مهاجمة الإنجليز وأنت عارفة الظروف!.

وزادت ثورتى، وقلت له: قل لولاك أنى فى غنى عن هذه التحية.. وأننى أرفضها منشورة وغير منشورة..

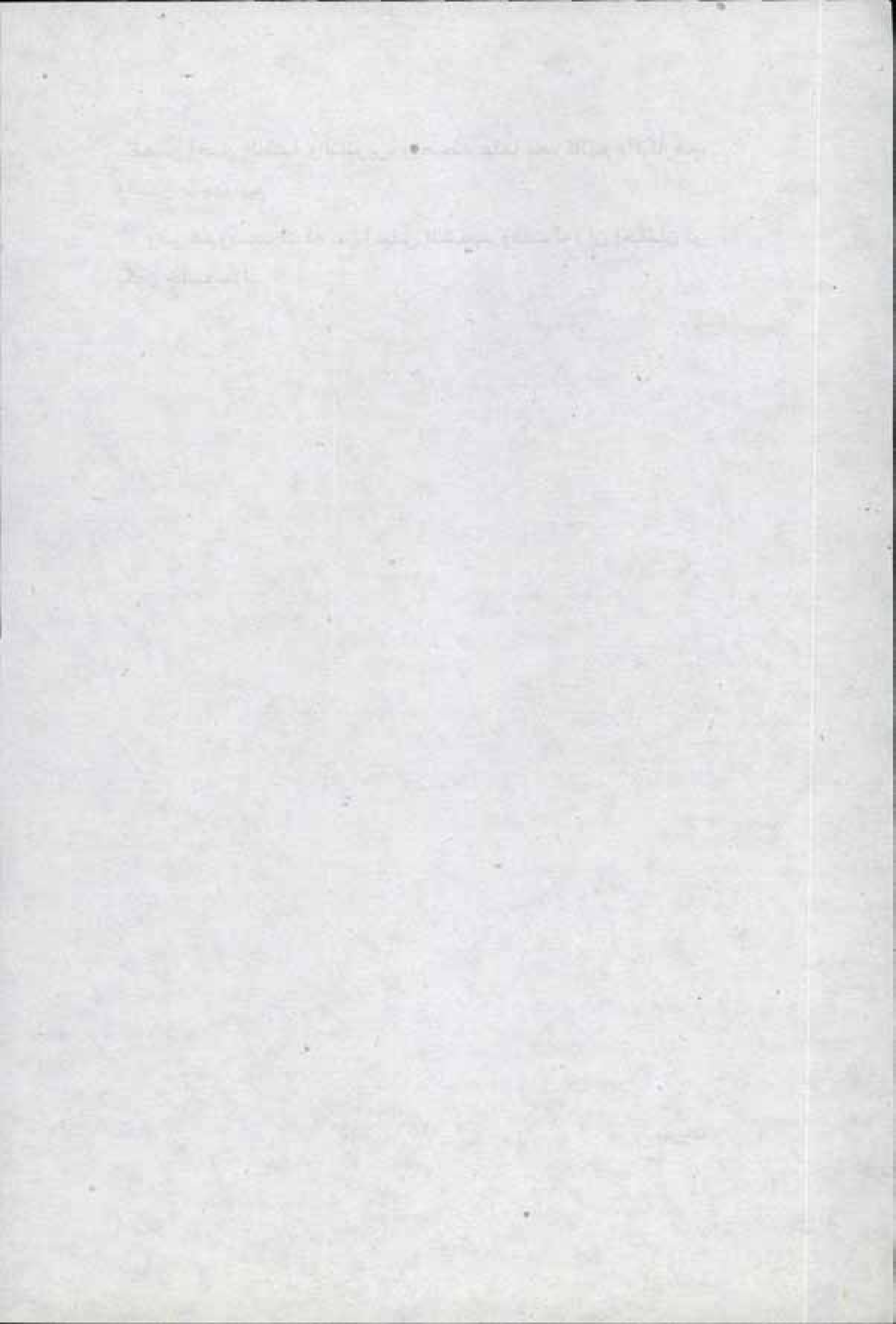
وأبلغت نفس الرد للأستاذ كريم ثابت..

وفى مرة أخرى.. كانت الجامعة تغلى ضد الإنجليز، وحركات الشباب لمقاومتهم لا تنقطع، وكان إحسان لا يزال طالبًا فى كلية الحقوق، واتصل بى أحمد حسنين تليفونيًا وقال إنه يريدنى فى أمر مهم.. فذهبت إليه.

وبعد أن رحب بى بطريقته اللبقة المعهودة، بدأ يفاتحنى فى الموضوع المهم، فإذا به يريد منى أن أقنع إحسان بأن يكون رسولاً له،

يتقصى أخبار الطلبة والثائرين، ويحيطه علمًا بحركاتهم وأفكارهم، والذين يوجهونهم.

وفى هدوء عبرت له عن أسفى الشديد وقلت له: إن إحسان لن يكون جاسوسًا!..



الفصل الثامن عشر

- كيف اصبح إحسان رئيساً للتحرير!
- للقراء ان يحكموا فى الخلاف بينى وبين ابنى.
- الصحفى الردىء لا يلوث المهنة كلها..

الآن وأنا أجلس فى مكتبى لأكتب الحلقة الأخيرة من هذه الذكريات أرى كلما انفتح باب غرفتى.. إحسان فى غرفة مكتبه الزرقاء قد خلع الجاكتة، وفك الكرافات، وعلى وجهه تلك "التكشيرة" التى يلبسها إذا استغرق فى العمل، كأنه يعصر ذهنه، أو كأنه يريد أن يذوب فى الورق الذى أمامه.. ولا أملك نفسى حين أنظر إليه من الابتسام، وخاطرى تطوف به عشرات من الصور والأحداث التى كان إحسان موضوعها، أو كان بطلها.

وتقف ذاكرتى واجمة ساهمة عند حادث صغير، وإحسان لم يزل ابن ستة شهور.

كنت فى ذلك الوقت ما أزال شابة صغيرة السن، همى كله منصرف إلى المستقبل الذى أحلم به، واسمى الذى أريد أن أبنيه، والنشاط الذى يكاد أن ينسينى نفسى، وبيتى وكل ما يتعلق بحياتى الخاصة..

وفجأة خرجت المرضعة التى كانت تعنى بإحسان. . واضطررت إلى أن استخدم فى طعامه اللبن العادى الذى يباع فى الأسواق.. وإذا به يصاب بتلبك فى المعدة خطير، فهو يسحب ويهزل وتسكن حركته، ويضعف الخيط الذى يربطه بالحياة ووجدت نفسى أنسى العمل الذى أنهض به، والمجد الذى أبحث عنه، وأنسى كل شىء إلا أننى أم، وأن ابنى فى خطر. وتضاءلت كل الأحلام الرائعة التى تطوف بى أمام حلم واحد هو أن يعيش ولدى، وتبدد كل نشاطى للعمل الكثير غير عمل واحد هو أن أعنى بهذا الابن، وأن أبذل له كل ما أملك.

وأسرعت به إلى الطبيب، وكان الدواء الذى وصفه له يقتضى منى أن الأزمة خمسة وثلاثون يومًا لا أبعد فيها عن فراشه شبرًا واحدًا، ولم أشعر بضجر من البقاء فى البيت طيلة هذه الأيام الخمسة والثلاثين، ولم أشعر بفراغ وأنا أنسى مشاكل الحياة العامة لا حصر تفكيرى فى هذا الفراش الصغير لقد اكتشفت أن العناية بابنى لا تقل خطرًا ولا جلالاً عن الإيمان بمبدأ أن العمل لأية غاية كبيرة والكفاح من حياته وصحته ومستقبلاً لا يقل شرفًا عن الكفاح من أجل أية عقيدة أخرى. . ومن يومها والبيت يشغل من اهتمامى قدر ما يشغله عمى وجهدى وكل متاعبى.

ولست أنسى يوم فتح إحسان فمه لأول مرة ليبكى بعد أن أسكته المرض هذا الزمن الطويل، وجريت إلى الطبيب أقول إنه يبكى..

فقال لى: أبشرى.. إنها علامة الشفاء..

لقد شعرت بعدها أن أبهر أحلامى قد تحققت، وأن جهادى قد تكلل بالنجاح وامتلأت حياتى إلى آخرها، وصرت أفرح إذا بكى، وأقلق إذا هدأ.

ثم أذكره وقد أصبح تلميذًا فى المدرسة الابتدائية، يذهب إلى المدرسة ويعود منها فى بنطلونه القصير، وفى يمينه حقيبة والكتب، فإذا جاء يوم الجمعة أعطيته عشرة قروش لينفقها فى نزهته، وهى عشرة قروش ظل يتمسك بأخذها كل أسبوع حتى بعد أن كبر، وتزوج وأصبح يكسب مئات الجنيهات.

وكان إحسان وهو فى هذه السن يجد كل الأمهات مقيدات فى البيوت ما عدا أمه.. وكان هذا يدهشه، فكلما رآنى أتهيأ للخروج مع الصباح سألنى:

- أنتى رايحة فين؟

- رايحة الشغل..

وأرى أنه يغضب لذلك، فأقول له:

بكره لما تكبر وتخلص تعليمك تبقى تشتغل مطرحى وأنا أقعد فى البيت.

ولم يكن فى سن تتيح له أن يدرك هذا، ولكن هذه الكلمة كانت حافزًا دائمًا له على الاجتهاد فى دراسته.. والاحتفاظ بالنجاح كل عام، حتى ينتهى من الدراسة ويعمل بدلاً منى، وما زلت أحتفظ بخطاب أرسله إلى وأنا على سفر وهو فى سن السابعة، يعتذر فيه عن إرسال خطابات ويقول: «أرجو أن تعرفى أنى أريد أن أكتب لك كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة، ولكن المدرسة والمذاكرة اللى على

شأنك أنا مجتهد فيهم بيعطلونى كل يوم أقول النهارده أذاكر، وبكره أكتب الجواب لماما العزيزة اللى أحبها أكثر من كل شىء».

وقد ظلت هذه الفكرة مسيطرة عليه حتى كبر فأصبحت عقيدة وأصبح من رأيه أن المرأة للبيت فقط لا للعمل.

أما أول احتكاك له بالسياسة والصحافة، فكان وهو تلميذ فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية، وكانت مظاهرات الطلبة سنة ١٩٣٥ تجوب الشوارع هاتفة بائتلاف الزعماء وإعادة الدستور، وكنت جالسة بمكتبى بالجريدة اليومية حين دخل على وقد احتقن وجهه، وعلى خده الأيمن آثار كرباج ذى ثلاث شعب، قد أزرقت خطوطه واحتبس خلفها الدم.. وسألته: ما هذا؟

فقال: عسكرى إنجليزى.

وعرفت أنه كان يسير فى المظاهرات فلم أعترض على ذلك، وجهدت ألا يبدو على أننى اهتززت لرؤيته على هذه الصورة أما هو فلم يبك قط، وقد ورث هذه العادة عنى.

ومن يومها بدأ يشترك فى نشاط الطلبة السياسى والوطنى، وكان يجلس معى ويستمع إلى آرائى وإلى الأنباء السياسية ثم يعود فى الصباح التالى إلى مدرسته ليشعل ثورة..

أما أول اشتغاله بالصحافة.. حدث أن سافر فى العطلة الصيفية إلى الإسكندرية، وتصادف أن مرض مراسل «روزاليوسف» فى الإسكندرية فجأة فى حين أن النشاط السياسى كله مركز هناك. فاتصلت بإحسان تليفونياً، وطلبت منه أن يحاول الحصول على بعض الأخبار، وأن يرسلها إلى فوراً..

وعرفت بعد ذلك القصة.

فقد ذهبت من فوره إلى فندق وندسور الذى كان ملتقى كبار السياسة فى ذلك الوقت.. ووجد أمامه الدكتور حسين هيكل جالسًا فتقدم إليه وحياه ثم قال له ببساطة:

أنا عايز أخبار!

ودهش الدكتور هيكل من هذا التلميذ الصغير الذى يطلب منه أخبارًا بهذه الطريقة وقال له: أخبار ايه يا ابنى؟

فقال إحسان: ماما قالت لى هات أخبار!

وزادت دهشة الدكتور هيكل، حتى علم أنه ابنى.. فضحك كثيرًا ورحب به.. وأرسل لى يومها أخبارًا كثيرة.. ملأت سلة المهملات..

وبدأ فى هذه المرحلة يكتب من حين لآخر قصة، أو حادثة، أو شيئًا من هذا القبيل، كانت أختار الصالح منه وأنشره له تشجيعًا، بإمضاء "سونة" فهو أول توقيع صحفى له..

وصار إحسان كلما اقترب من نهاية دراسته يزداد حماسة لهذه النهاية.. فكان فى كلية الحقوق إذا اقترب الامتحان حبس نفسه فى البيت وحلق شعر رأسه حتى يضمن ألا يخرج ويترك دراسته مهما كانت المغريات.. وكنت إذا سألته لماذا يحلق شعره هكذا، قال ضاحكًا: علشان البنات متعاكسنيش يا ماما..

وفرغ إحسان من امتحان الليسانس وعاد من الكلية مسرعًا قبل أن تظهر النتيجة فاحتل مكتبًا فى المجلة، وأعلن نفسه رئيسًا للتحرير ولما اعترضت على ذلك قال لى: إمالى أنا أكنت باتعلم علشان إيه؟.. مش علشان أشتغل بدالك وأنت تستريحى وحاولت أن أقنعه بأنه لابد له من بعض التمرين قبل أن يرأس تحرير المجلة،

ولكنه أبى ورفض أن يعمل فى «روز اليوسف» إلا رئيسًا للتحرير.. ولما أخذت عليه هذا العناد، قال لى كالعادة: هوه أنا جايب العناد من بره؟

وكأنه أراد أن يثبت لى أنه يستطيع أن يمضى بمفرده، وأنه لا يطالب بذلك لمجرد أنه ابن صاحبة المجلة، فذهب إلى التابعى الذى كان يصدر «آخر ساعة» فالتحق بها، وكنت أعطيه لقاء تمرينه فى «روزاليوسف» ستة جنيهات فأعطاه التابعى خمسة وعشرين..

وانتظرت أن يعود بعد قليل، ولكنه لم يعد، فقد نجح هناك وبرز، وأصبح عنصرًا مهمًا.. واتصلت بالتابعى بالتليفون أعاتبه ـ أو بالأصح أتشاجر معه ـ لأنه يغرى ابنى على العمل معه.. وقلت له: إننى أستطيع أن أعطيه المرتب الذى تدفعه له وأكثر، ولكننى أريده أن يتمرن.

وأعترف بأننى كنت أهاجم التابعى بشدة على تمسكه بإحسان وأنا مسرورة فى دخيلة نفسى. فقد كنت أمام دليل قاطع على أن ابنى قد نجح، وأنه يستطيع أن يقف على قدميه.. ولم يبق هناك أكثر من شهرين، ثم عاد.

وفى سنة ١٩٤٥ عاد إحسان إلى «روزاليوسف»، وكتب فيها أول مقال نشر فى الصحف المصرية ضد اللورد كيلرن، وكان النقراشى رئيسًا للوزارة فصادر المجلة، وقبض على إحسان وأودعه السجن، وقد حاولت أن أتحمل المسئولية نيابة عن ابنى وأن أدخل السجن بدلاً عنه، ولكن إحسان ثار، وشهد مكتب وكيل النيابة مناقشة حادة لا أعتقد أن تاريخ الصحافة فى العالم شهد مثلها.. مناقشة بين أم

وابنها كل منهما يريد أو يتحمل المسئولية، وكل منهما يريد أن يدخل السجن..

وانتصر وكيل النيابة لابنى وحمله المسئولية وأودعه السجن، وعندما خرج عينته رئيسًا للتحرير وأقمت له فى هذه المناسبة حفلة كبيرة سمحت له خلالها أن يدخن أمامى.. للمرة الأولى وفى هذه المناسبة - مناسبة تولى ابنى رئاسة التحرير - كتبت له خطابًا مفتوحًا نشر فى نفس الأسبوع نصه.

«ولدى رئيس التحرير»

عندما اشتغلت بالصحافة وأسست هذه المجلة كان عمرك خمس سنوات، وقد لا تذكر أنى حملت العدد الأول ووضعته بين يديك الصغيرتين وقلت:

«هذا لك»!

ومرت عشرون عامًا قضيتها وأنا أراقب فى صبر وجلد نمو أصابعك حتى تستطيع أن تحمل القلم، ونمو تفكيرك حتى تستطيع أن تقدر هذه الهدية التى كونتها بدمى وأعصابى خلال سنين طويلة لتكون اليوم لك..

والآن وقبل أن أضعك أمامى لأواجه بك الناس، دعنى أهمس فى أذنيك بوصية أم إلى ابنها ووصية جيل إلى جيل.

• مهما كبرت ونالك من شهرة، لا تدع الغرور يداخل نفسك.. فالغرور قاتل..

• كلما ازددت علمًا وشهرة فتأكد أنك لا زلت فى حاجة إلى علم وشهرة.

• حافظ على صحتك، فبغير الصحة لن تكون شيئًا..

• مهما تقدمت بك السن فلا تدع الشيخوخة تطغى على تفكيرك.. بل كن دائمًا شاب الذهن والقلب وتعلق حتى آخر أيامك بحماسة الشباب.

• حارب الظلم أينما كان، وكن مع الضعيف على القوى، ولا تسأل عن الثمن.

• حاسب ضميرك قبل أن تحاسب جيبك.. ولعلك فهمت.

• كن قنوعًا، ففى القناعة راحة الحسد والغيرة..

• ثق أنى دائمًا معك بقلبى وتفكيرى وأعصابى.. فالجأ إلىّ دائمًا..

وأخيرًا.. دع أمك تستريح.. قليلاً!!

ولا أذكر بعد ذلك أن إحسان خالفنى فى رأى، فنحن متفقان عادة فى الآراء السياسية، وقل أن نختلف إلا فى التفاصيل التى لابد فيها من الخلاف، ولقد يحدث أن يشتد بيننا النقاش فأثور عليه واستعمل سلطة الأم وأقول له: أنا عايزة كده! وهنا يستسلم إحسان ويقول: حاضر يا ماما..

وتقع هذه الكلمة من نفسى موقعًا سعيدًا، لا شك تعرفه كل أم، ولربما أرجع إلى نفسى فأجده على صواب، فأترك له حرية التصرف..

وإذا قلت إننا متفقان فى كل المسائل المهمة، فإننى استثنى من ذلك مسألة واحدة، هى قضية المرأة، فما زال إحسان يعتقد أن

المرأة للبيت وأنها لا تستطيع أن توفق بين بيت وعمل وإنها مهما تعلمت وتحررت ونجحت فإنها آخر الأمر إلى رجل تتبعه، وتكرس حياتها له.

وكثيراً ما أناقشه فى ذلك، فإذا ضربت له مثلاً بنفسى قال وهو يضحك: أنتى راجل يا ماما.

فاحتج على ذلك، وأقول له: كما قال مصطفى كامل لو لم أكن سيدة لوددت أن أكون سيدة!.

وقد كانت آخر مناقشة لى معه فى ذلك بمناسبة قصته الأخيرة «أنا حرة» فقد قدم لنا فيها صورة فتاة ذكية قوية الشخصية مستقلة الرأى جاهدت حتى تحررت من عبودية المرأة التى كانت شائعة منذ سنين، وجاهدت حتى رفضت أن تتزوج زواجًا لا خيرة لها فيه، زواجًا تكون فيه سلعة يشتريها رجل، وجاهدت حتى تعلمت وتخرجت فى الجامعة، وحتى التحقت بعمل ونجحت فيه نجاحًا مرموقًا.. ثم فجأة، إذا بنا نرى هذه الفتاة الذكية القوية تعدل عن خط حياتها كله لتهب نفسها لرجل، ولتحصر إيمانها فى هذا الرجل ولتصبح ـ وأستطيع أن أقول ـ عبدة لهواها بهذا الرجل.. حتى أنها لترضى بأن تعيش معه ثمانى سنوات بغير زواج..

ولم أتفق معه على هذا النهاية، التى رأيتها غير معقولة، ورفضت أن أسلم بأن فتاة بهذه الصورة ترضى آخر الأمر بهذه النهاية، وأقرب إلى المنطق أن تحب الرجل إذا أحبته، حب الزميل المساوى لزميله فى الحقوق، وأن تجمع بين عملها، وبيتها وأن تكون علاقتها برجلها شرعية لا تخجل منها ولا تستخفى بها.

وليس فى هذا الرأى كما يرى البعض أى إنكار أو تقليل من أهمية الرسالة التى تضطلع بها المرأة فى البيت، فإن مسئولية البيت وتربية الأبناء ومسئولية العمل فى رأيى واحدة، وهى مسئولية الحياة والنهوض بالمجتمع، وارتفاع المرأة إلى مستوى الرجل فى حقوقه يرفع من قيمة عملها فى البيت، لأنه يجعل عملها فيه عمل الشريكة لا عمل التابعة..

وأترك للقراء أن يحكموا فى هذا الخلاف بينى وبين ابنى.. وبعد.. فماذا أقول وأنا أختم هذه الذكريات؟

إن العمل السياسى لذيذ، ونبيل.. لذيذ؛ لأنه حافل بالتقلبات والتطورات بل والدراسات.. فأنت فيه تدرس الأشخاص والأشياء والموضوعات.. تدرس الأفراد والمجموعات.. تدرسهم نفسيًا وفكريًا واجتماعيًا، لتستطيع أن تسوسهم وأن تتأثر بهم وأن تؤثر فيهم..

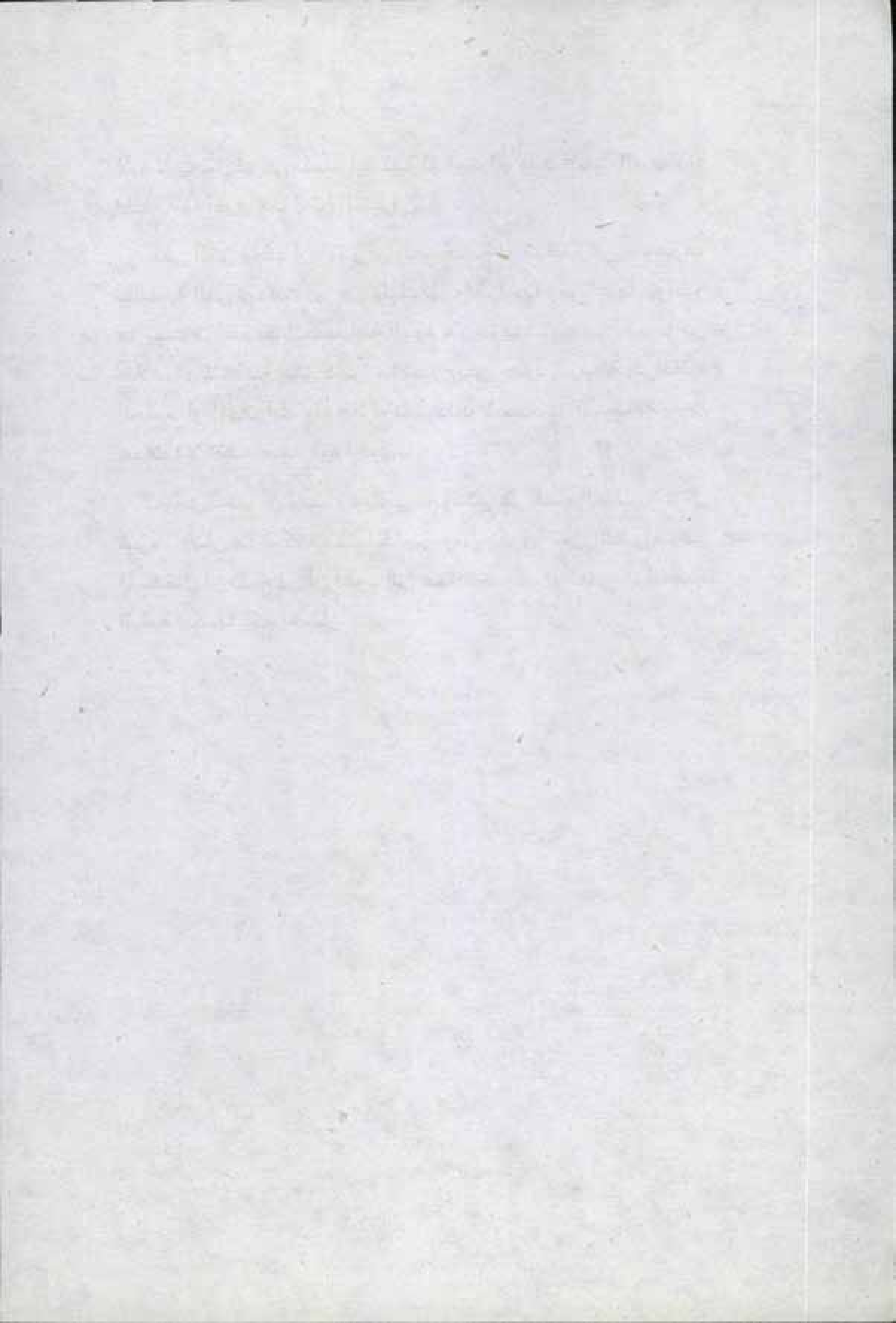
والذين - يقولون إن السياسة - مخطئون، فإذا كان هناك ساسة قذرون فإن هذا لا يشين السياسة نفسها، ولا يلوثها، وماذا تكون السياسة، أليست هى خدمة الوطن والمجتمع فى أعلى صورة وأشملها؟.. أليست السياسة صراعًا يدور حول حريات الناس وحقوقهم.. وكفالة العيش الرغيد والكرامة الموفورة لهم؟ أليس التعليم والإنتاج والتعمير والإصلاح.. بل والترفيه أيضًا.. أليس كلها أشياء يجب أن توجهها سياسة؟

أما الصحافة.. فإنها اليوم سلاح السياسة الأول.. وما قلته عن السياسة ينطبق على الصحافة.. فالصحفى القذر لا يمكن أن يسىء إلى المهنة ذاتها، والرأى العام يميز بسهولة بين أنواع الصحفيين والكتّاب، ولربما أقبل على قراءة ما يكتبه أحدهم، دون أن يتأثر به،

لأنه لا يحمل له فى نفسه أية ثقة أو احترام، وقد أثبتت الصحافة دائمًا أنها أقوى مما يظن الكثيرون.

على أننى يجب أن أذكر أن الصحافة لم تتقدم فى جوهرها بالنسبة التى تقدمت بها فى طباعتها وإخراجها وصناعتها.. وأكبر ما يفت فى عضد الصحافة اليوم هو ما يدب بينها أحيانًا من خلاف، والمنافسة التى كثيرًا ما تخرج عن حدود الزمالة إلى دائرة الحسد أو المهاترات، ولو قد اختفى ذلك لأصبحت الصحافة ماردًا عملاقًا لا تقف أمامه قوة أخرى..

ثم أنى أحب أن أعترف بأنى لم أكتب فى هذه الذكريات كل شىء.. وبأن ما تركته منها كثير، ومن يدرى؟ لعل الظروف فى المستقبل أن تتيح لى أن أعود إلى هذا الحديث، أو لعلى أترك هذه البقية ليكتبها لكم إحسان..



الفهرس

فاطمة اليوسف

«روز اليوسف»

(١٨٩٨ - ١٩٥٨)

ولدت روزاليوسف فى عام ١٨٩٨ لأسرة لبنانية من مدينة طرابلس اسمها الحقيقى فاطمة اليوسف، عاشت طفولة قاسية، مما أعطاها صلابة وقوة شخصية أعانتها فيما بعد على الصمود أمام معارك الحياه، فقد فارقت والدتها الحياه عقب إنجابها، كما أودعها أبوها لدى أسرة لتتولى أمر تربيتها وتعليمها.

جاءت إلى مصر فى الرابعة عشرة من عمرها، وقد بدأت حياتها كممثلة ناشئة فى فرقة «عزيز عيد المسرحية»، وتعلمت القراءة والكتابة والتمثيل، وأصبحت الممثلة الأولى فى مصر، وأطلق عليها لقب «ساره برنار الشرق». وتنقلت للعمل مع فرق مسرحية مختلفة إلى أن قررت اعتزال مجال التمثيل نهائيًا، والاتجاه إلى مجال الصحافة، فأصدرت مجلة فنية اسمها «روزاليوسف» انتشرت انتشارًا واسعًا، ثم ما لبث أن تحولت هذه المجلة إلى السياسة.

خرج العدد الأول من مجلة روزاليوسف فى يوم الإثنين ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٥ وبصدوره أصبحت «روزاليوسف» كما تقول: «حقيقة واقعة.. وكائنًا حيًا أحرص عليه.. وأقسم على أن يعيش وينمو بأى ثمن».

لم تحمل روزاليوسف شهادة مدرسية ولا مؤهلاً علمياً، وأخرجت جيلاً كاملاً من الكتاب السياسيين والصحافيين، وصنعت من اسمها حروفًا من ذهب فى عالم الفن والصحافة والسياسة، كل ذلك فى زمن كانت فيه المرأة تلعب دورًا هامشيًا فى الحياة العامة.

وفاطمة اليوسف.. هى والدة الكاتب الروائى الراحل إحسان عبد القدوس.

تقول روزاليوسف: «كلنا سنموت، ولكن هناك فرق بين شخص يموت وينتهى وشخص مثلى يموت، ولكن يظل حيًا بسيرته وتاريخه».

مكتبات البيع والتوزيع

أ - القاهرة

مكتبة المعرض الدائم
كورنيش النيل - رملة بولاق
ت : سويتش ٢٥٧٧٥٣٦٧
من ٩ ص: ٤م (صيفا - شتاء)

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨
من ٩ ص: ٧م (شتاء)
من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١
من ٩ ص: ٧م (شتاء)

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢
من ٩ ص: ٧م (شتاء) من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥
من ٩ ص: ٧م (شتاء) من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة الحسين
مش الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧
من ٩ ص: ٧م (شتاء) من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان - السيدة زينب
من ٩ ص: ٧م (شتاء)
من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة ١٥ مايو
خلف مبنى جهاز مدينة ١٥ مايو - حلوان
ت : سويتش ٢٥٥٠٦٨٨٨
من ٩ ص: ٢م (صيفا - شتاء)

مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوى
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو من أبو الفدا
ت : ٢٧٣٦٦١٧٨ - ٢٧٣٦٨٨٨١

ب - الجيزة

مكتبة الجيزة
ش مراد - ميدان الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١
من ٩ ص: ٧م (شتاء)
من ١٠ص: ٨م (صيفا)

مكتبة جامعة القاهرة
الجيزة - بجوار كلية الإعلام بالحرم الجامعى
ت : ٢٥٧٢٩٥٨٤
من ٩,٣٠ ص: ٣م

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - الجيزة - محطة المساحة
ت : ٢٧٣٦٦١٧٨ - ٢٧٣٦٨٨٨١
من ١٠ ص: ٨ م (صيفا - شتاء)

مكتبة أكاديمية الفنون

مبنى أكاديمة الفنون ش الهرم

ت : سويتش ٣٥٨٥٠٢٩١

من ٩ ص: ٢م (صيفا - شتاء)

جـ - الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

من ٩ ص: ٢م (شتاء) من ١٠ ص: ٨م (صيفاً)

د - محافظات القناة

مكتبة الإسماعيلية

الإسماعيلية : التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦ مدخل (أ)

ت : ٠٦٤/٣٣٤٠٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

الإسماعيلية: مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة - الجامعة الجديدة

ت : ٠٦٤/٣٨٢٠٠٧٨

(صيفا - شتاء)

مكتبة بورفؤاد

بورسعيد: بجوار مدخل الجامعة

من ٩ص: ٨م: ٢م: ٧م (شتاء)

من ٩ص: ٨م: ٢م: ٧م (صيفا)

هـ - محافظات الوجه القبلى

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٣٠٢٩٣٠

من ٩ ص: ٣م (صيفاً)من ١٠ص: ٨م (شتاء)

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٣٢٢٠٣٢

من ٩ ص: ٤م (صيفا) (شتاء)

مكتبة المنيا

١٦ ش خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٣٦٤٤٥٤

من ٩ص: ٨م: ٥م: ٨م (شتاء)

من ١٠ص: ٣م: ٦م: ٩م (صيفا)

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الأداب - جامعة المنيا

ت : ٠٨٦/٣٦٤٦٥٦

من ٩ ص: ٤م (صيفا - شتاء)

و - محافظات الوجه البحرى

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

من ٨ ص: ٢م : ٥م : ٨م (صيفاً - شتاء)

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان المحطة - المحلة

من ٩ ص: ٤م (صيفاً - شتاء)

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

من ٩ ص: ٤م (صيفا - شتاء)

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

من ٩ص: ٢م: ٥م: ٨م (شتاء)

من ١٠ص: ٣م: ٦م: ٩م (صيفا)

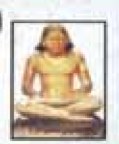
مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية ،جامعة منوف،

ت : ٠٤٨/٦٦١٣٣٤

من ٩ ص: ٣م (صيفاً - شتاء)





الهيئة المصرية العامة للكتاب

رملة بولاق - القاهرة

ص - ب: ٢٣٥ رمسيس (١١٧٩٤)

www.gebo.gov.eg



٧ جنيهات